

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

ص.ب : ٤١٢٣ بيروت – تلفون : ٢٣٢٨٣٢

AL-ADAB : Revue mensuelle culturelle
Beyrouth - Liban
B. P. : 4123 - Tél. : 232832

صاحبها ومديرها المسؤول
الدكتور سهيل إدريس

Propriétaire - Directeur
SOUHEIL IDRISS

سكرتيرة التحرير
عايدة مطرجي إدريس

Secrétaire de rédaction
AIDA M. IDRISS

*

الادارة

شارع سوريا – رأس الخندق الغميق – بناية مروة

الاشتراكات

في لبنان : ١٢ ليرة ■ في سوريا ١٥ ليرة
في الخارج : جنيهان استرلينيان او ستة دولارات
في أميركا : ١٠ دولارات ■ في الارجنتين ١٥٠ ريالا
الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ليرة لبنانية أو ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما
حوالة مصرفية أو بريدية

الاعلانات

يتفق بشأنها مع الادارة

ليلة الزفاف

قصة بقلم اديب نحوي

أم العريس :

يا ابني ، الله يرضى عليك ، متى تتزوج ؟ الكتاب كتبناه ، ومد الصدر والجنب : أنهيناه . عشرون رطلا من القطن وما كفتنا ، فاخرجت زيادة عليها من فراشي رطلين اثنين ، حتى حشونا بها المخدات كرامة لعينيك . وحتى موعد العرس عددناه : مساء الخميس ، قبل شهر من هذا اليوم وأسبوع ، فهل نسيت ؟ واشترينا لك من سوق العطارين الة الخزانة : قرص السكر الابيض والجوز واللوز والفستق من احسن الاصناف . واستأجرنا التخت والكراسي ، واتفقنا مع الخوجه والرقاصات . قالوا لي : يكفي عرس بالاقارب والجيران والاحباب ،دون خوجة تغني أو رقاصات ترقص ، فقلت : لا والله العظيم . هذه مئة ليرة سورية ، ادخرتها طيلة حياتي من الفرنك والفرنكين ، خذوها فانا لا أكلفكم من أجل العرس أي قرش ، لكني لا أرضى الا ان يتزوج ابني، بزفة تغني فيها الخوجة ، وترقص فيها الرقاصات ، بعرس يشتغل فيه ضرب الصناجات ، فهل لانه يتيم ، ومات أبوه من عشر سنين ، يتزوج.. طم غم .. بدون زفة ولا خوجة ولا رقاصات ؟ فلما تشاجرت مع الشرطة مساء ذلك الخميس ، في ليلة العرس ذاتها ، واخذوك الى الحبس ، وأتت أم العروس بعد أذان العشاء بساعتين وسألتني : يا ام احمد ،لماذا تأخرتم في الحضور لاخذ العروس ؟ يا سواد الوجه !! بم كنت أقدر ان أجيب ؟ فلا انا عرفت ، ولا أي واحد من أهل الحارة كان يعرف : ماذا جرى لك . انما كنا نعرف انك خرجت بعد صلاة العصر من الحارة، فاذن العشاء ومضت ساعة ، ثم ساعتان دون أن تعود . يا الله ، كيف العمل ؟ واخذت ابكي ، لا بد انه قد وقع لابني شيء ، لا بد . واخذت ابكي : فنحن لم نكن نعرف في تلك الليلة أنك كنت في باب الفرا وتشاجرت مع الشرطة ، واخذوك من هناك الى الحبس . فجلسنا نبكي جميعا : انا وعمتك واخواتك . ألغينا العرس واغلقنا الابواب على انفسنا ، وبقينا طيلة تلك الليلة ، الله لا يعيدها على مخلوق يوحده ، ونحن نبكي ونصيح : انقلب الفرح الى عزاء . طول عمرك يا ابني ما تشاجرت مع احد أو دخلت الى السجن مرة واحدة ، فماذا جرى لك ، حتى تشاجرت مع الشرطة في باب الفرج ليلة زفافك ؟

— • —

الله يرضى عليك . الحبس يا ابني وانتهى ، وانني احمد الله واشكره من اجل ذلك ليل نهار ، وأرفع يدي الى السماء : احمدك يا ربي واشكرك انك أخرجت لي ابني من السجن ، ألف الف مرة . فمتى يا ابني نعود وندعو الناس لفرحك ونعمل العرس ؟ ونقيم الحفلة في اوسع بيوت الحارة . في بيت جارنا الحاج بشير ناعورة ، فننصب هناك التخت في صدر ارض الدار ونصف الكراسي ، وتحضر النسوان: كل واحدة وهي ترتدي احسن ثوب عندها ، فتقبلني من خدي . وتقول لي : يهنيك يا أم العريس ، والخوجة فوق التخت تدق على العود وتغني ، واخواتك السبع المتزوجات جميعهن واقفات حولي ... ما شاء الله كان ، ترد العين : فواحدة تهنهن : الله ساوى .. وبنات ترد عليها بالزغاريد : لي لي ليش . وتصيح البنات : النذر يا ام احمد ، النذر . نذر علي من زمان يا ابني لجميع القريبات والجارات ان اقف مع الصبايا

ليلة عرسك ، وارقص . فلما انهض وانا خجلانة : يا عيب الشوم فانا امرأة عجوز ! واشبك يدي بايدي البنات وننقش باصابعنا ونرقص ! فالخوجة عند ذلك تدق من فوق التخت : سلام لام العريس بينما الرقاصة تتمايل الى جانبها ونضرب بالصناجات : جاق جاق جاق ،بينما البنات يضعن لها في فمها ثلاث ملبسات ، ويشكلن لها على صدرها بالدبوس ورقة ام الخمسين ، لكن امام الناس ، فنستردها منها بعد ذلك ونعطيها بدلا منها خمس ليرات .

متى يا ابني افرح بك ، واراك داخلا ليلة العرس بعد ان يوصلك الرجال الى باب دار الحاج بشير ناعورة ، فتدخل وانت لابس قنباز الحرير الابيض ، وتلف عليه الشال العجمي ، وفوقه الجاكيت الاسود ، وتشتغل الزفة : عريسنا الاسمر .. حلو وصغير .. اسم الله عليه،واناه والدنيا لا تسعني من الفرح احس كأن قلعة حلب صارت كلها ملكي ، وقد اخذني الحال ، واهنهن وازغرد . بينما الصبايا يتهامسن : ما احلاه ، اسمر لكن حلو .. وعيونه سود وحلوة ، يا الله على عيونه ما احلاها.! الله يخليه لامه ، خزيت العين عنه ... اه وانت تنحني لما تصل لعندي بين صفين من النسوان ، واقبلك على خديك ، وابكي : ايهي ايهي ايهي، ويحين عند ذلك وقت وضع اليد باليد ، فآخذ يدك واضعها في يد العروس . ليت الله مد في عمر ابيك عشر سنين اخرى حتى يفرح معي بهذه الليلة ، يا ليت .

والد العروس :

يا أم محمد : انت ام العروس فمن غيرك يذهب لعند اهل العريس ويسألهم متى تكون ليلة الزفاف . ؟ عريس ابنتك عيوش ، احمد بن حسن بطل ، يتيم ، وليس له اب ، ووحيد في عائلته وليس له عم او اخ كبير او خال حتى اذهبانا الى واحد منهم ، واساله هذا السؤال . وانا لا يمكنني ان اتكلم معه بالذات في هذه المسألة ، عيب ان يفاتح والد العروس صهره في هذه المسألة . ولا يمكنني ايضا ان اتكلم مع النسوان ، انا رجل ، ولا اتكلم الا مع رجل . وما دام ليس للعريس سوى امه واخواته وعمته ، وهن جميعا من صنف الحريم ، فاذهبي انت واسألي امه : الى متى ، وكم ننتظر ؟ فبأي وجه اقابل انا اهل الحارة يا ام محمد؟ لانهم وان كانوا لا يحكون امامي ، الا انهم لا بد قد اخذوا يتكلمون فيما بينهم : هل ان احمد بن حسن بطل لم يعد راغبا في البنت ، وقلب ؟ العرس كان مساء الخميس قبل شهر وجمعه ، والشرطة ليلتها امسكوا بالعريس في باب الفرج . فماذا كان يفعل هناك ؟ وهو في ليلة زفافه ، ماذا كان يفعل ؟ وكيف تشاجر مع الشرطة ، كيف ، فلا بد انه كان قد ذهب الى خمارة عبود قجقجي في بستان كل آب ، وظل يشرب مئة درهم من العرق مقدار ساعة ، ليودع حياة الجهل بمناسبة زواجه وبعد ذلك يتوب ، كما كان الواحد منا يفعل ايام الشباب . لكننا نحن كنا عقلاء ، كنا اذا سكر الواحد منا وخرج من خمارة عبود قجقجي في بستان كل آب الى ساحة باب الفرج ، فانه يتشاجر مع كل واحد يراه في وجهه ، ونسحب الخناجر وكل واحد يصيح : دوه انا ابو حمدو راعي الحصان، او انا ابو علي شيخ الشباب . لكن هل كنا نتشاجر مع الشرطة ..! ابدا ، فالمجنون وحده هو الذي يفعل ذلك ، خصوصا اذا كان ذلك في ليلة زفافه . لانه اذا تشاجر مع الشرطة فلا بد ان يأخذوه الى النظارة، واذا الواحد بات ليلة زفافه في نظارة باب الفرج ، فكيف ، كيف يمكنه ان يتزوج ؟ . يا الله ، خير على كل حال . احمد بن حسن بطل ، لا بد انه سكر ليلة العرس ، والشرطة حبسوه شهرا بكامله : ما عليه شيء ، الحبس للرجال : فانا دخلته عشر مرات في ايام شبابي ، وسكرت مئة مرة واكثر ، الله يعفو عنا . لكن الحبس وخلص ، والعريس وقد خرج من السجن ، فان عليه ان يقول لنا ، نعم يجب ان يقول لنا : متى تكون ليلة العرس يا ام محمد ، ام هو لم يعد راغبا في الزواج من بنتنا ، وقد قلب ؟

ام العروس :

يا ام احمد .

ابنك احمد صار صهرنا بشرع وسنة رسوله . الكتاب كتبناه يا ام احمد بعد ان قعدنا نختلف على المهر مدة شهرين : فأنت لا تدفعين سوى خمسمئة وابوها لا يرضى الا بالالف . مدة شهرين وقد نشفت عيوننا : حتى رضينا معكم على سبعمئة ، بينما بيت بلبل يدفعون لنا الفين ، ولو اردنا ثلاثة الاف ، لاخذناها بتمامها . فنحن فضلنا ابنك احمد على ابن البلبل ، لان زوجك رحمة الله عليه حسن بطل ، كان صديقا لزوجي من الروح للروح . وزوجي ابو محمد ظل يقول : احمد بن حسن بطل مثل ابني وانا لا ازوج بنتي عيوش لغيره . فانت تعلمين يا ام احمد : ان بنتي عيوش هي احلى بنات الحارة . بيضاء ، وعيونها زرق سبحان من خلق . وشعرها اشقر مثل قصاصات الذهب ، وعنقها مثل عنق الغزال ، وفمها بقدر حبة الفستق الحلبي ، وعمرها سبعة عشر عاما لكنها اطول مني بشبرين وفتر . هل تذكرين يا ام احمد : كم واحدا خطبها من ابيها .. ؟ عشرة ، عشرين ، والله العظيم واكثر . لان بنتي لا توجد بنت احلى منها في كل الحارة . فاننا رفضنا : لا نزوجها الا لاحمد بن حسن بطل . قسمة ونصيب .. واذا كانت ارادة الله ان لا تتزوج عيوش من ابن البلبل ، بل من احمد بن حسن بطل ، فهل نحن نقدر على تغيير ارادة الله ؟ حاشا وكلا : لا يمكن ابدا . قسمة ونصيب.

فيا ام احمد : الذي وقع ليلة الزفاف الماضية ، وقع ، وانتهى ، وسبحانه تعالى اذا كتب الامر ، فلا بد ان يصير . لكن احمد خرج الان من السجن ، وقد مضى عليه اسبوع وهو في البيت ، وزوجي سألني : متى يأتون ويأخذون البنت يا حرمة ؟ فماذا اقول له ؟ ويسألني ايضا ، لا تؤاخذيني يا ام احمد : هل احمد بن حسن بطل ، قد قلب ؟ فانا قلت له : محال ، محال ان يكون احمد بن حسن بطل قد عدل عن الزواج بابنتنا وقلب . فماذا يريد ؟ فلو فتش بين الف بنت من بنات حارتنا ، فهو لا يقدر ان يجد واحدة بجمالها ، ابدا . وهو يعلم ، نعم ، ان احمد ابن حسن بطل يعلم ، ان اولاد الحارة جميعا يحسدونه لانه فاز بالزواج من عيوش ، التي كان كل واحد منهم يتمنى ان تكون زوجته . لكني بيني وبينك يا ام احمد ، أريد ان اسألك ، ونحن اهل واحباب .ان تقولي لي بصراحة : متى تكون ليلة الزفاف ؟ وهل ان هذا التأخير بعد خروج احمد من الحبس ، سببه : ان احمد لا سمح الله : قلب ؟

العروس :

يا بنت جيراننا ، يا سامية .

قولي لي : ماذا تحكي بنات الجيران عني ؟ دخيل النبي ان تقولي لي . انت يا سامية ، وانا ، عيوش ، صديقتان من وقت أن كنا بنتين صغيرتين ، والواحدة لا تخفي اي سر عن الاخرى مهما كان . ونحن تعاهدنا، انا وانت وحدنا ، لما تحب الواحدة منا ، الشاب ، ان تأتي وتحكي للاخرى عن السر ، ان الواحدة منا وهي تملأ سطل الماء من حنفية الحارة ، اذا رأت شابا ينظر اليها ، وهو متلهف على رؤية وجهها من تحت الحجاب، ان تأتي وتحكي لصاحبتها . فاذا اعجبها هذا الشاب ، وكان وجهه حلوا وعيناه كبيرتين ، وينظر اليها كل مرة بلهفة فكأنه مشتاق لها ولم يشاهدها من سبع سنين ، أن تأتي وتقول لصاحبتها : انها وقعت في الحب . الم نتفق انا وانت من زمان على ذلك ؟ فقولي لي : ماذا تحكي بنات الجيران عني ، عندما تتقابلين معهن على الحنفية ، وانت تملئين سطل الماء مع اذان المغرب ؟ ماذا ، ؟! يقلن : ان احمد بن حسن بطل ، بعد أن كتبنا الكتاب وحددنا ليلة الزفاف ، خرج الان من السجن ، وقد قلب ! فهل انك انت التي تعرفين السر ، تصدقين هذا الكلام ؟! يا عيني على وهم تلك البنات ، يا عيني ! ام انه الحسد يا سامية ، الحسد !. أم انها الغيرة ، تأكل قلب كل واحدة منهن لان احمد تزوجني انا ، دون اي بنت اخرى ! فكل واحدة منهن تتمنى أن يكون قد خطبها احمد ، وتزوج منها. لانه احلى شاب في الحارة كلها : طويل واسمر وعيونه سود . يا روحي على عيونه : لما ينظر بها الى البنت ، فانها تدوخ وتكاد تقع على الارض. وانا حكيت لك يا سامية : منذ ان نظر الي وانا صبية اول مرة ، من ثلاث سنين ، انه هو الذي سحرني ، هو الذي فتنني ، فلم اعد اقدر ان انام الليل من طول ما افكر فيه . وصرت كل ليلة اقرأ اية الكرسي ثلاث مرات وانفخها من اجل أن الله يحميه . فهل انك صدقت ان ابي لم يزوجني من ابن البليبل رغم انه دفع المهر ثلاثة الاف مع سنارة من الذهب وحلق لولو ، وفضل احمد بن حسن بطل عليه ، لمجرد أن اباه المرحوم كان صديقه من الروح للروح ؟! لا ، ابدا .. يا سامية . الم احكي لك مئة مرة كيف انني صرت ابكي ليل نهار ، فلما سألتني امي عن السبب، اعلمتها : انكم اذا زوجتموني لشاب غير احمد بن حسن بطل ، فانني اشرب طعم الفار واسم نفسي واموت . فهذا الذي جعلهم ، يقبلون المهر منه سبعمئة ، بينما غيره يدفع بدلا من الالف ، ثلاثة . نعم ، انا احبه يا سامية ، من بعيد لبعيد . ووالله العظيم انا لم اتكلم معه ولا كلمة قبل ما كتب الكتاب ، ابدا . غير مرة واحدة هي تلك التي حكيت لك عنها ، اتذكرين ؟ تلك التي لما كنت عائدة لوحدي من الحنفية احمل سطل الماء بيدي ، و .. ونظرت اليه . اه يا سامية اه . فانني حكيت لك يومها كيف انه كان يبتسم وهو يمر من زقاق بيت السنبل ، ويحدق النظر الي ، بل حكيتها لك الف مرة ، فانني رفعت عيني ونظرت اليه .. اه يا سامية ، وكان وقت المغرب ونحن وحدنا في الزقاق ولا احد يرانا. والدنيا صيف ، وانا امسك ، فوقانية الملحفة باسناني ، فلما ابتسم ، وجدت نفسي دون أن ادري وانا ابتسم له . اه ، وافلتت اطراف الفوقانية من بين اسناني ، وظهر له عنقي واعلى صدري ، لا بد انه رأى عنقي واعلى صدري يومها ، لا بد . يا الله . فانا اضطربت كثيرا وكدت اقع على الارض ، انا دخت يا سامية ، والله العظيم ، دخت . اه يا سامية :فانا احبه ، احبه ، واموت في عينيه ، وهو يحبني ، ويحبني ، وقد لمح مرة عنقي واعلى صدري .. وابتسم . انه يحبني ، والا لماذا تزوج مني، وكان بامكانه ان يتزوج من بنت وجيه الحارة كلها ، الحاج خليل ، التي تعشق الارض تحت قدميه . فكيف يا سامية ، قولي لي : كيف ان احمد يتركني؟ وكيف تقول البنات من غيرتهن : انه بعد ان خرج من السجن ، قلب ؟! آه لو اسمع واحدة منهن تحكي ذلك امامي ، فاني أقطع شعرها بيدي. واقول لها : موتي من القهر يا بنت فان أحمد يحبني ولا يتزوج اي واحدة من بنات الحارة سواي . لكنهن ، مسكينات ، بنات حارتنا ، لا يعرفن مثلك السر . لا يعرفن اننا : انا واحمد ، كل واحد منا يحب الاخر من بعيد لبعيد ، قبل كتب الكتاب بثلاث سنين .

أم العريس :

اليوم يا ابني ، انت ام محمد ، أم العروس . وسألتني : متى تكون ليلة الزفاف يا ام محمد ؟ فان زوجها يسألها كل يوم : متى يأتون ويأخذون البنت يا حرمه ؟ فبماذا اجيبها يا ابني ؟ واين اذهب بوجهي امام اهل عروسك ؟ وأبو محمد والد العروس قال لها : انك مساء ذلك الخميس تشاجرت مع الشرطة ، بعد ان شربت العرق في الخمارة ، فهل ذلك صحيح ، يا احمد ؟ قل لي يا ابني الله يرضى عليك : الى متى ننتظر ؟ انا وعمنك واخواتك واهل زوجتك . متى تتزوج وتدعني افرح بك ؟ وانا يا احمد امرأة على عتبة القبر فان لم امت اليوم ، فغدا اموت. وانت ابني الوحيد يا احمد ،عمرك عشرون سنة ، وقد كبرت وحان موعد زواجك بل وتأخرت عن الزواج مقدار سنتين . عمرك عشرون سنة يا احمد وفي موسم المشمش القادم يصير واحدا وعشرين . فكيف تتركني اموت قبل ان اكحل عيني بالنظر الى ابنك الاول : حسن . الى ابنك وهو ينام على يدي بعد أن الاعبه ، واقبله طيلة النهار ، فان بكى في الليل ، اظل اسهر الى جانبه حتى يعود الى النوم ، ولا انام الا اذا نام. متى يا احمد متى ؟ فهل قدر لي ان اموت قبل أن ارى اي شيء من ذلك؟ وانا ، هل تعلم يا احمد،انني ما زلت احتفظ بملابسك التي كنت تلبسها وانت طفل ابن سنتين ، بل وانت ابن سنة ، وانها جديدة ، وقد اخفيتها في صندوقي لاعطيها لابنك حسن يوم يولد ، وفيها ثوب من الحرير الاحمر ، كان ابوك اشتراه لك لما فطمتك ، فهو ما زال يلمع ، والله العظيم ، كأنه جديد ، وخيطناه هذا اليوم . فمتى يأتي حسن ، ويكبر ، واراه وهو يتعلم المشي لابسا هذا الثوب الاحمر ، متى .. ؟ واذهب الى قبري سعيدة بان ولد لابني احمد ، ولد يحمل اسم جده حسن ؟!

العريس :

الم يبلغك يا امي : انهم امسكوا اليوم بعشرين عاملا من المصنع الذي كنت اعمل فيه ، وانهم لو لم يكونوا قد طردوني من عملي هناك ، لكنت اليوم مع رفاقي العمال ، معتقلا في السجن ، مرة اخرى . الم يبلغك ذلك يا امي ؟! فمنهم ابن حارتنا صالح فتال الذي هو مثل اخي وبقينا عشر سنين نشتغل في مصنع واحد وجوقة واحدة وعلى نولين متجاورين . نعم انهم اعتقلوا هذا اليوم صالح فتال من المصنع الذي يشتغل فيه بالعرقوب . هو اليوم في السجن وفي بيته زوجة وولدان. وانت يا امي تعرفين زوجته بنت العبجي ، فكيف انك تذهبين اليها وتدعينها الى العرس ، بينما زوجها في السجن وقد ترك لها في البيت ولدين ؟ اه يا امي اه .. والاخر ، صديقي الاخر ، بماذا احدثك عنه : ذلك الولد الاشقر ذو الشوارب المبرومة ، الذي كان يحضر لزيارتي بعض ايام الجمع مع زملائي الاخرين . هل تتذكرين ؟ الذي كلما حضر وزارني، تنسين اسمه وتسألينني : ما هو اسم صاحبك الذي زارك اليوم ؟ فلما اسألك : ايهم ؟ تمزحين وانت ضاحكة وتقولين : ابو الشوارب . هل تتذكرين يا امي ؟ هل تذكرته ؟ الولد الاشقر الطويل الذي اسمه جميل نحاس ، وهو من محلة المشارقة .. اه ، نعم الان عرفته . اه يا امي ما دمت قد تذكرته فماذا اقول لك ؟ انا خرجت مساء الخميس فاخذوني الى السجن . لكنه خرج صباح السبت يا امي ، ولم يعد . خرج من بيته في المشارقة الى العمل في العرقوب ، ومن العرقوب مع جمهور من العمال الى شارع التلل ، ومن هناك : لم يعد ، ولن يعود ابدا يا امي ، لن يعود لا الى البيت حيث تنتظره امه مثلما كنت تنتظرينني ، ولا الى العمل ليشتغل بالنسيج على الماكينة . فكيف انني ادعوه الى حفلة زفافي ، كيف ؟ هل اذهب اليه في الجبانة ، وارجوه ان يخرج من القبر، ليحضرها ؟ وماذا يفعل بالعشر رصاصات التي اطلقوها عليه من الدبابة وكل رصاصة طولها شبر وثخنها بقدر ابهام اليد ، وجميعها استقرت في صدره ؟ اسمعي يا امي ، فانا لم اخرج مساء ذلك الخميس ، ليلة زفافي الى باب الفرج ، لاشرب مئة درهم من العرق ، لا والله العظيم. انما انا خرجت لأؤيدهم . لأؤيدهم . ولم اذق في ذلك المساء ، ولا نقطة

واحدة من العرق ، لا ، وحقك يا محمد يا رسول الله . انما كنت سعيداً بعد ان ذهبت وايدتهم فكأني كنت شربت من العرق الفاخر ، مقدار مدقتين واكثر . نعم ، انا ذهبت الى هناك وايدتهم . وقلت للذي استقبلنا وهو ينهض من وراء مكتبه : نحن معكم ، وكان يصحبني وفد من شباب رأيتهم هناك على الباب ولا اعرفهم ، لكنهم تركوني اتكلم باسمهم . نعم هكذا ، لما وجدوا انني مثلهم ، وادخلنا الجنود الى مبنى القيادة ، وصعدنا الدرج ، وقال عسكري كان يرافقنا : هذه غرفة العميد قائد الموقع ، فانا دخلت اول واحد ، ووقفت بمواجهته . يا الله ما كان اشجع قائد الموقع ، فهو لا يضطرب ابداً بل يبتسم . فلما نهض وصافحنا بقوة وقال : اهلا بكم يا شباب ، كم تحمسنا !! وكم احببنا ذلك القائد وهو يقول : نحن ضد الانفصال . ويبتسم ، ولا يخاف . فانني اخذت اتكلم ، وقلت له : نحن معكم ، ضد الانفصال . نقول لكم ذلك ، باسم... باسم الشعب كله . فهتف الذين كانوا معي ، وكل واحد يغلي الدم في عروقه : نعم ليس باسمنا فقط ، بل باسم الشعب كله ، فهكذا ذهبت انا يا امي الى قيادة الموقع وحدي ، ودخلت لعند القائد ومعي وفد عدده خمسون شابا . وتكلمت ، فاذا بي اتكلم باسم الشعب كله ! فهل فهمت يا امي ؟ انا لم اخرج مساء ذلك الخميس لاشرب العرق في الخمارة. لكن لما بلغني ان قائد الموقع الشريف رفض ان يؤيد الانفصال ، ذهبت انا من حارتنا الى قيادة الموقع وايدته . نعم ، ايدته باسم الشعب كله وقلت له : ارواحنا فدى الوحدة .

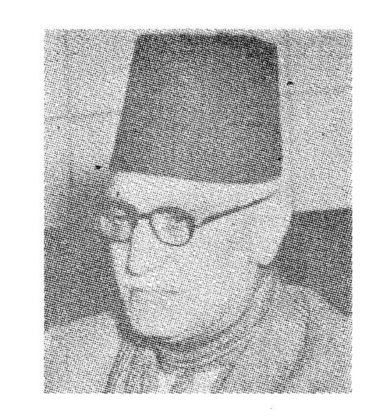
— • —

آه يا امي ، فانني لما خرجت من هناك ، من قيادة الموقع ، كنت قد نسيت كل شيء : العرس والعروس ، وانت وعمتي واخواتي ، وكل شيء . وصرت اطوف على زملائي في بيوتهم : ان غداً ، غداً موعدنا يا شباب ، عند باب قيادة الموقع ، منذ الصبح ، لنأخذ السلاح . هكذا قال لنا قائد الموقع : تعالوا غدا ونحن نوزع عليكم السلاح ، ونقاوم الانفصال حتى الموت . فلما اذن العشاء يا امي ، هل تعرفين اين كنت ؟ انني كنت قد وصلت الى بيته في المشارقة الى بيت ذلك الولد الطويل الاشقر ، الذي له شوارب مبرومة . نعم ، نعم ، جميل نحاس ، فهناك، في بيته بالمشارقة ، اجتمعنا اكثر من مئة عامل من ابناء ذلك الحي ، وتعاهدنا أن ننزل جميعا منذ صباح الغد لحمل السلاح ومقاومة الانفصال . فعندما انتهى الاجتماع ، رافقني جميل نحاس حتى باب منزله ، ولا ادري لماذا انه فتح ذراعيه وعانقني على الباب ، وشعرت بالدموع تسيل على خديه وتندي خدي وانا اعانقه . سألته : لماذا تبكي يا جميل ؟ فابتسم . يا الله انه ابتسم! وقال لي : ابكي من الفرح لان مدينتنا رفضت تأييد الانفصال . فهل كان انه ايضا يودع في تلك الساعة، شبابه يا امي ؟ والدنيا والحياة والاصدقاء ؟ هل أن الله الهمه : ان عانق يا جميل نحاس صديقك احمد بن حسن بطل مودعا ، لانك لن تراه بعد هذه الساعة ابدا . اه يا امي : جميل نحاس لم يتزوج بعد . وامه لم تخطب له بنتا . وهو حكى لي منذ أكثر من سنة : متى انهيت خدمة العلم اخطب واتزوج . جميل لم يذهب بعد الى خدمة العلم كما ذهبت انا وصالح فتال . والناس كانوا يظنون ان عمره ثلاث وعشرون سنة ، لانه طويل وله شوارب كبيرة ومبرومة ، لكن جميل نحاس لم يكن قد اخذ دفتر التجنيد ، لانه يا امي ، لم يكن قد بلغ الثامنة عشرة من عمره بعد. قال لي ، لما سمع باني خطبت عيوش وعزمت على الزواج : انا متى انهيت خدمة العلم ، اخطب واتزوج . وكان ولدا يجب ان تكون له شوارب كبيرة ومعقوفة الى الاعلى ، ويضحك كلما قلت له : امي تسميك ابو الشوارب.

— • —

عندما خرجت من بيت جميل نحاس ، كان ليلا جميلا ، ونجوم كثيرة تملأ السماء ، فقلت لنفسي : انها نجوم الوحدة ، تتألق عند عرش الله . انا يا امي احب الوحدة ، مثلما احبك ، مثلما احب اخواتي واولادهن ، مثلما احب عيوش ، مثلما احب رفاقي في المعمل واولاد حارتي وصالح فتال وجميل نحاس . فهل اذا اعتدى احد عليك او على اخواتي أو على عيوش ، اقف واتفرج ؟ ابدا . الوحدة يا امي عز ، كلها عز . اتذكرين كيف ان اليهود قبل الوحدة قتلوا في الجبهة واحدا من ابناء حارتنا كان يؤدي خدمة العلم هناك ؟ ابن المخللاتي ؟ نعم ياسين ، ابن المخللاتي . تذكرين كيف ذهبت ونظرت اليه ، يوم احضروه الى اهله وهو مذبوح من رقبته مثلما يذبح القصاب الغنمة ؟ وعدت وبكيت طويلا وصرت تقولين : الله ينتقم منكم يا يهود ، يا غدارين . فبعد الوحدة ، من تجرأ من اليهود وذبح واحدا من جنودنا في الجبهة ؟ ابدا : انهم صاروا يخافون منا كثيرا ، لاننا اصبحنا ثلاثين مليونا واكثر ، ونحاصرهم من الشمال والجنوب ، مثلما تحاصر المصيدة الفأر الذي يقع فيها. فكيف غداً لما نصير مئة مليون !! وتذكرين يا امي : كم معملا طردني منه اصحابه في العرقوب ، وكم مرة هددوني بالتسريح من اخر معمل كنت اشتغل فيه . كم قعدت عندك في البيت اياما طويلة بلا عمل ، وليس في جيبي ليرة واحدة اشتري بها الخبز لناكل . كم بعنا من اغراضنا في البيت : مرة صوف الفراش ، ومرة الطناجر والصحون ، لنسدد الايجار، ونشتري كيس طحين وعشر كيلوات برغل . نعم تذكرين ، ولا تنسين ذلك . كم اذلني اصحاب المعامل ، حتى كنت اضطر فاذهب اليهم واقبل اياديهم من اجل ان يعيدوني الى العمل ؟ كم اضطررت انت يا امي بالذات ، لتذهبي دون علمي ، وتقبلي اقدام صاحب احد المصانع على عتبة بيته ليعيدني الى العمل بعد ان طردني : فطردك برفسة من رجله وهو يصيح بك : ابنك مشاغب ، ولا اتركه يشتغل عندي ابدا . فبعد الوحدة يا امي ، من كان يجرؤ منهم ان يفعل معنا نحن العمال ، تلك الافعال؟ الوحدة عز للشعب يا امي ، فقد أممنا لهم معاملهم ، وصارت ملكا للشعب كله. ولم يعد احد من اولئك الظالمين يستطيع ان يهددنا بالطرد من العمل . لم يعد العامل منا يخاف على أولاده من الجوع . عهد الذل ولى وانقضى يا امي ، فكيف نقبل ان نرجع اليه ؟ لا ، ابدا ، مستحيل. فانا لما خرجت من حارة المشارقة في ذلك المساء يا امي ، لم اذهب الى احدى الخمارات واشرب مئة درهم من العرق ، لا والله العظيم ، لكني كنت عائدا من هناك الى البيت ، فسمعت لما وصلت امام المتحف : ان ضابطا انفصاليا نزل من احدى الثكنات واحتل بعساكره قيادة الموقع والاذاعة واعلن ان حلب تؤيد الانفصال . نعم سمعت كل ذلك دفعة واحدة ، فاسودت الدنيا في

— التتمة على الصفحة ٦٩ —



العقاد

بقلم رجاء النقاش

مات عباس محمود العقاد يوم الاربعاء ١١ مارس سنة ١٩٦٤ . وقد مات المفكر الكبير وعمره خمسة وسبعون عاما قضى منها اكثر من خمسين سنة وهو يحمل القلم ، ويمارس مهنة الفكر . وقد ترك العقاد وراءه ما يقرب من ثمانين كتابا في مختلف فروع الفكر والمعرفة والادب .

ونحن اذا كنا قد هاجمنا العقاد اكثر من مرة في هذا المكان ، فليس معنى ذلك اننا ننكر عليه قيمته ودوره اللامع في تاريخ الفكر العربي، وانما كنا ننكر عليه دائما عناده المر في مواقفه الفكرية ، فقد كان قاسيا صارما في احكامه ، لا يسمح لاحد ان يختلف معه او يقف في وجه رأي من ارائه .

ولكن هذا كله لا ينفي ان العقاد كان ركنا ضخما من اركان الثقافة العربية . لقد بدأ العقاد الكتابة سنة ١٩١٠ تقريبا ، وكانت الثقافة العربية حبيسة الكتب الصفراء ، وكانت هذه الثقافة بعيدة كل البعد عن ثقافة الغرب المعاصر ، واستطاع العقاد ان يقوم بدور منهل في ربط الثقافة العربية بالثقافة الغربية ، فادخل المناهج العلمية الحديثة الينا، واستطاع بذلك ان يغير الموقف الفكري عند العرب ... استطاع ان يناقش قضايا التاريخ الاسلامي بعقلية رجل متحضر معاصر ، وبذلك اصبح حديثه مقبولا مقروءا مؤثرا على العقول ، كل ذلك بعد ان كان الذين ينظرون الى التاريخ الاسلامي اما مجموعة من الذين يقدسونه، ويقبلونه كما جاء اليهم بلا تمحيص ولا بحث عن البرهان واليقين ، وهؤلاء كانوا بدون شك مجموعة من الجامدين الذين يساهمون في تعطيل العقل العربي والوقوف به عند حدود قديمة عتيقة ... هذه المجموعة الاولى كان يقف الى جانبها مجموعة اخرى هي المجموعة التي ترفض التاريخ الاسلامي وتعتبره نوعا من الجاهلية الحضارية التي يجب ان ننكرها ونتخلص منها اذا اردنا ان نعيش في القرن العشرين .

واستطاع العقاد ان يتخلص من جمود العقلية القديمة ، واستطاع في نفس الوقت ان يتخلص من الانكار المطلق عند اصحاب العقلية العصرية المتطرفة ، هؤلاء الذين ارادوا ان ننقطع عن الماضي تماما وننصرف عنه .

وبذلك اعاد العقاد ـ ومعه بعض ابناء جيله اللامعين امثال طه حسين ـ نوعا من الاتصال بيننا وبين الماضي ، وهو نوع جديد ذكي اصيل ، فهو اتصال يساعد على الاستمرار ، واتصال يساعد على التقدم في ميدان الحضارة .

ان كتاب العقاد عن « محمد » مثلا ، يساعدنا على ان نفهم عبقرية النبي ، ولكنه الى جانب ذلك يفتح امامنا افاقا جديدة لكي نعرف كثيرا من العلماء الغربيين ، ذلك لانه استخدم احدث المناهج المعروفة في تحليل الشخصية الانسانية ، في دراسته للعبقرية المحمدية . ولقد لاحظت في الفترة التي قضيتها في قريتي ان المثقفين في الريف الذين يقرأون العقاد هم الذين كانوا يدفعون باولادهم الى التعليم المدني المعروف ، بينما كان الذين يقرأون مصطفى صادق الرافعي وامثاله هم الذين يفرضون على ابنائهم تعليما كلاسيكيا دينيا شديد التعقيد يؤدي بهم في النهاية الى الابتعاد عن روح العصر ، وعن حضارة القرن العشرين .

اي ان العقاد اقنع القارىء العربي بالحضارة العصرية ، من خلال الثقافة العربية نفسها ، وهذا في الواقع مجهود كبير ضخم لم يكن يقوى عليه الا عقل في اتساع عقل العقاد وعمقه .

على ان العقاد لم يكتف بميدان التاريخ الاسلامي . فدخل ميدان الادب القديم ، وكان له في الادب القديم نظرات لامعة ذكية ، استخدم فيها المناهج العصرية ايضا بعد ان عرفها وهضمها واصبح قادرا على استخدامها قدرة رائعة عميقة . فكتابه عن « ابي نواس » يقوم على اساس من التحليل النفسي ، انه يستخدم فكرة « النرجسية » المعروفة في علم النفس . وكتابه عن ابن الرومي يعتبر من اثمن الكتب النقدية التي عرفتها المكتبة العربية ، لقد سجل فيه العقاد قدرة عالية في فهم شخصية الفنان من شعره ، واستطاع في هذا الكتاب الممتاز ان يعيد الحياة الى شاعر قديم ، بحيث نستطيع بعد قراءتنا لكتاب العقاد ان نعاشر ابن الرومي ونحس به وكأنه كائن حي يعيش في عصرنا وينفعل بتجاربنا المختلفة . لقد نفض العقاد عنه غبار الماضي . وخلق منه كائنا نابضا بالحياة ، بعد ان كان شاعرا مغمورا في صفحات الادب القديم، فابن الرومي من اسوأ الشعراء حظا ، حيث لم يحظ باهتمام كبير في الماضي ، حتى جاء العقاد واعاده الى الحياة .

اذن فقد ساهم العقاد مساهمة واعية كبيرة في احياء الفكر الكلاسيكي العربي (في الادب والدين والحضارة) ، والبس هذا الفكر ثيابا عصرية مقبولة ومؤثرة . واذا كنا نادي اليوم بالقومية العربية ، ونعلم تمام العلم ان اساسا هاما من اسس القومية العربية يتمثل في اللغة والتراث الفكري المشترك ، فيجب ان نعترف ان العقاد قد ساهم مساهمة جبارة في احياء التراث القديم ونفض الغبار عنه ، وساهم مساهمة جبارة في جعل اللغة العربية لغة عصرية ، وفي جعل الثقافة العربية ثقافة عصرية ... ولولا العقاد وبعض ابناء جيله لما تجدد شباب اللغة العربية ، ولما تجدد شباب الثقافة العربية ، ولعشنا حتى الان في ظلام شيخوخة الفكر العربي واللغة العربية ، كما كان الامر في القرن التاسع عشر .

من هنا نستطيع ان نقول ان العقاد وان لم يدع الى القومية العربية دعوة مباشرة قد ساهم مساهمة قوية في تحقيق الدعوة القومية ، عن طريق كتبه وجهوده الفكرية ، وذلك عندما ساهم اكبر المساهمة في اقامة اساس متقدم صلب للفكر العربي واللغة العربية . واذا التفتنا الى دور العقاد في النقد الادبي وجدناه دورا هاما لامعا ايضا ، وخاصة في نقد الشعر ، فقد بدأ العقاد حياته الادبية والشعر في مرحلة جمود وركود ، لقد كانت « القيم الكلاسيكية » مسيطرة تمام السيطرة على الشعر في ذلك الوقت ، وكان الشاعر في الاغلب هو شاعر المناسبات ، فالقصيدة تكتب في الرثاء والتهنئة ، وتكتب في الاعياد الوطنية والاعياد الدينية وهكذا ... وجاء العقاد فنادى بدعوة واضحة محددة هي العودة الى النفس الانسانية ، فالتجربة النفسية

وحدها هي التي تخلق الشعر الاصيل ، والتجربة النفسية وحدها هي التي تجعل للشاعر شخصية مستقلة نحس بها من خلال شعره . وكانت دعوة العقاد قوية اصيلة ، وبدأت هذه الدعوة نفسها في معركة كبيرة بينه وبين اميرالشعراء في ذلك الوقت : احمد شوقي . وكان لهذهالمعركة دوي كبير ... وانتهت المعركة بفتح الطريق امام ادب جديد يختلف في قيمه واساليبه عن الادب الكلاسيكي .

ولقد كان العقاد بالاضافة الى ذلك كله صاحب ثقافة موسوعية ، فقد الم بكثير من العلوم والمعارف ، واصبحت كتبه جامعة كبيرة لابناء الشعب . لقد كتب في الادب وكتب في التاريخ وكتب في الفلسفة ، وكتب في الاديان ، وكتابته في كل هذه الفروع كتابة عميقة ذكية ، تمتاز بالشمول والثقافة الواسعة .

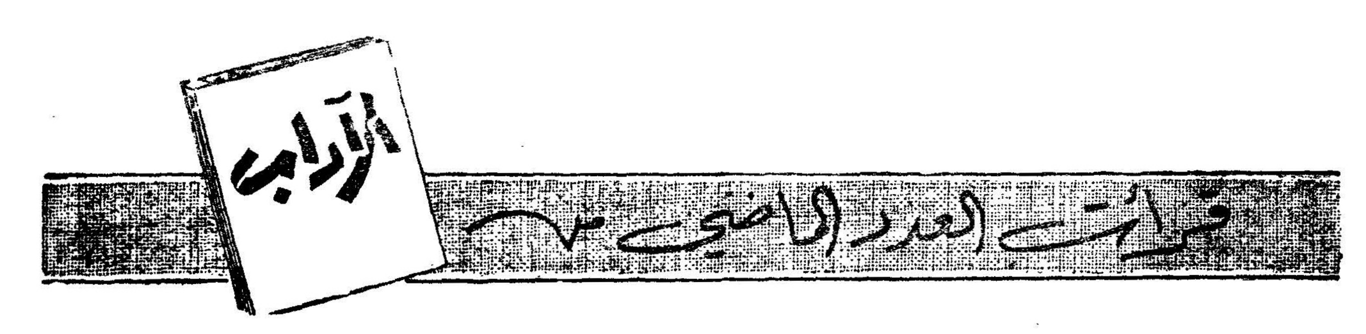
وكان للعقاد موقف في السياسة ، فقد كان وطنيا مخلصا ... بمعنى انه فهم القضية الوطنية ، اي تخليص الوطن من الاستعمار الاجنبي ولكنه لم يستطع ان يفهم بصورة واضحة القضية الاجتماعية ... اي تخليص المجتمع من الاستغلال والسيطرة الاقتصادية من جانبفئات قليلة محدودة . ولذلك كان العقاد ابنا بارا من ابناء ثورة ١٩١٩ في مصر . فقد كانت هذه الثورة تهدف بالدرجة الاولى الى تحرير الوطن قبل تحرير المواطن من الاستغلال الاقتصادي بالذات .

وفي معظم كتب العقاد لا نجد اثرا كبيرا للقضية الاجتماعية ... مثل ذلك الاثر الذي نجده عند سلامة موسى او عند طه حسين . ولذلك اختلف العقاد مع كل المفكرين اليساريين اختلافا عنيفا . فقد اختلف مع الشيوعيين ، ومما جعل هذا الاختلاف مريرا ان الشيوعيين العرب كان موقفهم منذ البداية استفزازيا من العقاد ، ولم يحاولوا ان يدخلوا معه في حوار هادىء معقول ، واتهموه بالخيانة وما الى ذلك منأوصاف حادة ، بل لقد بلغ الامر ان وصلته تهديدات حقيقية بالقتل من بعض الشيوعيين . ولم يستطع الشيوعيون ابدا ان يضعوا العقاد في ميزان موضوعي هادىء وعلمي . بل كانوا متحيزين ضده . مما اثار ما في طبعه من عنف ومرارة ، واصبح حانقا على اليسار العربي بجميعفروعه، حتى اليسار الوطني المعتدل ، الذي يمثله معظم الجيل الجديد من الكتاب في مصر .

والان وقد مات العقاد ، واصبح حقيقة من حقائق التاريخ العربي، يجب ان نقول انه كان مفكرا عظيما لامعا شديد الخصوبة والغزارة ... وان فكره الغزير الخصب كان مليئا بما يستحق البقاء والحياة ،وكان يحتوي على جانب اخر خاطىء ... ولكن اخطاء العقاد لا يمكن انتبتلع في اخر الامر ميزاته الحقيقية العظيمة . لا يمكن ان تقف في وجه اثاره الكبيرة في ميدان الفكر العربي . انها اخطاء طبيعية نتجت من ظروف تكوينه النفسي المليء بالعناد والثقة بالنفس ، ونتجت ايضا من طبيعة المرحلة الطويلة المليئة بالمتفجرات الفكرية والاجتماعية والتي عاشها بكل تفاصيلها وتأثر بها ... لقد ظل العقاد يكتب اكثر منخمسين سنة متصلة . اهتز فيها المجتمع العربي هزات كبيرة عنيفة ، واهتز فيها العالم نفسه هزات كبيرة عنيفة ، لقد كتب على مصباح الغاز،وكتب في ضوء الكهرباء . وكتب ومصر ليس فيها سيارة واحدة وعاش حتى رأى عصر الصواريخ . وكتب وكان مصر يحكمها ((كرومر)) ومات ومصر يحكمها احد ابنائها ... فلاح عربي هو عبد الناصر ، نبع من الامها وامالها ، وقادها الى الطريق الصحيح .

كل هذه التقلبات الكثيرة العنيفة كفيلة بان توقع اي عبقري في اخطاء واضطرابات فكرية ... ولكن مثل هذه الاخطاء والاضطرابات لن تكون ابدا قادرة على اطفاء الجوانب المضيئة من عبقرية العقاد ... حتى بالنسبة لنا – نحن الذين كان من حظنا او من سوء حظنا ان نختلف معه بعنف اكثر من مرة .

القاهرة — **رجاء النقاش**



الأبحاث

بقلم مطاع صفدي

***

ان مجلة ادبية فكرية « كالاداب » ، عندما تصدر عددا ممتازا عن فلسطين ، فانما تعد القارىء بان تمده – طبعا – بابحاث عن النكبة ، كما وعتها ثقافة الخمسة عشر عاما الماضية . ولو اننا تخيلنا تقسيما منطقيا للابحاث ، كما تفعل « الاداب » في اعدادها الممتازة السابقة ، لكنا عثرنا على دراسات عن اثر النكبة في الشعر ، في القصة ، في المعاناة الادبية .. الخ. من فنون الكتابة .

ولكن الامر مختلف جدا مع هذا العدد الممتاز . فانك لن تقع على مقالات او دراسات ، تتصدى لمثل هذه الموضوعات التي يوحي بها عنوان العدد . فهناك بالاحرى بعض القصص والقصائد ، التي تابعت جو التأثر المعتاد ، بالنكبة . بينما اقتصرت المقالات القليلة المبعثرة بين دفتي العدد على معالجة بعض زوايا من قضية فلسطين ، بروح صحفية او دعاوية خالصة ، وهي اقرب الى العرض السياسي اليومي .

فهل نقول ان السبب في فقر عدد (فلسطين) من الابحاث الحقيقية ، هو ايضا جزء من مشكلة الكتابة لدى ادبائنا ومفكرينا ، المشكلة التي طرحت للاستفتاء في مطلع العدد الممتاز . وهل نقول كذلك ، ان جزءا من مسؤولية هذا السبب يقع على عاتق المجلة نفسها؟ ..

وعلى كل حال فان الكتابة عن ادب النكبة وفكر النكبة ، يبدو لكثير من الذين اعتادوا ان يكتبوا على صفحات المجلات ، اشبه بامر يناقض طبيعة السرعة والنزق والفورة اليومية التي يأخذ كاتب العصر نفسه بها . فليس من السهل ان يحاول ناقد للشعر ، ناقد للقصة ، محلل للفكر ، ان يرجع القهقرى خمسة عشر عاما – وان كانت مدة ليست بالطويلة – لينقب هنا وهناك عن نماذج من ثقافة النكبة ليدرسها ، ويقدم للقارىء موضوعا شافيا عنها .

ان ذلك الجهد الدراسي اصبح غريبا اليوم على كثير من الكتاب الشباب ، الذين يفضلون التعبير عن احاسيسهم الحاضرة ، بنزوات من الكلمات يسمونها قصة او شعرا ، ويتخلصون منها ما ان يلقوها الى صفحة بيضاء في مجلة ما . ثم اذا ما جذبت مسؤولية الجهد بعض هؤلاء الى الدراسة الجادة ، فانهم سرعان ما يعرضون عن الموضوع ، شعورا منهم سلفا بتفاهة الانتاج الذي تصدى للتعبير عن ثقافة النكبة .

والحق ، كما قلت في جوابي على الاستفتاء ، ان كثيرا من ذلك الانتاج تمخضت عنه بعض الاقلام ، بعيدا عن قاموس النكبة المباشر. فاذا ما طلبنا رؤيا انسانية او ماورائية للنكبة في القصة ، فقد نعثر عليها ، ظلية او اقرب الى الظل ، في اثار ليس لها عناوين النكبة نفسها . واذا بحثنا عن مشروع معاناة وجدانية للمأساة الفلسطينية في الشعر ، فقد نلقاها في نوازع مأساوية مطلقة لدى بعض كبار الشعراء في المرحلة الماضية . واما ان الفكر القومي قد تأثر بالنكبة، فهذا مما لا شك فيه . بل ان تأثره ابلغ في هذا الميدان ، من اي تأثر اخر . واما ان الواقع القومي نفسه – وتلك هي الدائرة الاوسع والمطلوبة – قد انفعل سلبا وايجابا مع تحريض النكبة ، فهذا ايضا ما تشهد عليه تجربة الثورة الشاملة ، والثورات المضادة ، التي بعثت عليها في اقطارنا العربية المختلفة .

حتى انك لا تستطيع ان تعتبر اثرا للنكبة في الثقافة ، كل ما لم يجاوز دائرة الصدى للصرخة الاولى . واذا ما قبعت الثقافة عند حدود الاصداء لوقائع امتها ، فلن تكون وجدانا حضاريا باعثا على حياة اخرى ، غير حياة الصدفة التاريخية الخالصة .

والمسألة في الواقع هي : هل خلقت النكبة المعاناة ، وهل ارتفعت هذه المعاناة الى مستوى تكون الوجدان المأساوي لدى انساننا وحضارتنا . ثم هل جاء الادب والفكر ، من جملة ادوات التعبير عن هذا الوجدان المأساوي ، فكان لهما دورهما المطلوب ؟ كل ذلك مما يصح اساسا اصيلا لدراسة اصيلة .

فالكتاب الذين تصدوا للجواب على الاستفتاء في مطلع العدد المماز ، كانت هناك خطوط اساسية واحدة تقريبا في اجوبتهم جميعا، وان اختلفت التعابير واساليب هذه التعابير عن الملاحظات الواحدة المتشابهة . فهم متفقون على ان ادب ما بعد النكبة لم يرتفع الى مستوى النكبة . وهو تسليم مباشر يتفق مع ايحاء السؤال في الاستفتاء . السؤال الذي ينطلق من حقيقة التفاوت بين فداحة النكبة واثرها المتواضع في الادب العربي . ولقد اعتبر الكتاب هذه الحقيقة بمثابة بديهية . وراح كل منهم يبحث عن الاسباب . ولكن مع ذلك فان هؤلاء الكتاب قد لحظوا جميعا ان هناك اختلافا نوعيا بين ادب ما قبل وما بعد النكبة . ورأى الدكتور سهيل ادريس ان « الكارثة الفلسطينية قد خلقت في نتاجنا الادبي الحديث ، فترة انتقال لها سماتها الخاصة ، واهمها تعبير عن القلق والضياع ».ولكن هذه السمات لم تنضج بعد ، بسبب ان الجيل الجديد الذي يعانيها هو نفسه ما زال حديث السن ، وما يزال يتابع تخمر تجربته تلك .

وكان الدكتور سهيل قد ارجع سبب الضعف في ادب ما بعد النكبة الى « ان النكبة لم تنته بعد » ، و « ان ما تخلفه من احداث، على الصعد السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، لا يزال من الحيوية والحداثة المباشرة ، بحيث يمتنع على النضج الفني ، والاستبطان العميق » . ومن جهة ثانية فان اثار النكبة لم تستقر في النفس العربية بعد ، لان الترقب والامل بمحو عار النكبة ، يجعل الادب لا يلامس الا السطوح دون الاعماق ، والا فانه ينبغي اما ان تثبت النكبة باثارها من تشريد وتمزيق ، واما ان تمحي بعارها نهائيا .. وعندئذ ربما خرج الادب العظيم المرجو .

ولا شك ، انك ان مررت بهذه الاراء سريعا فلن يستوقفك فيها شيء مفاجىء او غير عادي . ولكنك عندما ترى الاخ غسان كنفاني يلح الحاحا متناميا مع سياق حديثه على الطابع الموقت لمعاناة النكبة ، وعلى « جو التوقعية » – على حد تعبيره – ، فسوف تقع على نبرة فكرية خاصة نستحق التأمل في لوحة تحليل هذه المشكلة المطروحة على بساط البحث . وهذا ما سأناقشه في حينه . ولكن قد يظل القارىء متوقفا عند (الاحراج) الذي حصر فيه الدكتور سهيل المشكلة ، عندما قال « فينبغي لهذه الكارثة ، لكي تكون موضوعا كبيرا ناجزا ، ان تنتهي اما بتثبيت النكبة ، وما يستتبعه ذلك من تشريد

وتمزيق ، واما بمحوها نهائيا . » والحق ان هذا الاختيار الذي يضع الدكتور سهيل التاريخ بين قرنيه ـ كما يقول الفلاسفة ـ اما تثبيت النكبة ، او محوها ، كشرط للاستقرار امام المصيبة او امام زوال المصيبة ، امر قد لا تقره بسهولةفلسفة الابداع في المنطق الحضاري. فليس المهم ان يكون الحدث التاريخي اما انه موجود ومستمر كله ، او انه منعدم وزائل كله . ذلك تجريد هندسي لمنطق السيالة التاريخية ، الذي لا يعرف الاستقرار الا انه نمو وتناقض حيمتواصل. والادب كذلك ، ليس شرطه ان يتحدث عما هو مستقر او ثابت . بل ان عدم استقرار النكبة على وجود او على زوال ، هو نفسه دليل دورها الحيوي الكبير في تفجير امكانيات الوجود العربي ان سلبا او ايجابا . هذا اذا لم نعترف حتى الان ان النكبة ، باعتبارها ذلك الحدث التاريخي الفاصل ، قد وجدت فعلا . واما ما سيتطور عنها فذلك ايضا شيء اخر ، له وجوده الاخر .

واراني قد اتفقت ايضا مع الاستاذ منير البعلبكي ، عندما لم يهمل او يتشاءم من النتائج الادبية للنكبة عندما قال « يخيل الي ان نكبة العرب في فلسطين ، كان لها في ادبنا المعاصر اثر اكبر مما نتصور ، او مما نحب ان نتصور ، في بعض الاحيان » . وللتدليل على هذا الرأي يلجأ الاستاذ البعلبكي الى برهان مباشر ، فيشير الى القصة والشعر والدراسات التي حاولت ان تعي النكبة وتنفعل بها . ثم يتحفظ هو الاخر عن ان يجد اثرا ادبيا عن فلسطين يكتبله الخلود. هذا مع تأكيده على وجود (عرق) تقدمي « يتناسج مع بنية الشعر العربي المعاصر والقصة العربية المعاصرة تناسجا يكاد يكون عضويا . ان هذا (العرق) وليد النكبة الفلسطينية من غير ريب . »

وكان جواب الدكتور احسان عباس يسعى الى ان يلم باكثر من خط من خطوط المشكلة . فاورد في مطلع حديثه ملاحظة اساسية عن معنى التغير او التحول الذي احدثته النكبة في نوعية الادب . فقال « ان النكبة عملت في الميدان الادبي بطريق غير مباشر ، فنفت اشياء كثيرة كانت رائجة في الجو الادبي ، كالامعان في الذاتية والانسياق وراء ادب المتعة ، وابرزت الحاجة الى ادب مرتبط بواقعنا الاجتماعي، ومهدت لظهور قيم ادبية جديدة . » ولعمري ان ذلك هو من اكبر افضال النكبة على الادب . فلقد كان شبه اعجاز ان يعود الادب الى معين حياته الاول ، كما كان ادب اسلافنا الجاهليين خاصة . ومع ذلك فان ذلك الادب الذي انفجر اثر النكبة لم يبرح عادات التفجع والندب التي اعتادها الشعر المنفعل بالصدى . كما ان افتقار الاديب الى الحس الشمولي والارتفاع الى مستوى المصير الواحد ، والابتعاد عن اية ذاتية اقليمية او حزبية ، كل ذلك مما عوق نضوج هذا الادب المطلوب .

واما الاخ غسان كنفاني ، فقد اتى جوابه ليشمل ابعاد مقال مطول . وله بعض الحق في ذلك ، لولا ان طبيعة الاستفتاء تطلب الاختصار مع الابراز لمفاصل المشكلة . ولكن غسان ، وهو واحد من الذين يسعون الى معاناة النكبة ثقافيا بعد معاناتها عضويا وماديا ، لا يستطيع ان يمر بهذا الاستفتاء عابرا .

وينطلق غسان من بديهية تاريخية واجتماعية ، تربط حركة الفكر بحركة الاحداث السياسية والاجتماعية من حولها صعودا او هبوطا . وهو يرى ان انتكاس ادب النكبة راجع لانتكاس الاحداث السياسية والاجتماعية المرتبط بها . بل اكثر من ذلك فان مختلف الصعد الاجتماعيةمن سياسية وغيرها متخلفة ايضا عن اللحاق بمستوى الفاجعة ذاتها . وبالرغم انه من الصعب على القارىء ان يستريح لهذا التعميم الذي اطلقه غسان ، فانه يستطيع على الاقل ان يوافق على النبرة دون مضمونها . اي انه قد يشعر بان معطيات الاحداث الضخمة التي تلت حدث النكبة ، هي ايضا لم تعط ثمرتها المطلوبة بعد . ولكن اي مؤرخ حضاري ، لن يحتاج الى بعد زماني طويل ، كي يلحظ بسهولة كبيرة ، كيف ان اثارة النكبة للوجود العربي ، كانت اثارة من العمق والشمول بحيث تصح منطلقا تاريخيا جديدا للامة العربية ، ولمختلف ظروف تناقضاتها الحية المستجدة .

ثم يسعى غسان الى التفصيل في شروط ايجابية وسلبية اخرى احاطت بعملية تولد الاثر الادبي الكبير المنتظر . وقد يلح خاصة على (الجو الموقت) او (جو التوقعة) الذي رافق احساس الادباء الشباب باستمرار ، فجعلهم يعيشون ضمن اطار المعركة لا خارجها ، واعطاهم ذلك انفعالا مشبوبا ، يتناسب مع توقعات المعركة نفسها . ولست اشك ان التوقعة هذه قد تعرقل عملية الكشف العقلي والموضوعي المتكامل لابعاد المأساة ، والعلو بها الى نموذج انساني دائم الايحاء . ولكننا لو تذكرنا ان انساننا العربي كان يعاني من حاجة شمولية الى اكتشاف ينابيع اصالته ذاته ، وانه كان دائما منذ النكبة، امام انعطاف تاريخي لكي يغير من وجوده تغييرا نوعيا جذريا ، لو تذكرنا ان الاديب بالتالي ، كانت مهمته ايضا ان يرود هذه الينابيع لوجود الانسان العربي الجديد ، ان يكتشفه ويكتشف معه ادواته الحضارية الجديدة ، لعلمنا ان اصل المشكلة كلها كانت عبارة عن بحث عنالاصل. وهكذا فانه كلما ارتفعت شدة التوتر عند اديب رائد بهذه الحاجة، لمس هذا الوجدان المأساوي الشامل الذي يخلق الآثار الباقية ذات القيمة الانسانية الباقية كذلك .

واما ان غياب الاثر الادبي الكبير كان منوطا ايضا بغياب العمل السياسي الكبير ، فذلك هو من باب ربط الفرع بالفرع ايضا . ولو تساءلنا عن سبب غياب العمل السياسي الكبير ، لقيل لنا مثلا انه انعدام الوعي ، او انه سبب اقتصادي او قومي وهكذا نعود الى حلقة مفرغة .

ان البحث عن الاصول ، او هذه الحاجة الى ايجاد الخليةالاولى للوجود الجديد المقترح ، هو او هيأ لتوقعة الاشمل التي تهز بعض الوجدانات الطليعية من الامم ذات الفواصل الحاسمة من تاريخها . ولا ادل على ذلك من ان امتنا العربية تبذر اليوم ، وخلال عشر سنوات فقط ، اكثر البذور اصالة في تربة حضارتها المستقبلة . لقد عشنا

في هذه الفترة من التطلعات ذات الجدوى الواقعية والثورية في حقول حياتنا ، ما لم نعشه خلال الف سنة على الاقل . ولكن طموحنا المتوقع للاكثر وللاكبر والاعظم يجعلنا نستهين احيانا بمنجزات النكبة سواء نحو الافجع او نحو الاروع .

وان البحث عن الاصل او الينبوع سوف يتبعه بحث عن الاسلوب او المجرى . واذ نحن نحاول ادبا جديدا خالصا يوازي زخم توجساتنا ومثلنا وقضايانا ، فاننا لا بد ان نتيه طويلا ، قبل ان نجد قلمنا وحبرنا وورقنا المصنوع من دمنا وحده . فليس عصرنا اليوم هو استمرار طبيعي لما سبقه . انه خلق من العدم . وكذلك ثأرنا .كذلك ادبنا وفكرنا .

ويتناول اخيرا الدكتور محمد يوسف نجم هذا الاستفتاء بنظرة تاريخية ناقدة ، فيدلل على خصب هذه الفترة اللاحقة بالنكبة ، ويستعرض اسماء الشعراء والكتاب ، كما يبرز الاختلاف النوعي لادب النكبة . ويظهر معالم جيل كامل من الكتاب ، يشبه جيل ما بعد الحرب الثانية في اوروبا . وقد كان اشار الى اهمية هذه الصلة القوية بين جيل النكبة وبين معاني الاحداث القومية ، بينما انعدمت او هزلت هذه الصلة لدى جيل ما بعد الحرب الاولى واحداثه الثورية المختلفة .ولكن الدكتور نجم يأتي بهذا الحكم المتفق عليه مع كل من اشترك في هذا الاستفتاء ، بان ادب النكبة (رخص العود ناعم الاظافر) . ولعله يريد من ذلك انه ادب شاب اكثر منه ادب ضعيف. والاد بالشاب ، ينتظر منه النضوج والتكامل .

واذا اتينا الان الى الابحاث في العدد الممتاز ، بعد ان وقفنا وقفه طويلة نسبيا عند اجوبة الاستفتاء لاهميتها والتصاقها بموضوع العدد اكثر من غيرها ، لوجدنا اننا امام نوعين من هذه الابحاث ، بعضها كان سياسيا عسكريا ، وبعضها كان ادبيا . والنوع الاول اغزر وانمل ، واما النوع الثاني فقليل وعابر سريع . ولعل من اهم ابحاث النوع الاول ، الدراسة العسكرية الواقية التي قدمها احد الدبلوماسيين والعسكريين السابقين ، وهو الاستاذ هيثم كيلاني . وبالرغم من انني اقرأ له لاول مرة ، الا ان موضوعه ، الذي هو نتيجة اختصاص ، يبدو انه متكامل رصين . ولست اعتقد انني مستطيع تقدير تفاصيل هذا البحث الاختصاصي ، ولكنني مع هذا اشعر باهمية هذه الدراسة ، والاضواء التي تلقيها مشكلة اسرائيل بصورة واقعية مباشرة . وحبذا لو ان عددا من الاختصاصيين قاموا بدراسات مفصلة تستند الى البحث والاستقصاء العلمي عن مختلف وجوه الحياة في اسرائيل . اذن لكان لنا ذخر من المعرفة المتكاملة عن اكبر سرطان ينهش من جانب الجسد العربي المائج بالثورة .

والحقيقة التي يخرج منها قارىء هذا المقال العلمي هي ان اسرائيل بقدر ما نملك من وجود هزيل بشريا وجغرافيا واقتصاديا وعسكريا ، بقدر ما تسعى الى تدعيم هذا الوجود بشتى امكانيات الدولة الحديثة القائمة على دافع الخوف المستمر من الزوال ، بتحويله الى ازالة الاخرين . وان العرب بالمقابل بقدر ما يملكون من وجود ضخم نسبة الى اسرائيل ، بقدر ما هم ضائعون مضيعون بالنسبة لكشف امكانيات هذا الوجود ، وتحويله الى ازالة اسرائيل نفسها .

فاسرائيل ذات الارض المغتصبة ، والامكانيات المستعارة من خارج، لا يمكن ان تدافع عن نفسها ضمن حدود هذه الارض . ولذلك فان دفاعها هو عدوان على ارض جيرانها ، وحربها ينبغي ان تفتح ساحاتها وراء حدود الدول العربية نفسها ، كما حاولت ان تفعل ابان العدوان الثلاثي . وطبيعة هذه الحرب قائمة على المفاجأة والتحرك السريع والغدر . بينما اذا حوصرت اسرائيل ضمن ارضها ، فانها لن تصمد طويلا امام المدفعية والطيران ، ثم تكتسحها المشاة من كل حدب وصوب. فالحرب اذن واقعة لا محالة بين العرب واسرائيل . واذا تناسى العرب هذه الحقيقة ، فان اسرائيل لن تنساها لحظة واحدة من حياتها القصيرة على هذه الارض . واما نوقيت هذه الحرب الذي ارتبط بمشكلة تحويل مجرى الاردن ، وكيفية هذه الحرب ، فذلك ما يؤلف الموضوع السياسي الاول اليوم ، وفي هذه الفترة الجديدة من التوقع بعد مؤتمر القمة .

ويستوقف القارىء للعدد الممتاز ذلك المقال المطول الذي كتبه الاخ صلاح عيسى ، تحت عنوان (في اصول المسألة الفلسطينية) . والمقال محاولة مستفيضة لتطبيق بعض الاطارات الماركسية العريضة والكلاسيكية على المسألة الفلسطينية ، في نطاقاتها الثلاثة ، العالمية الاستعمارية ، والقومية ، والمحلية داخل فلسطين .

ان مقال صلاح عيسى ، يثير كثيرا من المشكلات والتساؤلات التي لا يخلو بعضها من طابع المفاجأة والابهام العلمي . ومن الصعب في هذه العجالة ان يتصدى الناقد لجميع تلك المشكلات ويناقشها . الا انه لا بد من الاشارة الى اخطرها .

ان جيلنا العربي ما زال يذكر سلسلة المواقف الماركسية او الشيوعية السياسية في بلادنا من قضايانا القومية والحيوية الاولى ابتداء من مرحلة التحرر من الاستعمار المباشر ، وكان للشيوعية حينها تخرصات غريبة باسم الصراع الطبقي والامبريالية العالمية ، فتحالف مثلا الحزب الشيوعي السوري اللبناني مع الحزب الشيوعي الفرنسي، وقاوم حركة التحرر من الاحتلال الاجنبي ، حتى وصل به الامر الى استنكار الجلاء. وكان لهذه الشيوعية المحلية ايضا موقف غريب من معالجة الحرب الفلسطينية بين عام ١٩٤٨ - ١٩٤٩ وما بعدهما . اذ استنكرت هذه الحرب علنا بتخريجات نظرية ماركسية تصدم الوجدان الوطني . ثم قاومت الشيوعية ايضا اول انتصار قومي لحركة التحرر العربية في تحقيق الوحدة ، واستماتت لاجهاضها ابتداء من سوريا الى العراق(1)، وعززت بعد ذلك الانفصال الرجعي ، وما تزال تواصل جهودها لعرقلة كل عمل وحدوي في سوريا .

ونحن مع ايماننا ان هناك فروقا جوهرية بين المواقف السياسية للاحزاب الشيوعية ، وخاصة الاحزاب هذه في البلاد المتخلفة الواقعة ضمن مناطق النفوذ الاستعمارية ، وبين الفكر الماركسي ومدارسه المختلفة المعاصرة ، فانه قد ثبت في فكرنا السياسي القومي ، انه كثيرا ما استعملت بعض الاطارات النظرية من الماركسية - والمبتسرة ابتسارا من اصل المذهب ، والمطبقة تطبيقا مغلوطا - لتبرير انحرافات سياسية خطيرة ، وخاصة عبر النضال العربي . وبدلا من ان نتوسع في مناقشة تفصيلية لهذا المقال الخطير ، فاننا سنكتفي بالاشارة الى بعض نقاطه :

١ - لماذا يحرص الكاتب على تفنيد الحل الديني للمسألة الفلسطينية . وهل يستطيع الكاتب ان يهمل اثر التعصب اليهودي في الدعوة الصهيونية . بل الا يبدو واضحا ان ايديولوجية هذه الدعوة قائمة كلها على تجسيم المأساة الدينية لليهود والاستفادة من كافة العوامل الميتافيزيقية والتاريخية في قصة تشرد اليهود ؟ فاذا ما قام بالمقابل العامل الديني الاسلامي والمسيحي ، كرد فعل له قيمته الواقعية في المعركة ضد الصهيونية وتجسيمها المادي في اسرائيل ، هل نحن مضطرون لوصفه بانه عامل تعصب ؟ وللكاتب ، مع هذا ، الحق في ان يستنكر استغلال البورجوازية الدينية لهذه القضية ، وتشكيل قيادة لها على هذا الشكل ، ففي الربع الثاني من هذا القرن كانت المشاعر الدينية احدى الحركات الاساسية للطاقة النضالية في صراعها السلبي ضد الاستعمار ، وضد طلائعه الصهيونية في هذه البلاد . وعلى ذلك فينبغي ان نميز بين شرعية هذا الانفعال في هذه المرحلة من نمو الوعي القومي،وبين استغلاله من قبل الاقطاعية او البورجوازية العربية الناشئة.

ثم هل كان يمكن للعربي المسلم او المسيحي ان يتخلى عن شعوره الديني حينذاك ، وهو يرى اليهودي ، باعتباره اليهودي ليس الا ،يتدفق على وطنه ، ويستلبه شيئا فشيئا ارضه وسبل عيشه ؟

ومهما قيل عن ان العمال اليهود كانوا فقراء ايضا كالعمال العرب، لكي نستنتج من ذلك ، انه كان على العمال العرب واليهود ان يتحدوا لمقاومة الامبريالية المتجسدة في الاستعمار الانكليزي اولا والاستعمار الجديد الامريكي ثانيا ، فان هذا التحليل قد يضيع حدود المعركة ، ويداخل بين العدو والصديق ضمن رابطة هي اوهى بكثير من الرابطة

- التتمة على الصفحة ٧٦ -

---

(1) ان من غابت عنه هذه الحقائق او اخذ في نسيانها يستطيع أن يرجع الى الوثائق والمنشورات التي تفضح مواقف الشيوعية من كل هذه القضايا في كتاب الاستاذ حكم دروزة عن الشيوعية والقومية العربية .



القصائد

بقلم الدكتور عز الدين اسماعيل

***

احب قبل ان ابدأ حديثي ان اقول كلمة ثناء على العدد الماضي بصفة عامة من حيث فكرته وتنفيذه والغاية النبيلة التي اداها .فتخصيص عدد من الآداب لفلسطين عمل يشكر ، وان كان حق فلسطين على «الكلمة» ما يزال اكبر واكبر . وليس من حق احد ان يفقد ثقته في الكلمةودورها او يتردد في تقدير فعاليتها قائلا او متلقيا . فسوف تظل للكلمة آثارها الفعالة في النفس البشرية ، وستظل لها دافعيتها الاكيدة الى الحركة والعمل ، ما توافر لها عنصرا الجدية والاخلاص . والعدد السابق من الآداب كان عددا جادا ومخلصا .

ثم ابدأ جولتي مع شعراء العدد وهم غير قليل . لقد اجتمعوا على ارض واحدة ، وتحركوا في اطار واحد ، وان تشعبت بهم المسالك والطرق ، واختلفت المنظورات والرؤى . فقصائدهم جميعا قد بدأت انطلاقها من نقطة واحدة ، طالما انطلقت منها كذلك من قبل قصائد وقصائد ، لهم ولغيرهم . فالارض اذن مطروقة ، او لنقل - دون مجاز - ان الموضوع طالما كتب فيه ، حتى ليتوقع الانسان انه قد صار من العسير الوقوع فيه على جديد . على ان هذه النظرة تبدو كذلك متشائمة . فصحيح ان كثيرا من القصائد التي تدور حول قضية فلسطين او ترتبط بأي مشكلة من مشكلاتها الفرعية هو ترديد لنغمة او نغمات متكررة بكل ابعادها الفكرية والنفسية والفنية ، ولكن ليس معنى هذا ان كل الابواب والنوافذ قد غلقت . فما تزال القضية بكل مشكلاتها حية ، وما تزال نبعا لاثارات لا تنفد .

ولعلني بهذا الكلام لم اكن بعيدا عن قصائد العدد الماضي . فمن السهل - عند النظرة العامة - تبين ان في الامكان تقسيم هذه المجموعة من القصائد قسمين رئيسيين : قسما ينتمي الى النغمات المألوفة المتكررة ، وقسما يوقع انغاما فيها اصالة وابتكار وجدة .

ولست اعني بنغمة القصيدة - جديدة كانت ام مكرورة - مجرد الايقاع الموسيقي او - اذا توسعنا قليلا - الاطار الفني الخارجي ، وانما اعني - مع مزيد من التوسع في المعنى - الكيان الكلي للعمل الفني ، شكلا وموضوعا وتناولا . ومع ان الموضوع في حالتنا ، بوصفه نقطة انطلاق ، يبدو موحدا فان هذا القسم الاخير من القصائد قد كشف لنا عن غنى هذا الموضوع ، وكيف ان الاثارات فيه من الممكن ان تتعدد وتتلون الى ما لا نهاية .

والحق ان موقف الانسان الشاعر من اي قضية قومية او انسانية انما هو موقف فريد له خصوصيته ، وما لم يبرز هذا التفرد وهذه الخصوصية في عمله فان عمله يظل في هذه الحالة من نوع « تحصيل الحاصل » كما نقول . فالانسان الشاعر لا بد ان يكون له منظوره الخاص ورؤيته الخاصة ، وان كان المنظور اليه قضية عامة مشتركة ،سواء على المستوى القومي او الانساني بعامة . واختلاف المنظور والرؤية من شاعر لاخر - حين يتحد الموضوع او الاطار العام له - لا يعني بالضرورة التعارض بين وجهات النظر ، وانما يعني - في المحل الاول - استكشاف الزوايا الجديدة للرؤية ، والابعاد الجديدة للمنظور . وفي حدود هذا المعنى كان تقسيمي المبدئي لقصائد العدد الماضي .

ولعل هذا التقديم يعفيني الان من الوقوف عند كل قصيدة على حدة ، فهذا امر يطول ، ولكنني سأقف بالضرورة وقفات متأنية نوعا عند بعض القصائد .

وابدأ بان اسجل ظاهرة ملموسة في مجموعة من قصائد العدد الماضي هي ظاهرة العودة الى التاريخ القديم واختيار مواقف منه تصلح نقطة انطلاق نحو الحاضر وزاوية جديدة لرؤية الواقع واستكناهه . وهذه المواقف التاريخية ترتبط بالضرورة بشخصيات قامت في وقتها بدور بعينه عرفه الناس عبر التاريخ حتى صارت الشخصية بذاتها رمزا لكل الدور التاريخي الذي ادته . على انه لم يكن من الضروري بالنسبة لشعرائنا الذين اتجهوا هذا الاتجاه استحضار كل الموقف القديم بكل حذافيره ، وانما كفاهم التعامل مع المعنى الرمزي التاريخي لهذه الشخصية او تلك . ومن امثلةالقصائد التي اتجهت هذا الاتجاه قصيدة « شمشون » وقصيدة « الكلدان في المنفى » وكذلك قصيدة « اصابع المطر » .

ما الذي يمكن ان تدل عليه هذه الظاهرة ؟ أيمكننا ان نرجع الامر الى مجرد الاتجاه العام السائد في الشعر المعاصر ، اعني استغلال الرمز الشعبي في تفجير طاقات تعبيرية جديدة ؟ قد يكون هذا الفرض مقبولا ، ولكننا حين نمعن قليلا في هذه المجموعة من القصائد يلوح لنا معنى اخر . فالمحور الشعوري الذي تدور حوله هذه القصائد هو « العودة » ، ودبيب الحياة في النفوس وفي الارض الموات،وظهور البطل الذي يحسم المعركة .

نقرأ في قصيدة « شمشون » مثلا قول الشاعر علي كنعان :

وتدب في الانقاض كالنبض
حمى مخاض يستفز كوامن الارض
وحفيف روح - من سماء تلك القبة البلهاء - منقض
شمشون ينفض عنه اكداس التراب
فنهب في فرح طفولي عنيف
نبكي ، نلفلف جرحه بشفاهنا
وبما تبقى من تجلدنا النزيف
فيعود اقوى ما يكون مجنحا برؤى الشباب .

وتطالعنا نفس المعاني حين نقرأ في قصيدة «الكلدان في المنفى» قول الشاعر فواز عيد :

بختنصر
عـاد حيا
عاد مجنونا وشاعر
سامريات رأينه .
كان فوق البرج مصنوبا كرمح من ضياء

فكما دبت الحياة في شمشون دبت كذلك في بختنصر . وكما جاء الفأل الحسن بعودة شمشون كذلك كانت عودة بختنصر ضياء امل يتسرب الى النفوس . يقول الشاعر على لسان بختنصر :

« الف طوبى للصغار
لا تخافوا
لست ربا حاقدا ... لست الها من غبار
انا سيف كان مدفونا وعاد
كنت في المنفى حبيسا .. ورجعت
لم امت ... نمت قرونا وبعثت »

ولا تبعد هذه الصورة كثيرا عن الصورة التي رسمها الشاعر فايز خضور في قصيدته « اصابع المطر » حيث يقول :

ترى يعود « عاد » ؟
تلفه غلالة رموشها المساء
صغارنا يهللون ، هل يرونه ؟
جواده بالف حافر وحافر كبير
ورأسه بلا عيون ... الخ .

فهذه القصائد الثلاث تدور - كما قلت - حول محور شعوري واحد هو العودة . ويمكننا ان نقول انها لم تستلهم شخصيات شمشون وبختنصر وعاد لمجرد التقليد المألوف في استغلال الرمز الشعبي وانما لارتباط هذه الشخصيات بارض المنطقة من جهة ،ولاتساق محور « العودة » الشعوري مع العودة الى التاريخ واستلهامه من جهه اخرى .

وقد كان روح التفاؤل سائدا في هذه القصائد الثلاث ، حتى قصيدة « أصابع المطر » التي يغلب عليها طابع التساؤل اللهيف والقلق لم تخل من استشراف للمستقبل السعيد . على انه لا يحق لي ان اقصر روح التفاؤل على هذه القصائد وحدها ، فالتفاؤل يشيع في معظم قصائد العدد الماضي ، وبخاصة في قصيدة « عودة التائه » للشاعر علي هاشم رشيد وقصيدة « لقد اخترنا » للسيدة الشاعرة ملك عبد العزيز وغيرهما . ولكن لما كان التفاؤل قد صار ظاهرة تقليدية في الشعر الذي يتصل بفلسطين فان هذا يحتم علينا ان نفرق بين تفاؤل وتفاؤل، بين تفاؤل تقليدي يبدو مصنوعا متعمدا بوصفه قد صار عنصرا اساسيا في شعر النكبة ، وتفاؤل يبدو موائما لنسيج التجربة، طبيعيا بالنسبة لها . اما أنا فسأكتفي بضرورة التنبيه الى هذا الفارق وادع الباقي للقارىء .

وقبل أن انتقل الى ظاهرة أخرى في شعر العدد الماضي احب ان انبه الى أن القصائد الثلاث التي اشرت اليها ليست وحدها القصائد التي توقع نغمة جديدة مبتكرة . فليست الجدة وليس الابتكار رهنا باستلهام التاريخ واستغلال الرمز الشعبي ، وانما تتحقق الجدة والابتكار كذلك في القصائد التي تعبر عن التجربة تعبيرا فنيا مباشرا . واسوق مثالا على هذا قصيدة الشاعر ناجي علوش عن « الغريب » . صحيح ان التعبير عن الغربة جزء من الاحساس العام بالنكبة ، وكل القصائد التي اشرت اليها من قبل هي تعبير — بمعنى من المعاني — عن الاحساس بهذه الغربة ، لكن زاوية الرؤية في قصيدتنا هذه قد كشفت لنا جانبا نفسيا له خطورته ، بل لعلني لا اغالي اذا قلت انها فسرت لنا معنى « الغربــة » تفسيرا نفسيا من الطراز الاول .

لقد استبطن الشاعر موقفه الراهن ، وتأمل تجربته التي يعيشها، تجربة الغريب ، وحاول أن يتفهم الدوافع الخفية التي تتحرك وراء هذا الموقف . فبعد ان حدثنا عن رؤيته المفاجئة التي جعلته يرى — عاكسا مشاعره الشخصية على الاشياء — كل شيء غريبا ، حتى قميصه وحذاءه والرؤى التي تمر به في وضح النهار ، وبعد ان حدثنا عن مشاعره ازاء المدينة التي قضى فيها سبع سنين باحثا عن سلواه وامنه ، او باحثا عن نفسه ، لاحت له قريته القديمة وزيتونته الخضراء في الجبل ، التي ذوت ، لان راشدا الراعي اغراه زخرف الحياة فباع كل شيء ولجأ الى المقهى لكي يقتل الملل بلعب القمار ، حالما بالثروة التي تجعله يعيش عيشة « الكبار » . وهذه الصورة التي رسمها الشاعر للراعي الذي يلجأ الى المقامرة لكي يجنب نفسه اعباء المغامرة والكد هي — فيما يبدو — انعكاس كذلك لنفس التجربة التي يعيشها الشاعر . ومن ثم نجده يقول في المقطع السابع من القصيدة :

انا غريب
وراشد غريب
غربتنا واحدة وموتنا
ورعبنا من الغد القريب
وان يكن هناك
او كنت هاهنا
لاننا نقامر
لاننا نقامر
لاننا نعيش في متاهة انتظار
لاننا نبحث في مائدة القمار
عن روعة انتصار .

وبهذا كانت الرؤية في هذه القصيدة جديدة ومبتكرة ، لانهـا قبل كل شيء تجربة اصيلة .

وما دمت انحدث عن هذا اللون من القصائد التي تكشف عن اصالة وابتكار فلا يفوتني ان اشير هنا الى قصيدة « اكزوديس في الدار البيضاء » للشاعر أحمد المجاطي . فقد اختار زاوية جديدة للرؤية اضفت على القصيدة جدة وحيوية وجدية ، وخرجت بها عن الاطار التقليدي لقصائد النكبة ، كما لا يفوتني الاشارة الى قصيدة « حروفي الجديدة » للشاعر فؤاد الخشن . فهو وان لم يتحدث عن شيء في النكبة لقد كانت التجربة التي تعبر عنها القصيدة تجربة طريفة لا ينقصها الصدق ولا الحرارة . لقد حدثنا عن تحوله الايديولوجي من الغنائية الذاتية الى المشاركة الاجتماعية . ولم يكن الدافع الى هذا التحول قضية واحدة كقضية فلسطين ، وانما اشكال اخرى كذلك تكرر وجه هذه القضية في مختلف انحاء المجتمع الانساني. وتعكس لنا القصيدة بعد هذا صورة لهذا التحول ، لا من خلال التفكير النظري ولكن بوصفه نتيجة مباشرة للنظرة الواسعة الى واقع المجتمع الانساني . واذا كنا نتحدث في مجال القصة عن القصة ذات المحورين Double plot فان في وسعنا ان نستخدم هذا المصطلح كذلك في الحديث عن هذه القصيدة . ففي الوقت الذي يبدو فيه الشاعر منهمكا في التعبير عن موقفه الجديد من الكلمة اذا به بنفس الحرارة يحدثنا عن عذابات اللاجئين وعمال المناجم في اوربا ، وعن الجياع في الصين والزنجي المهان في امريكا ، ويربط بين هذا كله بخيط شعوري واحد .

اما الظاهرة الثانية التي تلوح لنا في قصائد العدد الماضي فظاهرة عامة تنسحب على الوضع الراهن للشعر العربي كله . وتتمثل لنا هذه الظاهرة في وضوح عندما نقسم مجموعة قصائد العدد الماضي مرة اخرى الى قسمين : قسم تغلب على القصائد فيه الضبابية ويوحي بتمزق التجربة ، وقسم اخر فيــه وضوح وشفافية وتماسك . ولست انكر ان الشعر يقبل الجو الضبابي كما يقبل الشفافية . فالمسألة ترجع اولا واخيرا الى طبيعة الشاعر نفسه ، الى ذهنيته وطريقة استجابته للخيال ورؤيته الاشياء . وليس من حق احد ان يطلب من

— التتمة على الصفحة ٧٧ —



بقلم الدكتور احمد كمال زكي

★★★

في حقيقة ادب المقاومة :

عندما كتب صديقي الدكتور صالح الاشتر عن بعض ادب النكبة ـ اعني نكبة فلسطين ـ اختلفت معه في شيء واحد هو : انه تعجل فرصد للمأساة وهي لما تزل خارج الاستبطان عند الاديب !

وكان معنى ذلك اني لم القِ معظم الاثار التي عرضت للنكبة تلقيا طيبا في اغلب الاحيان ، فقد كنت اراها اميل الى « الهتافية » او اكثر قربا الى ادب الاعلام ـ ان كان هناك كهذا الادب ـ ولهذا عجزت عن ان تقدم عطاءها في ايديولوجية رصينة ممتزجة بالحس المرهف .

اجل ، قرأنا بعض الاعمال الناجحة كقصة كنفاني « رجال في الشمس » وقصيدة فدوى « نداء الارض » غير ان مثل هاتين اذا قورن بضخامة الحدث وما قيل فيه باقلام السياسيين والاجتماعيين ، لا نملك الا ان نقول أن أدبنا المعاصر في جملته ـ وان ربطته الكارثة بواقعنا العربي ـ لم يزل في طور التعبئة والانتظار ، وكل ما صدر منه عما يخيل انه وضع طبيعي ليس في حقيقته اكثر من محاولات اجهاض لجنين لم يكتمل نموه بعد .

ولقد يمكن ان يرد علي قولي هذا ، ولا سيما من دعاة المقاومة ومن يرى ان الادب سلاح أو ينبغي ان يكون ، غير انني اسرع فاقول : لا حاجة بنا الان الى الخوض في معركة طالما قام نظيرها بين معسكرات الرأي ، فانه يصعب علينا باي حال من الاحوال ان نقبل ـ في نقد الادب ـ موقفا فكريا نراه من كل جانب ناقص التكوين او لم يهيأ له ان يصحو من ظلمات الغيب ، وما اشبه هذه الظلمات بليل الصدمة التي نجمت عن وقوع الكارثة !

اننا نحب ان يكون لدينا ادب المقاومة ، ولكننا نحب اكثر ان تكون المقاومة في حدود امكانياتنا الاصيلة . فلا نصرخ ولا نكابر ولا ندعي ما لا طاقة لنا به ، لاننا يوم نبرز للخصم مدفعا من الصفيح او طائرة من الورق نكون كمن اقام بينه وبين اعدائه حصنا من الخشب فدك عقب أول طلقة من رصاص .

وبهذه الفكرة التي نوقشت طويلا وستظل تناقش ، قرأت القصص التي نشرتها عن فلسطين مجلة الاداب في عدد مارس (اذار) من سنة ١٩٦٤ ، وكنت لا ازال على رأيي ان ستة عشر عاما لا تكفي للتعبئة الادبية الحقة . ومن ثم عن لي ان اثير قضية التعبير الفج تحت تأثير الحاجة العاجلة ، غير اني آثرت ان اجعل هذا طرفا من اطراف موضوعية النقد على النقاد ان يتجردوا له ببحوث مستقلة مستفيضة . ومن ناحية اخرى رأيت ان اجعله نقطة بداية او نهاية في التعرض لقصص العدد ، وعند ذاك يصبح من السهل ان نتصور ادب المقاومة بعيدا عن الطنطنة الكلامية والحماسة المصطنعة .

ومع ذلك فقد يكون من الضروري ان اقرر بادىء ذي بدء انني كنت كثيرا ما احار كيف اطبق مقاييسي الخاصة ـ على اي نحو ـ في الحكم على قصص اعلم ان اصحابها يخالفونني في اكثر من شيء ، الا اني كنت ازعم لنفسي ان ما اقوم به لم يقصد به سوى التفسير . فان دفعتني حماسة المناقشه الى ضرب من التسفيه ـ بدعوى التقييم الحقيقي ـ فارجو الا يراه أحد اكثر من رأي يدحضه رأي اخر اكثر منه استواء ونضجا .

القصة الاولى « نبي بلا احزان »

وهذه القصة ليست الاولى بحسب ترتيبها في عدد الاداب الماضي ، بل قد نشرت في ذيل كل القصص . وعندما انتزعها من المؤخرة فاقدمها على غيرها ثم اظفرها بالاولوية ، فانني لا اعني ان « الاداب » نشرت غيرها على اساس تقديم الاحسن منها فالحسن وهكذا ، ولا اعني كذلك اني رأيتها اكثر انطباقا على مقاييس النقاد ، او قل اكثر خضوعا لمقاييس واقعنا الادبي . وانما اعني انها قدمت عطاءها في يسر ، وصدقت عن نفسها ببساطة ، برغم كل ما زلت به قدم صاحبها .

ان علي زين العابدين الحسيني ـ وهو من غزة ـ لا يحاول ان يقدم البطل الفرد الذي يلوذ بالغابات كروبين هود ، او الذي يسرع الى سيفه ومخاطراته كباردليان ، او الذي يتحصن بالبحر حتى تدين له فلاع البر ككابتن بلود . بل هو لم يحاول ان يجعله « سيزيف » ولا « بروميثيوس » ولا غيرهما من ابطال الاساطير والملاحم ، ولكن جعله انسان العصر بكل عيوبه وفضائله . فهو يخطىء ويسقط ، ثم يحاول ان ينسى خطأه وسقوطه بالخمر ـ والخمر عنصر كلاسيكي في الاعمال القصصية ـ بل قد نراه يتحيز الى البورجوازية اللاهية ، ويلجأ الى قوى الظلام باعتبارها نهاية المصير .

وكانت الخطة العامة التي اتبعها الحسيني كمؤلف تقضي بان يجعل تأملات بطله هذا متقافزة ، فعقد بين تمزقه النفسي وبين احد اساليب القصه الجديدة ، واستطعنا ان نقف على اكبر قدر من التجربة ـ تجربة المحنة ـ باقل قدر من التعبير . وفي ضوء هذا يتضح لنا ان الاعتداء على زوجة البطل من جانب اليهود هو المحور الذي تقوم عليه القصة ، فابتعدت من ثم عن غنائيات الحماسة وتفجعات المقاومة التي اعتدنا ان نراها في اكثر اعمال النكبة الفلسطينية .

لقد قالوا لرمزي ـ وهو البطل ـ ارحل وستنسى ، ورحل ولم ينس ان اربعة من اليهود تركوا صديدهم في احشاء زوجته . وقد كان يراها فتقض مضجعه ، وتعودت هي ان تلوذ باقصى الغرفة لتضرب بطنها وتصيح : يهودي في بيتنا ! ولكنه كان لا يفعل شيئا لان حزنه كان اكبر منها ومنه ، وعندما اشعلت النار في جسدها تركها بجبن لمصيرها وهي تحاول ان تنطق باسمه تريده ان يغفر لها .

« هل كان بامكاني ان اصف كيف نطقت باسمي ؟ يا الهي كيف .. كيف تنفصل عنا الذاكرة ؟ كيف يسقط منا الشعور ؟ كيف لا نصدق ؟ كل ليلة اتعاطى حبوبا لانام .. منذ سبع ليال وانا اعدو من اشباحي » .

لقد انتهى الحسيني ببطله الى نهاية بطل كامو في « السقطة »

يجمعهما الجبن والاحساس بالاثم ، ولكن حزن رمزي اكثر ضراوة واثارة حتى لينكر كل شيء .. السماء والنجوم والناس والاصدقاء ، وعندما قابلته تلك البغي في الطريق لم يجد عندها شيئا . اجتمع بها على فراش واحد ، ولكنه لم يستطع الا ان يفرغ احزانه في احشائها لينتشي وينام !

واذ ذاك خرجت البغي وقد احست انها « تحمل » الحزن ، ورأت بعينيه ان السماء - التي قد ترحم - اعلى مما يجب .

تلك هي الخطوط العامة لقصة الحسيني ، وان تكن من المؤكد افقدت العمل الاصلي « عرامة » التفصيلات التي تلعب برمزي دورا رئيسيا في بلورة الحدث . غير انها على كل حال ضرورية لاي قارىء لم يتح له الاطلاع على القصة من ناحية ، فضلا عن انها من ناحية اخرى تبين ان الحدث الذي يبدأ من حيث وقعت النكبة يمكن ان يكون اساسه اي شيء اخر . بمعنى ان واقعة « الاعتداء » على زوج رمزي ليست خاصة من خصائص اليهود وحدهم ، وانما هي ظاهرة تتفشى بين المخربين عامة . ولعل هذه زاوية يمكن ان يهاجم منها الحسيني ، ومن حيث نحس ان وراء الاعتداء عملية تلقيح من نوع جديد - وهي التي افسدها الحسيني بأن جعل البغي تهتف في حركة مسرحية بعد ان نام رمزي بجانبها : افرغ شهوة احزانه في احزاني - نرانا نقرر ان سر تفوق الحسيني لم يكن لانه استبطن تجربة النكبة ، ولكن لانه استبطن تجربة انسانية في اوسع اطار انساني لها !

والدليل على ذلك انه وهو يدفع بنا وراء بطله - وقد كان ايقاع القصة سريعا جدا - ثم وهو يتكىء على نوع من الحوار الباطني ليحلل افكاره على طريقة جيمس جويس احيانا ، واخيرا وهو يسرد ويجتر ويسلسل الانفعالات النفسية .. اقول بان الدليل على ذلك - وهو في كل هذا - اتكاؤه على موتيفات لا اقليمية ، ثم استجابته الى مؤثرات لا تستوعب الابعاد اللازمة لجوهر النكبة .

ومع ذلك فستظل قصة « نبي بلا احزان » في مقدمة الاعمال القصصية التي قدمتها مجلة « الاداب » في الشهر الماضي .

القصة الثانية :

هي للاديب الذي عرفته القاهرة - وعرفه العالم العربي - يكتب القصص التاريخي بنجاح ، وقد يكتب المسرحية التاريخية ايضا ، ونشرت له مؤخرا احدى دور النشر في ليبيا « العالم الضيق » . ولقد سعدت ان يسهم هذا الاديب وهو نجيب الكيلاني بقصة « المصلوب » في معركة فلسطين ، ليس لانها من النوع الممتاز لادب المقاومة ، ولكن لانه لم يتورط بها فيما تورط فيه من اعمال ادبية من نوعها وسبقتها .

ولقد يمكن ان تلحق بالمصلوب قصص اخرى ولا سيما هذه التي تعتمد الاحداث وتعقدها لتكون هناك حبكة او ما يجري هذا المجرى ، الا ان نجيب الكيلاني تمكن من ان يخنق نبرة التحمس فيما لا طائل وراءه ، ويقدم البطل في نوع من الوعي هو ما ينبغي ان يقدم للقارىء . ومن ثم لم نجد في طريقته حقيقة صعبة او حقيقة يشق على اي عقل ان يواجهها . فعاهد شاكر - البطل - معقول الى الحد الذي يحرص فيه اي رجل على ان يبسطه بخاصة لخطيبته ، ومغامراته من اجل رفاقه لم تكن كمخاطرات السوبرمان لانه يربطها باحتمال يبدو بعيدا احيانا وان يكن بالنسبة للمحاربين واقعا ابدا او هو يقع باطراد .

لقد كان عاهد شاكر يعيش لحظة تمزق ، لان رؤيته لدم الضحايا - بالامس القريب - تؤرق عليه سعادته . وهو قد قرر ان يضع حدا لتمزقه ، ولما كان رفاق المقاومة يحتاجون الى المال لشراء السلاح فقد اهتدى الى شيء . رجع من الميدان - والبيئة المكانية عنده غير واضحة تماما - وودع خطيبته « وديعة » دون ان يلوح لها بشيء مما عقد عليه عزمه ، ولكنه حدثها عن الخيانة والموت والارواح التي لا تعرف الزمن ولا المسافات .

وعندما التقى برفاقه ثانية يتكشف كل شيء ، فاليهود يطلبونه حيا نظير ثلاثة الاف جنيه ، ولما كان هذا المبلغ يكفي لاطالة امد المعركة قليلا فلا اكثر من استغلال الطلب بصورة يصل المبلغ فيها الى اصحابه. وقد تم الاتفاق على ان يقدمه واحد من رفاقه - بصفته خائنا - الى اليهود ويقبض الثمن ، على ان يعمل هو على الهرب بعد ذلك . واذا كان رفاقه قد نجحوا في الشطر الاول من الخطة ، فانهم في الشطر الثاني فشلوا لان اليهود - بعد ان دفعوا الثمن - لم يمكنوه من الهرب قط . فقد عجلوا بصلبه ليعجلوا بنهاية بطل من ابطال المقاومة .

ان القصة في حد ذاتها تفضي بنا الى مسألة خطيرة في النقد ، ذلك انها تثير السؤال الخالد التالي : أكان نجيب الكيلاني مقنعا في تقديمه عاهد شاكر ؟ ويمكن ان يتحول هذا السؤال الى سؤال اخر اوضح هو : أترى اصاب الكيلاني حين قدم لنا حقيقة عاهد شاكر على ذلك النحو الذي رأيناه ؟

لست ادري بماذا اجيب في الحقيقة ، ولكنني ارى ان ما قدمه نجيب الكيلاني - وان يكن مخالفا للمألوف من طبيعة البشر ومن ثم يخالف ما نسميه بالحقيقة العلمية - لا يبدو شاذا في القصة ، تماما كما لا يبدو شاذا ما سيق في روبنسون كروزو وما سيق في رحلات جاليفر. حقا لا ينطبق ما في هاتين الروايتين على ما يصدق عليه واقعنا الفعلي ، الا اننا من الناحية الفنية لا نرفضه تحت اي دعوى من الدعاوى الكثيرة في النقد .

اذن فقد كان منطق « المصلوب » يفرض علينا ان « نصدق » صورة البطل المضحي الى حد الجنون .

وماذا بعد ذلك ؟

وبالقدر الذي جعلنا به « المصلوب » قصة ثانية لا نجد القصة الثالثة . فالقصص الاربع « عندما تشرق الشمس من المغيب » و« الغرباء »

- التتمة على الصفحة ٧٨ -

اعمدة في شارع الرشيد

منـــذ وعيت هـــذه المدينـــة الكثيرة الزحـام
وجدتهـا ثرثـــارة يعجبهـــا المهذار بالكـلام
ففي مقاهيها .. وفي الطريق.. عند وقفة السلام
ينطلق الحديث عن شيء كلا شيء ، عـــن الحرام
عن الحلال .. عن رشيقة كحيلة .. وعـــن غلام
عن عاقر تـــود لـــو ترزق بالالاف كــل عام
عن سيـــد تجـــره جنية سمراء فـــي الظـــلام
عن الخمور .. أيهـــا المعتق المستهتر اللجـام
عـــن شاعر يغزل مـــن اشواقـــه مخـــدة الغرام
عـــن مسجد خطيبه فهامـــة يستمطر الغمـــام

***

تلك احاديث تمر .. تنقضي .. كـــوجبة الطعام
لكن فـــي شارعها الضيق ، والطويل ، لا تنـــام
حكاية الطغيان والطغـــاة ، واللقمـــة والصيام
حكاية الامير ، والاقطاع ، والوزيـــر ، والطغام !!
عن الرعاع !! يزعجون هـــدأة الحكام والمقـــام
عـــن الزعيم يـــزرع البلاد بالرؤوس والعظـــام
ويزرع المشانـــق الشمـــاء فـــي متاهـــة النظام
أعمدة سوداء تعلـــن الحـــداد فـــي رؤى الهيام

***

وها هنا ألف عمود .. ألف جثـــة مـــن الرخام
ألف شهيد .. يسأل الصباح والمساء والهـــوام
عن العصور تنقضي ، لا ينقضي من حولها الخصام
بين الذين يحكمون .. والذي يلهث فـــي الرغام
مـــا بين خيـــام وبين جائـــع يبيت فـــي الخيام

***

كل عظيم !! مـــن هنـــا يجـــره موكبه الهمـــام
يخطر كالعروس ، أو يمـــر كالنسيم ، كالكـــرام
فتنظر الهامـــات مـــن اطرافه بنظـــرة احتـــرام
آنا .. وآنا تبصق الحقد الـــذي يسخر بانتقام
الوهم زال .. تمزقت عـــن خزيها أقنعة اللئام

***

من قبل (هولاكو) طغى ناس على (مدينة السلام)
فحطموا مكاتب الحيـــاة ثـــم احرقـــوا الحكـــام
والتهمت دجلة تاريـــخ الفنـــون أعنف التهـــام
وبعد هولاكو استبـــد واستبد سادة كـــرام !!
فعفنت نثائـــر القتلى السحاب .. أخرس اليمام

***

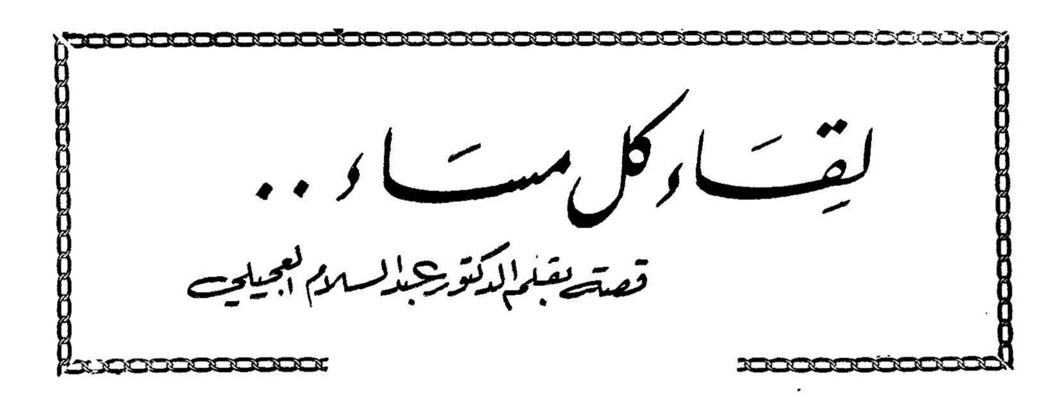
ألف عمود ها هنا .. في شارع الرشيد، لا تضام
كأنهـــا الرقاب اذ يصلبها الشمـــوخ والـــزؤام
لا تنحني مهمـــا استبد واحـــد فـــي كفـــه الزمام
مهما تمطت يـــده بالسوط .. والوعيد ، والملام

***

ألف عمود ها هنـــا .. كأنها ألف اصبع اتهـــام
يا أيها الوعد الذي مـــن حولـــه تزاحم الانـــام
مسفوحة أشواقهم كأنهـــا المـــوج مـــن الحمام
عن الغد الموعود تسأل الـــذي اصباحه قتـــام
عن (وحدة) طاشت على حياضها الصافية السهام
عـــن جنـــة رضوانها يقتلـــه المهذار بالكـــلام

بغداد

عدنان الراوي



رسالة (١) من م. الى س.

عزيزتي س.

كما اردت ، والححت ، ترينني اكتب اليك .

في رسالتك الاخيرة ، واللواتي قبلها ، طلبت مني جوابا ... جوابا باي ثمن . واذا كان سكوتي يعني تعلقي ببقية من مقتضيات اللياقة حيالك ، فانك بالحاحك قد دفعتني الى ان اسير في كلبيتي الى غايتها ... او ان الامر بالعكس ، فلانني لم استطع ان اسير بالكلبية الى غايتها اضطررت الى ان اجيبك فامزق ما اردت ان استبقيه من مظاهر اللياقة بيني وبينك . لا بيني وبينك فحسب ، بل بيني وبين كل امرأة ... ومهما يكن من الامر فها انا يا عزيزتي ، وكما تشائين، اجيبك ... وبصراحة .

ما الذي حدث بيننا ؟ ما الذي حدث لي ولك ؟ انها القصة الازلية ، قصة ادم وحواء . انها قصة الرجل والمرأة ، كما مرت على ملايين ملايين الناس من ذكر وانثى قبلنا . وانت تريدين ، كملايين من مثيلاتك قبلك ، تفسيرا لما حدث . هكذا تظنين ، والحقيقة انك تريدين تبريرا لما حدث ، لا تفسيرا . وملايين من امثالي قبلي آثروا ، في مثل موقفي منك ، السكوت كما سكت انا طويلا ، او انهم كذبوا . فهل تطمعين مني انا وحدي ان اقول ، وان اصدق فيما اقول ؟ هل تطمعين ؟ حسنا ، اذن فسأصدقك القول . لا تظني اني سأفعل هذا حبا بالصدق ذاته ، ولا رغبة مني في ايلامك ، فانت تعرفين انني لست بالسادي الطباع ، وانما لاني اكتشفت ليلة تركتك ، اخر ليلة ، حقيقة الدوافع التي دفعتني الى ان افعل ما فعلت ، لذلك فاني اجد لذة كبيرة في التحدث عما اكتشفته . في تلك الليلة اكتشفت لم احببتك ونعمت بك ، ولم تصرفت معك التصرف الذي سميته انت في رسائلك اضطهادا وتعذيبا . سأقص عليك يا عزيزتي ، وانت عزيزة علي حقا ، كل اكتشافاتي وابرر لك كل تصرفاتي .. كما اردت والححت ...

انت مدرسة فلسفة . او انك ، قبل ان يحتويك القصر ، وتسعى اليك السيارة الفارهة ، وتملأ وقتك حفلات الكوكتيل وحملات التبرعات لجمعيات المعوزين ، كنت تهيئين نفسك لتكوني مدرسة فلسفة . ربما كنت اذن ادرى مني بتلك الطرق التي يتبعها المحللون النفسيون لاكتشاف اسباب الانحرافات السلوكية ودوافع الميول الشاذة ، وباساليب تطبيق تلك الطرق . اما انا فان معلوماتي عن التحليل النفسي لا تتعدى ما قرأته في الروايات ، او رأيته في افلام السينما ، عن الديوان الذي يستلقي عليه المريض ، المريض نفسيا ، مسترخيا ، يقص على طبيبه ذكرياته المبعدة في القدم ، الى ان يكتشف هذا دافع تلذذ مريضه بتعذيب صبيان الحارة في حادثة قديمة لقطة خمشت كفه حين كان في الثالثة من عمره ... او يكتشف سبب ضعفه الجنسي ، ضعف المريض ، فيما رسب في اعماق نفسه ، منذ الطفولة الاولى ، من منظر فاجأ فيه خالة له عارية عريا فاضحا وقبيحا ...

نعم ، هذه كل معلوماتي عن التحليل النفسي : الديوان الطويل، والمريض المستلقي ، والنور الخافت ، والذكريات المتتابعة . امور كنت اظنها لا ترد الا في صفحات الكتب او على الشاشة الفضية،ولكني تبينت انه يمكنها ان ترد في حياة كل انسان ، وفي حياتي انا بالذات كذلك . فعلى ديوان طويل ، واطىء ، وفي ضوء خافت ، اكتشفت انا منبع القلق القديم في نفسي ، منبع الظمأ الذي لم يرتو والغلة التي لم تنقع والسلوك الذي حيرك انت . قد تسألين اي عيادة نفسانية تلك التي ترددت عليها وما اسم محللي النفسي . ستدهشين اذن اذا قلت لك اني اكتشفت نفسي على ديوان في منزلك ، الديوان الطويل الواطىء ذي المسند الجانبي المقوس ، الذي اقتنيته لانك تبدين ، اذا ما استلقيت عليه ، امام اعين صديقاتك واصدقاء زوجك ، مشبهة مدام ريكامييه في الصور التي خلدها فيها فنانو القرن التاسع عشر . ذلك هو الديوان . اما محللي النفسي ، الذي اثار ذكرياتي البعيدة في مكامنها ووضع اصبعه على جرحي القديم ، فهو انت يا عزيزتي ...

هل تذكرين اخر مرة ؟ كان ذلك الديوان يحتوينا ، انت وانا . كل ما كان على جسدك كان غلالتك السوداء والقصيرة ، المطرزة حواشيها بالدنتيلة ، تكشف عن كمال تكوينك ، ان في شفافيتها عما تلف من مفاتن جسدك ، او في انحسارها عما لا تستره من مفاتنك . ابقيت تلك الغلالة لانه كان قد مضى بيننا الزمن الذي كنت لا اطيق انا فيه ، ولا تطيقين انت ، حتى نسيجا كنسيجها العنكبوتي . رأسي كان على صدرك ، ويدك كانت تعبث بخصلة من شعري تمسحين بها صفحة عنقك ثم تتركينها لتلتوي على جبيني . قلت لي فجأة :

ـ في رأسك شعرة بيضاء ، انها ليست مرنة كالاخريات ، بل هي قاسية ، واقفة كأنها تصرخ . اتدري ماذا تقول ؟ انها تقول : تمتع بشبابك ! تمتع بشبابك يا حبيبي ...

قلت هذا وضحكت . ثم عدت الى العبث بشعري باناملك المنعمة الرخصة . كان عطرك القوي الساحر لا يزال يفعمني وحرارة جسدك لا تزال تسري الي ، ولكني شعرت في تلك اللحظة بقشعريرة برد تتسرب الى جسدي فيقف لها جلدي ... لفحت وجهي فجأة ريح باردة وملأت انفي رائحة مالحة ، رائحة ماء البحر التي تغمر سطح الباخرة... ورن في سمعي ، بعيدا عنك ، وعن الديوان الواطىء الطويل في البهو الخافت النور ، صوت الدكتور يانابولوس يقول جملة واحدة تنعكس على اعماق وجداني فتردد تلك الاعماق اصداءها متشابكة ومتداخلة :

ـ تمتع بشبابك ... تمتع بشبابك يا عزيزي ، ليت لي شبابك !

ـ ٢ ـ

من هو الدكتور يانابولوس ؟

لقد كان في الباخرة التي ركبتها ، مبتعدا للمرة الاولى عن بلادي ، طبيبها . لم اعرف انه طبيب الباخرة الا عند ظهر اليوم الثاني

(١) هذه الرسالة مكتوبة في الاصل باسلوب مطرد ومرسل . وقد تصرف الناشر بتقسيمها ، وبتجزئتها الى فقرات ، وباضافة بعض علامات التنقيط عليها . وفيما عدا ذلك فان كل ما فيها مطابق لنسخة الاصل ، حتى في بعض ما تحتويه من اخطاء تاريخية او جغرافية في القسم المروي على لسان الدكتور يانابولوس .

من اقلاعنا ، حين رأيته يخرج من قمرة كتب عليها بالاحرف اليونانية كلمة ((ياتروس)) ، قد ازدحمت رفوفها بالادوات الطبية والفناني . وفي فترة الليلتين السالفتين والنهار بينهما كنت اعجب من هذا الضابط المسن ، وهو في بزته الكحلية المزينة اكمامها باشرطة من القصب ، في ملازمته لكرسيه على سطح المركب ، يتأمل في الافق البعيد حيث يلتقي البحر بالسماء . ولكن كثرة المصابين بالدوار بين الركاب هي التي جعلته يترك كرسيه ، ليدخل قمرته ويخرج منها ، متثاقلا ، في كل مرة ، ثم يعود الى الاستلقاء على كرسيه الثابت موجها الى المدى البعيد نظراته الساهمة .

وكان دوار البحر قد مر بي مرورا عابرا ، وان كان قاسيا ، في الليلة الفائتة ، فكافحته بأن كنت اعود الى الاكل كلما افرغت ما في معدتي بالتقيؤ ، حتى صلح حالي . وكنت بهذا واحدا من القلائل من ركاب الدرجة الثانية الذين ظلوا يمشون على ارجلهم في اليوم الثاني من بعد مغادرتنا بيروت . وحين حميت الشمس ، اضطجعت على كرسي طويل ، شيز لونغ ، اسندته الى جدار المشى على سطح الباخرة ، حذاء كرسي الطبيب ، منتظرا خروجه من حجرته ، ومعتزما في قرارة نفسي أن اجد وسيلة ما لمحادثته . عاد الطبيب بعد هنيهة فالقى بنفسه على كرسيه ، دون أن يلقي علي نظرة ، بل مادا بصره الى الافق. فجمعت اطراف جرأتي وقلت ، بالفرنسية ، بصوت عال وحاد :

– الباخرة مملوءة بالمصابين بالدوار ، وهذا يجعل مهمتك شاقة... اليس كذلك يا دكتور ؟

فادار رأسه الي ببطء ، وثبت في نظرته قليلا كأنما ادهشه ابتدائي له بالكلام . ولم يلبث حتى بدت في عينيه الزرقاوين ومضة خاطفة، وارتسمت على كل محياه ، ليس على شفتيه فقط ، ابتسامة انيسة ، وقال :

– هو كذلك ... ولكنها مهمتي .

وسكت ، الا انه ظل ينظر الي بعينيه الزرقاوين الصافيتين . كان وجهه مدورا وموردا ، قد هدلت السنون ، ولا بد من انه في طريقه الى الستين منها ، وجنتيه وضاعفت الطيات تحت ذقنه ، كما انها كورت جسمه فبدا في بدانته اقرب الى القصر منه الى الطول . ولكن نظرة عينيه ، حينما ابتسم ، كانت نظرة فتية . واستانف كلامه فقال:

– وانت ، الم يصبك الدوار ؟

اجبته : – ليس كثيرا ، وقد استطعت تحمله فلم ازعجك .

قال : – هذا يعني ان نفسك قوية مثل جسمك . وليس كل الناس هكذا .

وادار رأسه صارفا نظره الى نقطة بعيدة امامه . وبالرغم من ان لهجته كانت قليلة الحماس فقد تلقيت كلامه كأنه ثناء اعجبتني به نفسي . فعدت اليه بالحديث بقولي :

– لا اشك في انك تلاقي في عملك مشقة كبيرة وتتحمل مسؤوليات كثيرة ، لكني اعتقد انه يظل في نظرك اجمل عمل في الدنيا .

قال : – اي عمل ؟

قلت : – عمل طبيب الباخرة ...

فسكت قليلا قبل ان يسألني سؤالا لم افهم مغزاه اول الامر، قال:

– هل تحب قراءة القصص ؟

قلت : – كثيرا .

قال : – حسنا ، خبرني كيف تتصور حياة طبيب الباخرة ؟

فترددت وبحثت في خاطري عن الصورة التي يرتسم لي فيها طبيب الباخرة من خلال ما قرأته من قصص الرحلات وما تخيلته من الوان الحياة في اسفار البحار العالية والمحيطات المترامية . ثم لم البث حتى انطلقت في تعبيري عن شعوري بأن كون المرء طبيبا يعني في ذاته انه يخوض في كل يوم مغامرة ، بل مغامرات ، في اجساد الناس ونفوسهم . اما طبيب الباخرة فهو يجمع الى مغامرات المعنى مغامرات المادة ، في عوالم غريبة عجيبة ، متجددة كل يوم ، من مسافرين تنقلهم الباخرة الى ارجاء الدنيا القصية ، ومن موانىء متباعدة متباينة السكان والاقاليم ، ومن احداث مرتقبة او مفاجئة غنية بالمواقف والمشاهر. وحينما توقفت عن الكلام في انتظار تعليق الطبيب على تصوراتي قال ، دون ان يغير من اتجاه نظرته البعيدة :

– جميل ما قلته حقا . وماذا عن النساء ؟

فانطلقت مني ضحكة قصيرة مستحيية .فاضاف :

– نعم ، ماذا عن النساء في حياة طبيب الباخرة ؟ ...

قلت : – قرأت ذات مرة ان قلوب البحارة كقلوب الملفوف ،اوراق عديدة متراكبة ، تنزع منها ورقة فتبدو تحتها ورقات ... وان لكل منهم ، في كل ميناء ، فتاة تنتظره . ولا ادري كم يصدق هذا على قلوب اطباء البواخر !

فقام محدثي عن كرسيه وخطا في المشى حتى اسند ظهره الى الحاجز الذي يحمي سطح السفينة ، ملتفتا الي بوجهه المدور المورد ، وقال :

– تعجبني تصوراتك ايها الفتى . لماذا انت ذاهب الى اوروبا ؟ للدراسة ربما ...

قلت : – لدراسة الحياة يا سيدي ... اذا صح هذا . قبل ان اشارك ابي في ادارة اعماله الواسعة طلبت منه ان يسمح لي بالتجوال اشهرا في بلاد لا اعرفها . ولاني احب هذا تراني معجبا بحياة اطباء السفن .

وفي هذه الاثناء برزت ليليان من وراء احد زوارق النجاة التي كانت على سطح السفينة ، وهي تركض ،ولم ادر بها الا حين هوت بكفها على نقرتي بلطمة حادة ثم فرت مسرعة . فعدوت خلفها متسللا وراءها السلالم مطاردا لها بين السيارات التي كانت مثبتة بالحبال بحواجز السفينة ، حتى ظفرت بها بين حبلين من تلك الحبال . وجررتها بيدي الى حيث كان الدكتور يانابولوس واقفا ، وقلت له وانا الهث ، وكذلك رفيقتي :

– ارجو ان تقبل اعتذار ليليان عني ، فقد اضطرتني الى تركك بصورة غير لبقة .

فامتلأت ملامح الطبيب بالابتسامة الانيسة من جديد ، وقال:

– لا عليك . الانسة افرنسية ، اليس كذلك ؟

قالت ليليان :

– نعم ، من باليه آموري . لقد وعدني هذا السيد ان يرافقني الى الاكروبول حين تقف السفينة في البيرة . ولكن ها قد قاربنا الوصول الى المرفأ وهو لا يزال يضايقك بحديثه . اهي امراضه التي لا تنتهي تلك التي كان يحدثك عنها يا سيدي ؟

قال الطبيب وهو ينظر اليها نظرة ذات معنى :

– ليس به من مرض الا حب الحياة ، وهو مرض جميل . انه محظوظ يا انسة .

فابتسمت ليليان وقالت :

– شكرا ... الا ترافقنا الى الاكروبول ؟

فغابت الابتسامة عن وجه الطبيب ، وتراءى لي ان حسرة خفيفة قد مرت من بين شفتيه وهو يقول :

– اثينا بلدي يا عزيزتي ، وكان يجب ان اكون انا الداعي لكما اليها . ولكني لا اريد ان اتطفل بشيخوختي على شبابكما . انهم يقدمون في المطعم طعام الضحى قبل مغادرة السفينة، الستما جائعين؟

فانفلتت ليليان نحو السلم المنحدر الى قاعة الطعام ، بينما اتجه الي الطبيب بالحديث قائلا :

– ما احسن ما بدأت به دراستك الحياة يا صديقي ... ليت لي شبابك !

– ٣ –

بعد ان اقلعت السفينة من البيرة ، رقيت سطحها باحثا عن صاحبي الطبيب فوجدته في مقعده المفرد ، يتطلع الى امام ، دوما . وكانت السفينة في اتجاهها نحو مضيق كورنثيا تسير محاذية الارض اليونانية،

غير مبتعدة عنها . فكان الشاطىء الجبلي يلوح لاعيننا وقد تعلقت على سفحه المنازل المتفرقة ، نقاطا بيضاء في رقاع خضراء من العشب او رمادية موردة بلون الصخر الذي ضرجته بالحمرة اشعة الشمس المنحدرة نحو المغيب . وكان جزء الممر من سطح الباخرة الذي وضع فيه الطبيب مقعده منعزلا ، قد تباعد عنه الركاب فخيم عليه السكون،لا تسمع فيه الا غمغمة الالات المنبعثة من اعماق المركب ، وحفيف الامواج في اصطدامها بجوانبه المعدنية . فلم اجد لائقا ان افسد هذا السكون بسؤال اوجهه الى الطبيب او حديث اجاذبه اياه . لذا فقد استندت ظهري الى جدار القمرة التي كانت ورائي ، ليس بعيدا عن كرسي صاحبي ، ورحت مثله ارسل طرفي الى الشاطىء المناوح اريح نظري على مناظره الجميلة المتبدلة في طبيعتها وفي الوانها .

الا أن الدكتور يانابولوس بدأني هو بالكلام . وقد ظننت في البدء أنه ، من فرط استغراقه في النظر الى بعيد ، لم ينتبه الى قدومي ووقوفي الى جواره . ولكنه التفت الي فجأة وقال ، وكأنه كان يتم حديث الصباح ، وكأننا لم نفترق :

ـ ليس كل البحارة مغامرين ، ولا كل اطباء البواخر ...

فتطلعت اليه فلاحت لي على شفتيه الابتسامة التي تضيء وجهه وتحيل الركود في ملامحه المسنة الى فتاء وصبى . واردف :

ـ لماذا انت واقف هكذا ؟ هات ذلك الكرسي . ما دامت هذه اول سفرة لك فسنرى الان منظرا لن تنسى سحره طول عمرك .

وامتثلت لاقتراحه ، فجررت الكرسي الطويل الى جانبه بينما استمر هو في حديثه متطلعا الى سلسلة الجبال التي كانت تصل ، في الساحل ، ما بين زرقة البحر وزرقة السماء :

ـ نعم ، قد يكون البحر مهربا من المغامرة ، لا طريقا اليها ، كما كان عندي مثلا . قد اخيب ظنك في ما اقوله لك . ولكنك في اول الحياة ، وستعلم يوما ما ، اذا لم يكن مني فمن غيري ، او على حساب نفسك ان الواقع في هذه الحياة كثيرا ما يخيب الظنون والامال. كيف رأيت الاكروبول ؟

وكان سؤالا مختلفا عن حديثه الذي تطرق فيه الى الحديث عن نفسه ، كأنما اراد بالقائه علي ان يقطع خيط ذلك الحديث . فرحت ابدي له أعجابي بروعة ما تبقى من هذه القلعة الاغريقية ، وبتناسق هندستها وضخامة اعمدتها ، وبجمال اطلالتها على اثينا الحديثة.قال:

ـ وصديقتك ، هل كانت مسرورة من اصطحابك لها الى تلك الخرائب ؟

قلت :

ـ تقصد ليليان ؟ انها ليست صديقة ، بل رفيقة سفر . هي ، كما قالت لك هذا الصباح ، احدى فتيات باليه آموري الذي كان يقدم برامجه الراقصة في بيروت وربما في غيرها من بلاد شرقنا طوال اشهر كثيرة . وفتيات ذلك الباليه هن الان في طريقهن الى اوروبا حيث يتوزعن على بلدانهن المتفرقة . لقد عرفتها على ظهر السفينة .

فعاد الطبيب الى سؤاله قائلا :

ـ وهل اعجبها الاكروبول ؟

قلت : ـ كانت تصيح اعجابا في كل زاوية من زواياه ، وعلى آثار السور ، وبين اعمدة البارتينون . الواقع اني اكاد ان لا افهم تعلق اغلب الناس ، والاوروبيين منهم بصورة خاصة ، بالخرائب والاثار القديمة الى هذه الدرجة . لعل قلة فهمي تلك ترجع الى كون الاثار القديمة تملأ أرض بلادنا : جرش والبتراء وتدمر وبعلبك ، والخرائب المتناثرة على قمم جبالنا وفي قلب صحارينا . ان من يرى تلك البقايا العجيبة لا يجد في الاكروبول ما يستدعي صيحات الاعجاب . تريد الصراحة يا دكتور ؟ حينما وقفت ليليان مشيرة الى واحدة من الاساطين الضخمة التي تحمل افاريز المعبد ، وهي تدعوني الى التأمل في استواء تلك الاسطوانة ورشاقة خطوطها على ضخامتها ، كان اعجابي ينصرف لا الى عمود الحجارة الذي نحته اسلافك الامجاد بل الى قامة رفيقتي الرشيقة وجمالها الاخاذ ...

فضحك الدكتور يانابولوس برقة وقال :

ـ هذا طبيعي ... فمن هو الغبي الذي يفضل عمودا من حجارة صماء على ساق مشيقة لحسناء جميلة ؟

قلت :

ـ لا اقصد هذا ، او اني لا اعني هذا بالضبط . انما كنت اقول في نفسي ، وانا ارى صدر ليليان الفاتن يرتفع وينخفض في انفعال الدهشة ، وارى خصلات شعرها الاشقر تتطاير بفعل الانسام حول وجهها الرقيق ، وارى انسجام اعضائها وتورد بشرتها ، ان الجمال الحقيقي هو في الحياة ، في الحياة نفسها ، وان الجماد مهما كان القالب المسكوب فيه منسجما متناسقا مادة ميتة ...

فقال الدكتور يانابولوس ، وقد دبت الحرارة الى لهجته التي ظلت ، حتى الان ، فاترة على رقتها :

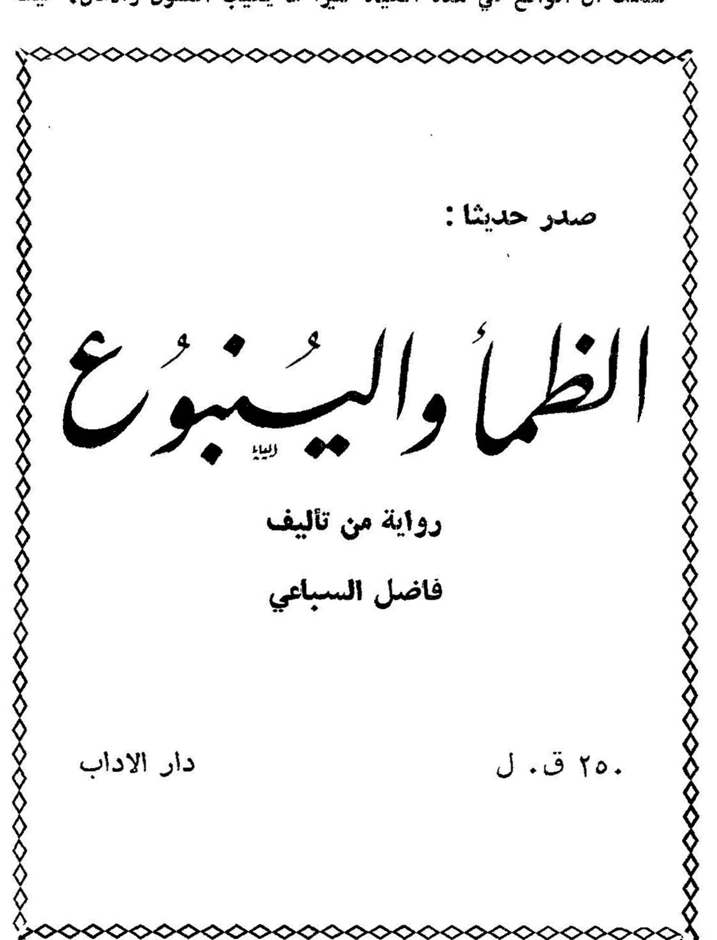
ـ احسنت ، احسنت . اذا كنت تعيش حياتك بهذه الروح التي تعبر عنها الفاظك فاني اغبطك ايها الفتى .

وفي الحق ، لم افهم ، في البدء ، ماذا كان محدثي يعني بقوله هذا . فقد قلت ما قلته وانا اروي المشاعر التي دارت في نفسي في زيارتي للاكروبول مع ليليان ، وببراءة . ولم ادر انني بهذا قد اعدته الى ذكريات خاصة له ، هي التي كان قد بدأ بالتطرق اليها في اول حديثه معي ، ثم تباعد عنها . وقد رأيته يعود مجددا الى التحدث عن نفسه ، اذ اردف يقول :

ـ نعم اني اغبطك . ذلك اني ... ماذا اريد ان اقول لك ؟ ... لاني لم ادرك الحقيقة البسيطة التي قلتها انت الان ، تراني امامك طبيبا لسفينة ... عبدا مسخرا ، مثقلا بالقيود ، مشدودا الى قاع هذا المركب ...

وكان الشاطىء في تلك الاثناء ، عن يمينا ، يقترب من السفينة شيئا فشيئا ، حتى لكانت تبدو لنا معالم صخوره ، صخرة صخرة،

ـ التتمة على الصفحة ٥٠ ـ





فلسطين باختصار

أسطر مضيئة من ملحمة العودة !

بقلم علي بدور

مرت في حياتي ثلاث وقائع بسيطة تمس كل منها المشكلة الفلسطينية في جانب مهم من جوانبها . وقد أحببت ان اطلع قراء « الآداب » عليها بمناسبة الحديث عن فلسطين .

« الواقعة الاولى » : في عام ١٩٤٤ ، ذات يوم كنت ماشيا في حي من احياء مدينة حلب ، وهو حي كبير يؤدي الى سوق باعة الالبسة والاحذية ، فشاهدت احد الباعة وهو يصرخ بأعلى صوته عن بضاعته التي وضعها على كيس من أكياس القنب . وكان الناس حوله في ازدياد .. لقد استرخصوا ثمن الجوارب فأقبلوا على شرائها . اقتربت من البائع وتفرست في البضاعة فوجدتها بلا ماركة .. تساءلت بيني وبين نفسي عن اصلها فلم أظفر بجواب ، فأعدت السؤال مع البائع عن مصدر البضاعة فلم يرد .. فلما ألحفت عليه بالسؤال أجابني بغضب قائلا : « امش في طريقك اذا لم تشأ الشراء » . ولكنني اختلطت بالشراة وبحثت في اعماق البضاعة فعثرت على جورب لم تنزع منه كل ماركته .. وظهرت كلمة « فلسطين » بأحرف اجنبية .. وتأكدت ان البضاعة صهيونية مهربة .. اذ لو كانت عربية الصنع .. لكتبت بأحرف عربية على الاقل .. فما كان مني الا ان دفعت ثمن الجورب وهرعت الى أقرب مخفر .. كان ثمن الجورب كل ما في حوزتي « نصف ليرة » هي راسمالي كله . ودخلت المخفر بقنبازي البلدي وبأعوامي الثلاثة عشر ، تاركا مدرستي لعجز والدي عن تدبير الاقساط المدرسية في مدارس الحكومة فقد كان يومها العلم يباع حتى لامثالنا .. وبيدي وثيقة صهيونية مهربة .. ونظر الي رئيس المخفر ولم يشأ ان يجرح شعوري اول الامر .. فأرسل معي شرطيا الى مكان بيع الجوارب المهربة .. ولما اقتربنا من البائع وبضاعته كان الحال كما تركته : الجورب بنصف ليرة ، ونظيره بليرة في المحلات الاخرى ، وعامة الشعب تشتري دون ان تفطن الى اكثر من رخصه . وباختصار أدى الشرطي واجبه فأجبر البائع على حمل بضاعته الى المخفر وأنا معه .. لم يتركني الشرطي ادخل مع البائع الى رئيس المخفر .. ثم خرج الشرطي بعد دقائق وقال لي : اذهب انت ونحن نعرف شغلنا !!

ذهبت الى المنزل .. تغديت .. حدثت والدي ووالدتي بالامر .. فلم يأخذا للامر اهميته نصحاني بالابتعاد عن المداخلة في شؤون الاخرين .. والحكومة تعرف واجبها !

عدت عصر ذلك اليوم الى حي الجوارب المهربة ، فوجدت بائعها في مكانه وهو يبيع نفس البضاعة .. قال لي عندما رآني : « سوف أعلمك كيف تكون مفسدا » !! ولما هم بضربي هربت الى المخفر رأسا ، فتلقاني نفس الشرطي الذي ذهب معي اول مرة .. اخبرته بوعيد البائع اياي .. وكيف انه عاد لبيع البضاعة دون ان تصادر .. فنهرني بالكلام .. ثم خرج فجأة رئيس المخفر على صوته والشرر يقدح من عينيه .. وصرخ في بأعلى صوته : « اغرب عن وجهي .. سوف اسجنك اذا عدت ثانية » .

خرجت من المخفر .. وعيناي مملوءتان بالدموع .. وادركت بكل بساطة ، ان بائع الجوارب قد قدم لرئيس المخفر وثائقه التي لا تدحض !!

● لقد عرفت منذ ذلك اليوم ان مشكلة فلسطين هي مشكلة « الحكم » في كل بلد عربي .. وان واجب كل شعب عربي في كل بلد عربي ان يطور « الحكم » في بلده ليكون على مستوى القضية !!

« الواقعة الثانية » : اشتركت ذات عام في ندوة عن قضية فلسطين بمناسبة دخول الجيوش العربية اليها في الخامس عشر من ايار ١٩٤٨ ، وكان ترتيبي الخامس بين ثمانية محاضرين بينهم بعض المحاضرات . وقد جاء دوري بعد ثلاث ساعات من بدء الندوة التي انقلبت الى محاضرة ان لم اقل محاضرات !!

فقد تحدث الاول عن قضية فلسطين كلها ، وأوجز جهده ولكن ذلك استغرق ساعة كاملة . والقى الثاني — وكان شاعرا — ثلاث قصائد مطولة .. وتلت المحاضرة الثالثة نصف كتاب عبد الله التل عن قضية فلسطين ومؤامرات الخيانة ... الخ .. الخ ..

وصعدت المنبر .. ثم نزلت بعد ثلاث دقائق .. راويا للمستمعين قصة الزعيم سعد زغلول عندما كان

في منفاه بجزيرة سيشل وبعث لاصدقائه رسالة مطولة ذيلها بما معناه : « اعذروني لهذه الرسالة المطولة فلم يكن عندي الوقت الكافي لابعث لكم رسالة موجزة » !

ان الانسان يتكلم كثيرا اذا فكر قليلا .. والعكس صحيح . لقد تحدثنا كثيرا عن فلسطين .. والمشكلة على صعوبتها سهلة الحل ، اذا عرف العرب اسباب النكبة على حقيقتها ، وتلافوها في كل مخطط عمل جدي لاستعادتها .

● لقد خسرت الجيوش العربية السبعة معركة فلسطين لانها لم تكن جيشا واحدا !! وكان لنا جيش وحيد وموحد ولكن من « كلام » !!

« **الواقعة الثالثة** » : اثارت قضية مانكروفت اليهودي البريطاني وقائع جديدة بالارقام عن تجارة بريطانيا الخارجية مع العالم العربي واسرائيل .. ففي احصائية عربية بلغت مجموعة الصادرات البريطانية ما قيمته ٥٠٠ مليون جنيه يستوردها العالم العربي وحده . وفي احصائية صهيونية ان اسرائيل تستورد بما قيمته ٣٠ مليون جنيه فقط . اي بنسبة ١ من ١٦ .

وعلى هامش مؤتمر الذروة العربي المنعقد بالقاهرة من ١٣ — ١٧ ك٢ ١٩٦٤ وردت ارقام عن مجموع الودائع العربية في مصارف الغرب — وفي بريطانيا اكثرها — ٢٠٠٠ مليون جنيه . كما ورد ان الغرب يعتمد على البترول العربي بنسبة ٩٠ في المئة .

● لقد ضاعت فلسطين لان الامة العربية كانت خلال نصف القرن الحالي لا تعرف مصلحتها الحقيقية ولا تعرف من هم اعداؤها .. ومن هم اصدقاؤها . فلما فقدت فلسطين استفاقت من غفلة القرون . وفي يقيني ان الاعوام التي تلت عام النكبة حتى اليوم كانت في جانب القوة وليس في جانب الضعف المستمر الموروث ، فان الوعي العربي المتمثل في استقلال البلاد العربية كلها ما عدا المحميات ، وبناء الحياة العربية بناء اجتماعيا وسياسيا بشكل سليم سوف يزيد من اسباب القوة المادية العربية في معركة الغد .. واليوم تتفتح امامنا طرق الانتقام .. بالارقام والاسماء .. ولم يبق الا وضع القوة العربية الجديدة في خدمة هذه القضية المقدسة . لقد امضى اليهود خمسين عاما وهم يصنعون القوة اليهودية الجديدة في العالم في خدمة قضيتهم الى ان انشأوا اسرائيل في عام ١٩٤٨ . ولا بأس على العرب اذا امضوا.. ولو خمسين عاما لاستعادة الوطن السليب . فالشرط الاوحد ان لا يتوقف المد .

***

ان الدموع التي اهرقها مواطن عربي من حلب ذات يوم من عام ١٩٤٤ .. وكل الدموع التي اهرقها العرب من اجل فلسطين ... لن تنسى ، الا يوم تستبدل بابتسامة على مشارف تل أبيب .. ليس المهم ان تكون ابتسامة ذلك المواطن بالذات .. فلا بأس من ان تكون ابتسامة اي انسان عربي من هذا الجيل .. او الاجيال المقبلة !!

حلب — **علي بعور**

نكبة فلسطين

في الرواية العربية المعاصرة

بقلم صبري حافظ

الحديث عن الاصول التاريخية للنكبة الفلسطينية متشعب الجذور، وقد يدفعنا الغوص في متاهته الى الانصراف عن مخططنا الرئيسي الذي اعددناه لهذه الدراسة ... ان التاريخ الانساني لم يحمل لنا عبر اكثر عصوره ضراوة وبداءة وهمجية ، نكبة اشد مأساوية من نكبة فلسطين، ولم تعرف ايضا مأساة اشترك العالم باكمله في صياغة احداثها قبل النكبة الفلسطينية التي شارك العالم كله في تشكيل ابعادها ،وساهمت بلدانه المتحضرة ، كل بقدر ، في وضع لمساتها الاخيرة . فمما لا شك فيه اننا لا نستطيع ان نبرىء اي جزء من العالم من المشاركة في صياغة احداث هذه المأساة البشرية الضارية ، والتي وقعت تحت سمع العالم وبصره في منتصف القرن العشرين ... القرن المثقل ضميريا بعشرات المآسي ... مأساة ملايين البسطاء الذين تركوا ابناءهم نياما، وخرجوا في منتصف الليل ليقاتلوا في حربين عالميتين ولم يعودوا ... وعشرات الالاف من الادميين الذين اكلت الكائنات الصغيرة اللامرئية اجسادهم فخرجوا من تحت انقاض هيروشيما مشوهين ... هذا غير الذين لم يخرجوا ... وملايين الباحثين عن الطعام عبر ثورات الجوع المختلفة التي اجتاحت وجه هذا القرن ، واكثر من مليون انسان وطفل يطردون من بلدهم فلسطين ، ليرضعوا طوال خمسة عشر عاما ،الكراهية، والظلم ، وحلم العودة .. وعشرات الملايين من الذين لا يحصلون على حقوقهم الانسانية لان بشرتهم جاءت داكنة اكثر مما ينبغي .. و ... و ... وعشرات المآسي والاحداث التي تثقل ضمير قرننا . ولكن اي واحدة من هذه المآسي لم تبلغ ما بلغته المأساة الفلسطينية من ضراوة ولا انسانية ، تلك المأساة التي اثقلت ضمير عصرنا باكمله خلال السنوات العشرين الاخيرة . ومنذ بدأت اولى اعتداءات ((الهاجانا)) على الاهالي الوادعين في فلسطين ، حتى اليوم .. وغدا .. وبعد غد ، تمتد احداث اكبر مأساة بشرية يعيشها عصرنا .

والتحدي الوحيد الذي يقدمه اكداس اللاجئين الفلسطينيين اليوم هو تحدي المتسول ... تحدي الارقام الرهيبة التي تمتلىء بها سجلات وكالة الغوث ، السجلات التي يتحول فيها الانسان الى رقم .. الى شحاذ .. الى متسول .. فيقدم بذلك تحديا اكثر ضراوة من ذلك التحدي الذي تمتد به يد المتسول المبتورة لتجبرك على ان تدفع القرش ضريبة عن يدك السليمة ، لانه تحدي انسان فقد وطنه، انسان يجسد الضياع والجذور المنبتة واللاامل . وهذا التحدي ليس وليد موقف استسلامي او هروبي من الحياة ، ولكنه نتيجة صراع دام وبائس في الوقت نفسه ، صراع فقد فيه الانسان كرامته الانسانية ومن ثم اصبح عاجزا عن صنع شيء ، بعد ان تآكلت كرامته بين فكي الظروف القاتلة ، وبقي هو مجردا من كل شيء ، ومكدسا بالعشرات في خيام وكالة الغوث الممزقة في انتظار ان تدر اليد المبتورة خبزا يقدمه مبنى الوكالة الانيق . هذا هو التحدي الوحيد الذي يقدمه اللاجىء الفلسطيني اليوم ، تحدي انسان بلا كرامة لانه بلا وطن ، تحدي انسان تبددت كل قدراته الانسانية في صحراوات الضياع واللاامل ومن ثم اصبح عاجزا عن صنع شيء .. حتى صياغة مأساته فنا ... ولكن من المسؤول عن هذا ؟! .. اللاجىء الفلسطيني نفسه اولا واخيرا ، لقد فقد اللاجئون الشكل المجتمعي وتركوا وطنهم ليذوب نهائيا تحت ابصارهم الكليلة التي اعيتها الرغبة في العودة ، واكتسبوا بدلا منه شكلا تكدسيا جديدا ليس فيه باي حال ذرة من الانسانية ، وراحوا يستمرئون اناشيد العودة ، ويقابلون تسويفات هيئة الامم باستسلام مذل مرير ، بينما تحولت قضيتهم الى ورقة سياسية رابحة واكيدة المفعول في يد كل الحكومات العربية المتعاقبة (1) ، وظلوا هم طوال الستة عشر عاما الماضية شاهدا داميا على ضراوة المأساة الفلسطينية ... يتلقفون فتات المعونات الامريكية ، ويمضغون في صمت ، مع كل لقيماتهم الذليلة ، حلم العودة . بينما الجزائر على بعد خطوات منهم تقدم حلا من نوع اخر لمأساتها ، حلا ايجابيا فعالا ما يلبث ان يستدعي النصر .

***

وتركت سلبية التحدي هذه ظلالها على كل ملامح النكبة الفلسطينية، واستطاع العجز عن فعل اي شيء ان يعلن عن نفسه عبر كل سمة من سماتها . ومن اهم السمات التي تهمنا في هذه الدراسة والتي تستلفت النظر بحدة ، ان مأساة فلسطين لم تعط ادبا يتناسب مع اعماقها الثرية بالاسى ، وبالتالي لم تستطع هذه النكبة ان تطرح نفسها عالميا بالقدر الذي يتناسب مع تغلغلها الدامي في اعماق الضمير الانساني . ولم تتمكن من الوقوف بصلابة في وجه دوامات الدعاية الصهيونية المجنونة ، لانها لم تنجب فنا يتناسب مع اعماقها الثرية بالاسى ، بينما راح سعار الدعايات الصهيونية المجنونة يلتهم كل شيء ويطمس كل معالم المأساة . هذه الحقيقة الدامية تستلفت نظر اي باحث في الادب العربي .

فرغم ان نكبة الاحتلال النازي لفرنسا لم تستغرق سوى بضعة شهور ، الا ان الشعب الفرنسي قد استطاع ان يكتب خلال هذه النكبة صفحات شرف رائعة لانسان عصرنا ، اذ استطاع بجدارة وعبر جهوده المتعددة ان يستدعي النصر ، صحيح ان الظروف العالمية ساهمت الى درجة كبيرة في تحقيق هذا النصر ، الا ان الشعب الفرنسي استطاع ان يصوغ مأساته فنا استنهض الهمم للالتفاف حول فرق المقاومة ومؤازرة جهودها ، فظهرت كتابات فيركور واراجون وسارتر والزا تريوليه وبول ايلوار ، ورسوم بيكاسو وفيركور ، ومطبوعات منتصف الليل ، وغيرها . ظهرت كلها لتحمل خلال كلماتها زخم المأساة الفرنسية ، ولتستحث الشعب الفرنسي على المقاومة حتى ينقذ باريسه المقرورة الجائعة التي لم تعد تأكل القسطل في الشوارع – على حد تعبير

(1) نأمل ان تؤدي مقررات مؤتمر القمة الى تذويب كل اخطاء الماضي وبعث الكيان الفلسطيني ، والخروج بالقضية الى مجال اكثر رحابة وايجابية .

ايلوار - والتي فقدت وجهها السلامي الفرح لترتدي وجها كئيبا ذليلا منذ ان صحت ذات يوم لتجد نفسها جاثية تحت اقدام هتلر .واستطاع هذا الادب ان يقوم بدور فعال لتحقيق النصر لباريس ... باريس بودلير وبلزاك وزولا .

واستطاعت مأساة الشعب الجزائري ان تطرح نفسها بقوة خلال كتابات مالك حداد ومولود فرعون ومولود معمري ومحمد ديب ودريس الشرايبي وغيرهم (٢) ، تلك الكتابات التي حملت للعالم مأساة الاحتلال الفرنسي للجزائر واكدت له خرافية الرأي القائل بان الجزائر فرنسية ، خلال تعميقها للروح القومية وللحس الجزائري مما حقق النصر للجزائر ، جزائر مالك حداد ومحمد ديب ودريس الشرايبي. كذلك استطاعت مأساة الحرب الاهلية الاسبانية ان تهز ضمير العالم ، وان تعطي ليس ادبا اسبانيا فحسب ، وانما ادبا عالميا ايضا ، استطاعت هذه المأساة ان تعلن ارهاصات ميلادها في انتاج لوركا .. الطفل المرعب الذي صرعته فاشية فرانكو في هذه الحرب ، كما تركت بصماتها الدامية على الكثير من الادب العالمي وخاصة ادب همنجواي وخيمينز ورفائيل البرتو وانطونيو مخادو وغيرهم . واستطاعت مأساة الاوتوقراطية في الصين القديمة ان تعلن عن نفسها في اغلب اعمال الادباء الصينيين وفي اعمال غيرهم من الادباء العالميين وخاصة الامريكية بيرل باك .

رغم ان هذه المآسي كلها استطاعت ان تعطي ادبا حمل المأساة داخله وطاف بكل بلدان العالم يستجلب النصر ويستدعي الخلاص ، ويحمل عبر جزئياته دقائق هذه المآسي بكل ما فيها من بشاعة ولاانسانية، الا ان النكبة الفلسطينية لم تتمكن من انجاب ادب يحمل المأساة خلاله ويطوف بالعالم ليناهض دعايات الادب الصهيوني المضللة . ولا تعني كلماتنا تلك ان المأساة كانت عقيمة تماما ، فقد طرحت نفسها الى حد ما خلال الكثير من القصائد ، وعبر العديد من القصص القصيرة المبعثرة في المجموعات القصصية والمجلات ، وخلال عدد ضئيل من الروايات التي سنتعرض لها بعد قليل ، ولم يصبها العقم والاجداب التامين الا في مجال المسرح .

غير ان كل هذا الانتاج الادبي يتلاشى تماما امام طوفانات الانتاج الادبي الصهيوني الذي دعمت به الصهيونية حقها في اغتصاب فلسطين، فقد استطاعت الصهيونية العالمية ان تترك بصماتها على الكثير من الاداب العالمية ، ولا يمكننا ان ننسى التأثيرات اليهودية في اعمال جيمس جويس وخاصة في روايته (اوليسيوس) ، وغير جويس كثيرون (٣) ، هذا بالاضافة الى الكتاب اليهود الذين استطاعوا ان يغرقوا السوق العالمية بكتاباتهم منذ تيودور هيرتزل حتى يال دايان (٤) مرورا ببنامين دزرائيلي (٥) وجورج اليوت (٦) وارثر كوستلر (٧) وليون اوريس (٨) وغيرهم ، واستطاعت الرواية اليهودية ان تقدم مبررات لا معقولة عديدة لمجيء اليهود الى فلسطين وان تدعم واقعهم الراهن وان تستدر عطف العالم عليه ... فماذا قدمت الرواية العربية ؟! .

***

تنقسم الروايات العربية التي عبرت عن النكبة الفلسطينية الى قسمين ، القسم الاول وهو عبارة عن بثرات ظهرت على وجه المأساة ، وتشير هذه البثرات في الدرجة الاولى الى ان هناك مأساة تطالب بان تعالج على الصعيد الروائي ، كما تعبر دون شك عن رغبة في اثارة القضية ، رغبة طيبة النية بحق وان كان اصحابها يفتقرون الى جدية المعالجة الفنية . والقسم الثاني هو الاعمال التي ارتفعت الى مستوى النكبة .. صحيح ان النكبة اكبر بكثير من كافة هذه الاعمال الا ان غياب المعبر الحقيقي عنها ، وكثرة البثرات التي ظهرت كالطفح على وجه المأساة لتميعها قبل ان تعبر عنها بحق ، هما اللذان يمنحان هذه الاعمال قيمتها ، ولكن اطلاقية هذا الحكم تفمطها حقها ، فوراء كل واحد من الاعمال التي ارتفعت الى مستوى النكبة الى حد ما يكمن فنان بادواته وحسه ورهافته .

ونحب ان نقول بان الاعمال التي عبرت سريعا عن النكبة وقعت كلها في متاهات المباشرة والمعالجة الجلدية والتسطح الاجوف ، بينما استطاعت الاعمال التي ظهرت بعد اتضاح اعماق المأساة ونضوج ابعادها ان تتجنب هذه المتاهات وان ترتفع بحق الى مستوى النكبة . ذلك لان الرواية - على وجه الخصوص - من الاعمال الادبية التي تحتاج الى مسافة زمنية بينها وبين الاحداث التي تعبر عنها ، لان عدم توفر هذا البعد الزمني يقع بها في ضبابية الرؤية ومباشرة المعالجة . بينما لا تحتاج القصيدة الى هذه المسافة وكذلك القصة القصيرة ، لان المرتكز المحوري في كليهما هو اللحظة الانفعالية او الزمنية ، وليس البعد الزمني العريض كما هو الحال في الرواية .

ولقد وقعت روايات القسم الاول كلها في هذه الاخطاء ، ولم تنج واحدة منها من ارتفاع الصوت الذي يصاحب الخطابية والتعبير المباشر، وقد يكون هذا محتملا الى درجة ما في الشعر العمودي بصفة خاصة ، الا انه مستهجن تماما في الاعمال الروائية . ولم تستطع واحدة منها ان تتجنب الفخ المنصوب امام كل الاعمال التي تحمل داخلها قضية وطنية ، الا وهو اغفال الاهتمام بالجانب الانساني والحسي في العمل الفني ، حتى يتسنى التركيز على الجانب التاريخي والوطني به. بينما هذا الجانب الاساسي جزء لا يمكن فصله عن جوهر القضية الوطنية.. ولنترك المقدمات النظرية لنتناول الروايات ذاتها .

***

تحت القسم الاول تنضوي روايات اربع ... هي (طريق العودة)

---

(٢) استطاعت المأساة الجزائرية ان تنجب شعرا عربيا غزيرا ، وكذلك مسرحية شعرية (مأساة جميلة) لعبد الرحمن الشرقاوي .. هذا غير العديد من القصص القصيرة المتناثرة عبر سوريا ومصر والعراق ولبنان .

(٣) على سبيل المثال لا الحصر ، لورانس داريل ، وفرانز كافكا ، ومارسيل بروست ، وماري ماكارثي ، وهنري ميللر ..

(٤) كاتبة اسرائيلية شابة ، احدثت روايتها (طوبى للمرتعدين) ١٩٦٠ ضجة صهيونية عالمية .

(٥) دزرائيلي ، رئيس الوزارة البريطانية المعروف وصاحب رواية (دافيد الروي) ١٨٣٣ .

(٦) روائية يهودية وصاحبة (دايفيل ديروندا) ١٨٦٧ التي تعتبر اولى الروايات الناضجة عن اليهود ، وان كانت تنطلق بدءا من مغالطة اساسية ، الا انها استطاعت ان تكون حولها جيلا من الروائيين اليهود، وكرمتها اسرائيل فيما بعد واطلقت اسمها على واحد من اهم شوارع تل ابيب .

(٧) ارثر كوستلر روائي يهودي وصاحب رواية (لصوص في الليل) ١٩٤٥ .

(٨) ليون أوريس ، روائي يهودي ، صاحب الرواية التاريخية (اكسودس) ١٩٥٦ المليئة بالحديث عن تفوق اليهود العرقي .

ليوسف السباعي (٩) و (طريق فلسطين) لعلي ابو حيدر (١٠) و (دقت الساعة يا فلسطين) ليوسف سالم (١١) و (ارض الانبياء) لنجيب الكيلاني (١٢) . ولما كانت الروايات الاربع منقسمة هكذا ... روايتين لكاتبين مصريين ــ (طريق العودة) و (ارض الانبياء) ــ وروايتين لكاتبين فلسطينيين ــ (طريق فلسطين) و (دقت الساعة يا فلسطين) ــ فسوف نختار واحدة من كل قسم .

ولنبدأ برواية يوسف السباعي ... فبعد ان نمضي مع ابراهيم الضابط المهندس الفنان ((الذي يحترم نظم المجتمع وشرائعة ومبادئه وقيوده الخلقية)) (ص٣٠) في رحلته الهروبية الى الميدان ، فابراهيم لم يذهب الى الميدان مع خريف عام ١٩٤٨ ، من اجل التوق الى المشاركة في المعركة ، ولا رغبة في مواكبة المد الوطني وقتها ، ولكن هربا من لعنة ديونه بالقاهرة ، تلك الديون التي تراكمت عليه عقب فشل مشروعاته الهندسية ،فشله فيها لانه فنان .. ((الفنان يخلق من الهواء (١٣) .. الفنان يحتاج في خلقه الى السكينة والهدوء .. الفنان لا بد ان يسرح)) (ص١٢) بينما ((المقاول اذا سرح ضاع ماله ودك صرحه)) (ص١٣) .. هربا من هذا الفشل سافر الى المعركة املا في ان يحقق له مرتب الميدان المضاعف خلاصا من هذه اللعنة ، لقد ((كانت عملية تصفية وهروب واستجمام)) (ص١٥) وظلت كذلك حتى النهاية .

اذ لم يشارك ابراهيم بطل الرواية الرئيسي والذي يستدر الكاتب عطفنا على ازمته الساذجة في اي معركة حقيقية من المعارك العديدة المبعثرة عبر الصفحات .. حتى المعركة الاخيرة التي زج الكاتب ببطله في غمارها كنت تحس بانها معركة مزيفة واصيلة الافتعال وكذلك كانت مشاركته فيها . ورغم هذا يحاول الكاتب ــ واضعا هذه المسألة في وعيه باصرار ــ ان يستدر عطف القارىء على هذه الشخصية ، وقد يكون الكاتب حرا تماما في ان يعطف على الشخصية التي يحب،فطالما عطف كبار الفنانين في اعمالهم على شخصيات شاذة ومريضة ، ولكن عطف الكاتب على بطله هنا ينضح بفهم الكاتب المبتسر عن البطولة والاخلاق ، ومن هنا ولد اعتراضنا عليه . ذلك لان كل تصرفات ابراهيم المسربلة بالردية من البطولة والاخلاقية كانت غير جديرة ومن ثم غير متلائمة مع هذا الرداء . فقد تم هربه من فشل اسلوبه الرومانسي في معالجة الوقائع التي صادفته اثناء عمله كمهندس الى الميدان بطريقة رومانسية ايضا ، واستمرت الرومانسية هذه تتعقب خطاه حتى وهو في ارض المعركة ، ولا غرو فقد هيأ له الكاتب فردوسا صغيرا وسط حياة الميدان الكفاحية ، فردوسا لا يمكن ان نحس فيه بميدانية الموقف على الاطلاق . وقد كان باستطاعة الكاتب ان يصهر بطله الفارق في الاحلام الرومانسية حتى اذنيه في بوتقة حياة الميدان الضارية،وان يقابل بين رومانسيته وبين ضراوة الواقع وعنفه ، ليخرج لنا من عملية المقابلة هذه بعمل فني يحمل مأساوية الازمة في ثناياه .

الا ان الكاتب لم يفعل هذا ، بل ظل منساقا وراء رومانسية بطله انسياقا دفعه الى تهيئة جو رومانسي له في ارض المعركة وفي عزلة تامة عنها . فلا يمكننا ان نعتبره باي حال داخل المعركة ، رغم وجوده طوال الوقت بالقرب منها ، فقد عاش ابراهيم طوال الرواية في ذلك ((البيت الذي يقع على ربوة رملية تطل على الشاطىء ... والمحاط بحديقة تناثرت فيها بعض اشجار الموالح)) (ص٤١،٤٢) كما لو كان يعيش في اي مكان بعيد عن ارض المعركة ، يواصل خلافاته العادية السخيفة مع زوجته ، ثم يستمرىء حبه الساذج لليلى زوجة مراد ، ذلك الحب الذي نحت ابعاده من التوافق الفلافي بين الاثنين ، ومن تصيد اتفاقهما في تلك الاشياء اللامحية للغاية ، كأن يحب كل منهما فنجان الشاي باربع قطع من السكر ــ رغم لامعقولية هذا في حد ذاته ــ او ان يعشقا سويا اغنيات عبد الوهاب ...

ولو تمت هذه الاحداث كلها في مكان اخر لما حدث اي شيء ... ولكن الكاتب مصر تماما على ان يكتب رواية عن فلسطين ، دون ان يكون لديه الا المعرفة العامة بانواع الاسلحة واسماء الثكنات ، وبأن حربا دارت في تلك المنطقة عام ١٩٤٨ . ورغم كل هذا فهو مصر على ان تكون روايته عن فلسطين . ولهذا يدس بين احداثها بكلمات زاعقة تشير من بعيد ــ رغم علو صوتها ــ الى فضيحة الاسلحة الفاسدة دون ان تبحث بعمق حقيقة هذه الفضيحة او تحاول الوقوف على جذورها . ثم صورة شديدة التجريد للاجئة فلسطينية دفعتها المأساة الى ان تعمل (خادمة) لدى ابراهيم الفارق في قصة حبه الرومانسية الساذجة .

ولا ادري لماذا استقطبت قصة الحب الرومانسية هذه اغلب صفحات الرواية ، فاستطاعت بذلك ان تحتل المكان المحوري بها ،بينما افلتت الازمة المحورية الاساسية في الرواية من بين يدي الكاتب،فمسحة واجهة الاحداث لهذه العلاقة الرومانسية . ولم تتمكن الرواية بعد ذلك من ان تجعل لها محورا ثانويا في ازمة الجنود الذين يعيشون في صحراوات القتال بلا ذخيرة ، اذ كان العلاج الفني لهذه المأساة دون مستواها بكثير ، فقد تم عبر هتافات خطابية زاعقة لم تتمكن من تعميق الازمة في وجدان المتلقي بل مرت بها ، ومست اطرافها ،من بعيد .وقد جاء اهتمام الكاتب بهذه العلاقة ضمن اهتمامه بابراهيم ، تلك الشخصية الخاملة الذابلة التافهة ، بدعوى ان الفن هو الذي يحول الناس الى نماذج خائبة لا نفع يرتجى منها . ولهذا لن نحاول ان نحلل هذه العلاقة ولا ان نوضح للقارىء مدى تفاهتها وسطحيتها ، ولكننا سنحاول ان نتعقب خطى مراد رغم عدم تعاطف الكاتب معه ، ثم نهي التجريد الانساني للنكبة الفلسطينية كما يتصورها يوسف السباعي.ولنبدأ بمراد.

يقدمه لنا الكاتب منذ البداية بطريقة منفرة ... ((كان جسورا مندفعا ... مستهترا .. لا يقيم وزنا للشكليات الخلقية او القيم الموضوعية .. المهم ان يصل الى ما يريد باسرع الطرق .. وايسر الوسائل)) (ص٢٦،٢٧) ... كذا .. مرة واحدة هذا السيل من الكلمات الانشائية ... ولكن انتظر فسوف يقذف الكاتب في الصفحة التالية مباشرة كل صفاته الجسدية في وجهك مرة واحدة بعد ان قذف بالخلقية ، وبنفس الطريقة الانشائية ... وذلك حتى (تكتمل) الصورة ((الجسد العريض القوي ، والقوام الربعة .. والقميص المفتوح الذي يبرز منه شعر صدره المشعث ... والاكمام المشمرة التي تكشف عن عضلات ساعديه ، وشاربه الاصفر المنكوش تحت انفه كأنه شواشي الذرة .. او كأنه فيونكه صفراء في وجه قطة ... وصوته المرتفع وضحكته العالية الصافية)) (ص٢٨) ... لا بد ان الصورة قد اكتملت الان .. وحتى تتضح بقية ابعادها فلا بد ان تعرف انه سكير وزان وشاذ السلوك ويعامل زوجته بطريقة لا انسانية ، ويضرب عباد الله بسبب وبلا سبب .

هذا في الوقت الذي يحظى فيه ابراهيم باحترام الكاتب ورغبته في تبرير كل سلوكه ... ولكننا سنتغاضى قليلا عن هذا الموقف المسبق الذي يدفعنا الكاتب لان نقفه من مراد .. لنغوص معه في المقلاة ــ على حد تعبير غسان كنفاني ــ ولنفتح اعيننا على واقعه الدامي المرير ،حيث يقف وسط المعركة بلا عتاد ولا عدة ، تقتال الامكانيات العاجزة جنوده واحدا تلو الاخر ، امام عينيه ، وهو عاجز عن فعل شيء .. اللهم الا معاقرة مأساته مع كؤوس الويسكي القليلة . وتبلغ مأساته ذروتها في الفصول الثلاثة التي دارت خلالها معركة التبة ٨٦ ... ففي هذه الفصول الثلاثة يمكنك ان تحس بان الرواية حية ونابضة بالحركة ، ربما لان يوسف السباعي كان ضابطا وله ــ الى حد ما ــ خبرة حسية باعمال القتال ، وربما لمأساوية الموقف الذي يحارب فيه جنود بدبابات بلا بطاريات ومدافع بلا ذخيرة ، وربما لاي شيء اخر ، ولكن بعد هذه

(٩) الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، يناير ١٩٥٨ .

(١٠) دار الحكمة للتأليف والترجمة والنشر ، بيروت،١٩٥٩تقريبا.

(١١) دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

(١٢) الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، نوفمبر ١٩٦٣ .

(١٣) ليس هنا مجال مناقشة مفهوم الكاتب عن الفن والفنان .

الفصول الثلاثة تعود الرواية الى سابق برودتها ورتابتها ، ويبدأ الصدق الفني والواقعي في التخلي عن جزئياتها ، لتضرب من جديد في سراديب المباشرة والسطحية .

فبعد انتهاء هذه المعركة حاول مراد ان يدفن انصعاقه عقب هذا الانتصار الدامي او الهزيمة المنتصرة التي سفرت عنها المعركةفي احضان ريتا – عشيقته – فاذا بالكاتب يهدم السياق السليم للقصة امام رغبته في الوعظ الاخلاقي ، وامام تلك الصدفة الغبية .. صدفة عدم وجود ريتا وسفرها في هذا اليوم بالذات ... وكان من ضرورة السياق الفني الصحيح للقصة ، ان يجدها حتى يدفن في احضانها هزيمته المنتصرة ، بدلا من لقائه بحامل النياشين الذي يخبره بان لا نيشانله، رغم انه المستحق الوحيد لاي وسام يمنح من اجل هذا النصر الذي تحقق على حطامه ، فيزيد بذلك من تعقيد الموقف ، ثم ما يلبثالكاتب ان يدرك وعورة المنزلق الذي دفع ببطله فيه ، فلا يكون المخرج منه سوى دفن المأساة في غيبوبة الخمر وهذيانها ، مما ميع قضية المعركة رغم كل ابعادها المأساوية ... ذلك لان كل شيء يمكن حله – من وجهة نظر الكاتب – ببعض الكلمات التي يلقيها بعد كل مأساة .. « عجبا لحياتنا ... تلقي بنا في لخبطة عابثة .. بلا توليف .. ولا ترتيب .. فتضيع طاقاتنا .. وتتركنا مجرد خردة » (ص٢٨٩) ...

ورغم كل هذا يمكننا ان نحس بغوص مراد في القلاة طوال هذه المعارك . انه يغوص فيها بروح المحارب المشحون توقا لتحقيق النصر.. ومن خلال غوصه في هذه المعارك نحس بالظروف الجديبة التي كانت تعيشها جيوشنا خلال الحرب الفلسطينية ومن ثم ندرك لماذا رافقت الهزيمة خطواتها ... غير ان الكاتب يضن على مراد – رغم مشاركته الفعالة في المعركة – باي تعاطف ، بينما يستمر في مواصلة تعاطفه مع ابراهيم حتى يمنحه في نهاية الرواية استشهادا مزيفا . ويترك مراد جريحا في المستشفى .. ليذهب بزوجته الى مقبرة ابراهيم في الغفير ... حتى تذرف على رفاته دمعات حب ... بينما نهى في مكان اخر تمجد بطولته . ولا ادري حتى الان لماذا يصر يوسف السباعي على هذا المفهوم المقلوب لمعنى البطولة ، فيمنحها للشخصية الخاملة ويضن بها على الشخصية الايجابية الفعالة .

بعد هذا ... ننتقل الى نهى ، الفتاة الفلسطينية التي اراد يوسف السباعي – بنية طيبة وسليمة – ان يجسد من خلالها تمزق فلسطين وضياعها ، ولكنه للاسف ، ورغم سلامة طويته ، فشل في هذه ايضا ، اذ جاءت نهى صورة باهتة شديدة التجريد للاجئة الفلسطينية . فقد جسد يوسف السباعي قمة ازمتها في طوفانها شاردة عبر صحراوات الشروق ... وفي يقظتها المبكرة لانتظار شروق الشمس حتى تدعو الله بالعودة الى وطنها ، وتشي له برغبتها في ان يكون الشروق التالي هناك ... في فلسطين . غير ان ضراعاتها هذه ما تلبث ان ترتمي عاجزة امام عنف الواقع الذي ينضح يأسا ... يأس من النصر الذي تلوح بشائر الهزيمة راكضة على اشلائه ... ويأس من الوطن الذييلوح طريق العودة اليه باهتا ولامرئيا .. ويأس من الحب .. ولنتفرس ملامح هذا الحب قليلا .

فقد جاء هذا الحب ضمن اطار رغبة الكاتب الافتعالية في استدعاء تعاطف القارىء مع ابراهيم ... وكان من الضروري ان يكون هذا الحب يائسا ، لا لشيء الا لان جذوره تضرب من البداية في صحراوات اليأس ، الذي يلوح لنهى خلال علاقة الحب الرومانسية الواضحة بين ابراهيم وليلى بمناديله القاسية السوداء ، كما ينحت هذا اليأس ملامحه في الوقت نفسه من وضع نهى الاجتماعي ، فهي ليست سوى خادمة وابراهيم سيدها ، خادمة دفعتها تلك الظروف الضارية الى الارتماء تحت اقدامه . وقد كان ممكنا لو ان الرواية كانت على درجة من الفنية والتماسك ان نهب هذه العلاقة وجها رمزيا يمتاح بها حدود التفسير الحرفي ، ذلك لانه كان باستطاعة حب نهى لابراهيم – لو لم يكن الاخير على هذه الدرجة من الخمول والغثاثة – ان ينال وجها شموليا رائعا ، فيصبح انعكاسا لتدله البلد الممزق فيهوى البلد المنقذ ، ومن هنا يجيء يأس هذا الحب وعدميته ، فقد كان التمزق هو الاخر ينخر اعماق البلد المنقذ ، ويستل كل شروط الحياة السليمة منه . ولكن القول بهذه الفكرة هنا ، يكون بمثابة الالقاءبعباءة فضفاضة للغاية على جسد شديد الهزال ، خاصة وان الكاتب لم يركز على هذه العلاقة بالدرجة التي تبيح لنا اضفاء هذه الفكرة على روايته، ولو توفرت لهذه الفكرة وحدها الخلفية الفلسفية ، والطاقة الفنية الفاهمة لطبيعة عملها لامكن لها ان تشكل محورا اساسيا تدور حوله كافة الاحداث الروائية ... ولكن الكاتب لم يقدم خلال هذا النموذج – نهى – الذي كان يمكن اتخامه بالثراء الفني ، سوى بعض التلميحات الهزيلة عن الضياع والتمزق والامل .. مع العديد من الاشارات الى توقه لرسم طريق ... طريق للعودة كما يعلن عنوان الرواية .. ولكن للاسف .. لم يرسم هذا الطريق ... لا عبر احداث الرواية .. ولا حتى في خيال نهى الشاردة بحثا عنه .. لكل هذا يمكننا ان نقول بارتياح ان الرواية لم تتمكن جملة من الارتفاع الى مستوى المأساة ، او حمل ابعادها داخل جزئياتها .

★★★

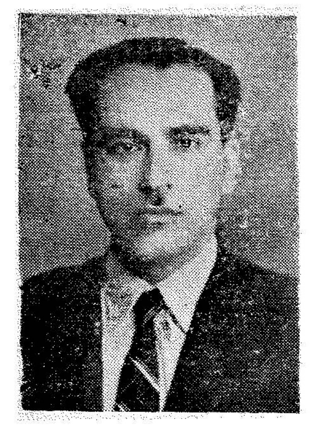
ورغم انه ما زالت هناك ملاحظات عديدة حول (طريق العودة) الا اننا سنكتفي بهذا القدر لنتحدث عن رواية الكاتب الفلسطيني علي ابو حيدر ... وهو الاخر يضع كلمة الطريق ضمن عنوان روايته (طريق فلسطين) .. فهل رسمت الرواية حقا معالم الطريق الى فلسطين ؟... من البداية نستطيع ان نقول لا ... وان كانت قد برقت عبر جزئياتها اشارة سريعة اليه من خلال توحده بطريق الامة العربية كلها ، ومن خلال مزاوجة الكاتب بين مصير الحركات التحررية في البلاد العربية وبين مصير الوطن الفلسطيني . وقد عجزت الرواية عن رسم طريق لفلسطين ، كما يعلن عنوانها ، لا علي ابو حيدر كان يفتقد الكثير ، واهم ما كان يفتقده الى جانب الحس الفني في معاقرة التجربة ، هو المعرفة النوعية العميقة بجزئيات المأساة ، وبملامحها الفردية المتميزة ، فرغم انه يستطيع التعلل بمعايشته الحقيقية لها على الصعيد الواقعي لانه واحد من مواليد المأساة .. فقد فتح عينيه ذات صباح ليجد بلاده جاثية تحت اقدام الغزاة .. بل مستسلمة لهم تماما . الا انه لم يتمكن في روايته تلك من ان ينقل لنا ابعاد المأساة او يثير تعاطفنا عليها . ولم يستطع ان يقدم لنا ملامح خاصة وفردية لها ، اذ ان كل ما دار في الرواية يمكن ان ينطبق بيسر على اي مأساة وطنية ، وبالتالي فان هذا لا يبلور ابعاد القضية او يوضح ملامحها .

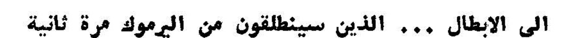
والسبب في ذلك يرجع الى وقوعه من البداية في وهاد الخطابية ... والى اهتمامه بالاحداث الهامشية بها ، ولنبدأ بمسألة الخطابية.. فانطلاقا من رغبة الكاتب في ان يؤكد لنا توق كل فلسطيني لتحرير بلاده، قدم لنا اغلب شخصيات قصته ، التي تدور حول ذهاب زوجي الاختين مريم وسلمى الى ميدان القتال ، في صورة تجريدية شاحبة خلال رغبته في اسدال اردية فضفاضة من الوطنية عليها . وقد ساهم في تجريد الشخصيات وتوضيح شحوبها صخب الفترة التاريخية التي دارت خلالها احداث الرواية ، حيث ازدهر الاهتمام بالقضية الفلسطينية ، واخذت ملامحها في التبلور بعد ثورة البراق في اغسطس عام ١٩٢٩ وبعد ان بدأت حرب العصابات تغطي وجه الارض الفلسطينية منذ ان اعلن الشيخ عز الدين القسام اشارة الانطلاق عام ١٩٣٤ ... في هذه الفترة كانت ترزح بلدان الشام العربية تحت نير الاستعمار الفرنسي ، وكانت الرغبة الحادة في مقاومة الغزاة من الفرنسيين واليهود قد وحدت بين الصفوف العربية ، واستطاعت ان تفجر من حادثة صغيرة – رغبة اليهود في اعادة بناء هيكل سليمان مكان حائط المبكى – كافة مراجل الغضب وطوفاناته ، وان تصبغ وجه الفترة بلون دموي صاخب، وان توحد بين مصير الحركات الجماهيرية العربية ، فنجد مصطفى البراق يقود المظاهرات في دمشق اليوم بينما يتوجه صباح الغد الى ميدان القتال في فلسطين .

— التتمة على الصفحة ٦٣ —

خالد ... أو «يوم اليرموك»

مسرحية بقلم خليل الهنداوي





الاشخـاص

خالد بن الوليد	ابـو عبيدة
عمرو بن العاص	يـزيد
المثنـى	
رافـع	الرسـول

●

(المشهـد الاول)

خالد ـ عمرو بن العاص

خالد ـ أرأيت ان الخلاف كاد يعيد العرب احزابا وطوائف وقبائل كما كانوا قبل الاسلام ؟

عمرو ـ لولا حكمة ابي بكر حين ارضى المهاجرين والانصار .

خالد ـ ان الفتنة لا تزال نائمة .

عمرو ـ لا يزال العرب بخير وقوة ما دامت الفتنة نائمة فيهم .

خالد ـ صدق الله العظيم (ولا تفرقوا فتذهب ريحكم) . ان قوتنا في اجتماعنا . ان هذه الصحراء العجيبة لا تستطيع ان تهتز بالحياة الا اذا تكتلت رمالها ، وتساندت كثبانها .

عمرو ـ ان فيها الكثيب الذي يهدي ، والسراب الذي يضل .

خالد ـ ويل لمن اراد بهذه الامة الضلال بعد الهدى .

عمرو ـ اني لا ازال اخشى الفتنة ، واخاف على هذا البناء ان يتزلزل.

خالد ـ لا تخش اذى من آمن بالله ، واخلص للعرب .

عمرو ـ الكل مؤمنون ... ولكن .

خالد ـ لن يجتمع اخلاص وفتنة .

عمرو ـ ان امامنا اياما لا تقل هولا عن ايامنا الاولى ... لقد كـان الرسول نورا يستضاء به . والان انطفأ بموته هذا النور .

خالد ـ ويحك . ان نوره محيط بي من كل مكان . كأني اسمعه الان يقول لي (انك سيف الله المسلول) اما والله لن يخيب ظنه في ابدا . ان هذا السيف لن يغمده الا الردى ...

عمرو ـ بورك بك يا خالد . يا بطلا لم يعرف الهزيمة في جاهليـة ولا اسلام ...

خالد ـ الا في موطن واحد .

عمرو ـ في موطن واحد ... نعم ، لقد تذكرت ... ولكن هل تعتبـر ذلك هزيمة .. ؟

خالد ـ كان علي ان اقاتل حتى اموت ... ولكني خشيت على رجالي، وقلت لعل الله ينفع بهم العرب في غير موضع ...

عمرو ـ ذلك يوم مؤتة .

خالد ـ اه . يا لي من يوم مؤتة! .. ان ذكرها ليحز في نفسي ...

عمرو ـ الا تزال تذكر ذلك اليوم ؟

خالد ـ لقد كنت في جيش زيد بن حارثة مقاتلا ، ولم اكن اميرا ... لقد كنا في ثلاثة الاف ، وكان الروم في مئة الف ... وجدنـا فيهم جيشا على غير مثال الجيوش ، في تعبئة لا عهد لنا بها. على اننا لم ننثن عن قتالهم خوفا ... بل قاتلناهم ...

عمرو ـ انها جراة ما بعدها جراة ...

خالد ـ قد استعر القتل فينا وفيهم ... لقد رأيت زيدا يقاتل حتى داسته الخيل ... وغابت جثته .. فامتشق جعفر الراية مـن بعده ... فسبحت خيلنا وراءه ... كأني اراك يا جعفر حـين انقطعت يدك اليمنى تضم الراية بيسراك ، وحين انبترت اليسرى احتضنتها بصدرك ... اما والله ان راية يحميها اصحـابها بالصدور لا يمكن ان تطوى ... تقدم عبد الله بن رواحة وهـو يرتجز ... انتشل الراية ... وخاض المعركة ... سقط عبدالله ولم يعد هنالك قائد ... ابن خالد . خالد ؟ ماذا انت صانع ؟ علقت الراية بالرمح ، واخذت انكمش عن العدو شيئا فشيئا ... واذا هي النجاة ببقية الرجال . واذا ببقية تسعة سيوف في يدي.

عمرو ـ يا لله . ما اعرفك بالمعارك يا خالد !

خالد ـ لقد تمرست بها صغيرا ، وخضتها كبيرا . حرصت على الدماء ان تهدر عبثا . ان القوة لا يصدها الا القوة ...

عمرو ـ وماذا قال لك الرسول بعد ذلك اليوم ؟

خالد ـ لقد كان كريم النفس علينا ... اراد ان يخفف من خيبتنـا ، فاكرمنا بدعائه ، وحين رأى صبية المدينة يحثوننا بالتراب ، ويتصايحون علينا ... (هؤلاء هم الفرّار) ... قال لا ... ليسوا هم بالفرار ... ولكنهم الكرّار ... نعم ، ان من الهزيمة ما يعد انتصارا ... ولكني اريد ان انتقم لذلك اليوم من الروم .

عمرو ـ اتحسب الروم قبيلة من القبائل تأخذها بياتا ؟ او على حين غرة؟

خالد ـ لا والله ما آخذهم الا وهم ينظرون . ان ذلك اليوم علمني الشيء الكثير من فنون قتالهم وتعبئتهم ... اعطني جيشا اعطك نصرا .

عمرو ـ انك محارب حقيقي لا تنام على ضيم ، ولا يهدأ جنبك علـى الهزيمة . ولكن هل تحقق لك الاحداث ما تتمنى ؟

خالد ـ وهل في الاحداث اليوم ما يمنع ؟

عمرو ـ ان العرب الان ليسوا على وحدة تامة ... فيهم المؤمنون حق الايمان ، وفيهم من لبسوا الايمان لباسا ظاهرا تحقيقا لبعـض المآرب . فاذا لم تكن الجزيرة متحدة الغاية ، مجموعة الكلمة لم يكن لها قوة الخروج من رمالها .

خالد ـ اواه . اتشغلهم المسائل البسيطة ؟ وتصرفهم الاغراض الحقيرة عن تحقيق المثل الاعلى الذي خطه الرسول للعرب ؟ يريدون ان نعود قبائل يضرب بعضنا بعضا في خصومات لا تنتهي ؟ ولكن ... قد توحدت الجزيرة ... فالويل لمن يريد ان يعيدها الى الشقاق.

عمرو ـ هم كثيرون من لا يقدرون ان يعيشوا الا في الشقاق .

خالد ـ ويل لامهم . ما قيمة الحياة الطيبة اذا كانت الى ذل ؟

عمرو ـ هذه نفسك يا خالد . ليت كل النفوس تشعر كما تشعر .

خالد ـ ايصدق ما زعموه من ان بعض القبائل تظاهرت بالثورة علـى الخلافـة ؟

عمرو ـ بل هو الحق ...

خالد ـ اذا . ان ابا بكر قادم على امر عظيم ...
عمرو ـ لا يعلم الاالله منتهاه ... فاذا صمد لهؤلاء سلمت الجزيرة من الفتنة والخلاف ... واذا لان لهم عدنا الى شر مما كنا عليه ..
خالد ـ رباه . اين نذهب يا عمرو ؟ اين الاقي الروم غدا ؟ كيف نحرر اهلنا واخواننا من نير الروم في العراق والشام ومصر ؟
عمرو ـ حتى تسلم الجزيرة من شر هؤلاء ...
خالد ـ الجزيرة ـ يا عمرو ـ معقل العربي الذي لا يؤخذ ... كم جرب الروم والفرس اقتحام هذا المعقل بقواتهم فاخفقوا ؟ ..
عمرو ـ ولكنهم اقتحموه بعون ابنائه انفسهم ... ان خلافنا وحده يكفي ان يجعل الجزيرة خاضعة لارادتهم .
خالد ـ لن يكون هنالك خلاف ، كما لن يكون بعد اليوم روم في ارض الشام ، ولا فرس في ارض العراق ... ان رمال الصحراء تنتظر الريح العاصفة لتحملها امواجا على هذه الاقطار وتطهرها من ادناس الفرس والروم ...
ان العرب هنالك ينتظرون ورودنا .
عمرو ـ ولكن كيف نرد ؟ ونحن طوائف غير متحدة .
خالد ـ ان هؤلاء الذين ارتدوا عن ميثاقهم سنحاربهم قبل ان نحارب العدو خارج الجزيرة .
عمرو ـ هذا يعود الى عزم ابي بكر .
خالد ـ انني اعرف ابا بكر. هو لا يعرف الحلم واللين في هذا الموضع ... كأني ارى الرجال والرايات يحشدهم اليوم او غدا لقتل هذه الفتنة التي ايقظها رجال السوء .
عمرو ـ ان الحزم وحده ينقذ العرب من الخطب .
(يدخل المثنى)
المثنى ـ سلام الله عليكما ... انت هنا يا خالد .
خالد ـ ممن مقدمك ؟
المثنى ـ من عند ابي بكر .
عمرو ـ كيف وجدته ؟
المثنى ـ ما وجدته يوما اشدحزما ، واقوى عزما . لقد جاءته الاخبار بانتقاض اهل الردة . فما زاده ذلك الا قسوة عليهم ...
عمرو ـ ايريد قتالهم ؟
المثنى ـ لقد حول الجيوش التي جمعها لغزو العراق والشام اليهم ، ولا يزال يقاتلهم حتى يفيئوا الى امر الله .
خالد ـ الم اقل لك يا عمرو انني اعرف ابا بكر ؟
المثنى ـ وقد وقع اختياره عليك يا خالد .
خالد ـ وددت ان سيفي لن يخضب بعد اليوم بدماء اخواننا ... ولكن ... ولكم في القصاص حياة ... ان ريشة خالد لا تريد ان تختال زهوا بين العرب ... انها تريد ان تختال على ارض الروم.
المثنى ـ وسننحدر بعد ذلك معا الى ارض الحيرة .. اتماما لوقعة (ذي قار) .
خالد ـ (ذي قار) يا له من اغر اشعر العرب بضرورة اتحادهم امام زهو الاجنبي وطمعه . ان الرجل الذي انبتته الصحراء حرا طليقا كرمالها لا يستطيع الحياة محدودا مقيدا .
عمرو ـ اتظنان ان العرب ـ هنالك ـ سينضمون اليكما ؟
خالد ـ ان كل عربي يجري في دمه الدم العربي سيحن الى الراية العربية حين يراها تخفق فوق اخوان له من العرب ... العربي لا يقاتل اخاه الا مضطرا ، او طامعا في مغنم . انه ليؤثر ان يرد سيفه الى جنبه على ان يغمده في جنب اخيه . سيلاقينا العرب في كل مكان لقاء الاخ لاخيه . وسنعاملهم معاملة الاخ لاخيه... اننا اخوان مشردون ، والان دقت ساعة اللقاء والمعرفة . فويل
عمرو ـ انه لثار (مؤتة) يهتز في عطفيك ...
خالد ـ انتظر يا عمرو . وكأنما قد اطلت على البلاد العربية غدا خيلنا ورجلنا .

المثنى ـ تركت ابا بكر يقول ـ لو خذلني الناس كلهم لجاهدتهم بنفسي .
خالد ـ وانا معه في جهاده .
المثنى ـ تركته يتقلد سيفه ، ويخرج وحده ...
خالد ـ فداك نفسي ، يا خليفة رسول الله . لن تكون في جهادك وحدك ... ولن يكون سيفك وحده . وانما هو سيف على سيوف ...
المثنى ـ انظرا معي . ها هي الطلائع ...
خالد ـ ان كلمة ابي بكر لا تزال ترن في اذني (احرص على الموت توهب لك الحياة) . فيم الانتظار ؟ وقد تقدمنا اهل السابقة من المهاجرين والانصار ...

(المشهد الثاني)

(خالد ، المثنى ، رافع : في ارض الحيرة)

خالد ـ كم بيننا وبين اهلنا من مرحل؟
المثنى ـ أسأما يا ابا سليمان . ان ارض الحيرة لا تسأم .
خالد ـ كأن الفرس لا يريدون ان يدخلوا معنا معركة حاسمة ، كأن الامر لا يهمهم .
المثنى ـ لم يدركوا خطرنا ، وانما هم يحسبون اننا كغيرنا من السرايا التي تعودت ان تعيث فسادا على الحدود .
خالد ـ ليتني ادري ما هي ارض الشام .
المثنى ـ دائما نحملك الهواجس الى ارض الشام . اليس في ارض الحيرة ما يجعل جهادك مرضيا ؟
خالد ـ انني ادرك ان ليس هنا مجدي ... اجل . ليست مصاولة الفرس بافل خطبا من مصاولة الروم ... لكن لي ثأرا مع رجال الروم ... ولكن لا يزال معي سيف واحد اريد ان اجرب به قهر هذه الصخرة ...
المثنى ـ انك لا تنسى ثأرك يا خالد .
خالد ـ بل قل هدنتي ... انها هدنة بيني وبينهم ... اقسمت انني عائد اليهم ، وساعود . لقد ارجعت اهل الردة عن ردتهم ... ونكلت بكل ناكث للعهد ... فالصحراء الان مستعدة للقتال ...
المثنى ـ انني اعلم ان ابا بكر ارسل خيار الامراء الى ارض الشام . وهم الان يستقبلون دمشق بوجوههم ، ويستدبرون الصحراء...
خالد ـ واشفغي الى ان اكون محاربا في هذه الحملة . انني اعرف الناس بالروم ، وارض الشام .
المثنى ـ وما يدريك انك تدعى الى ارض الشام ما دام هواك فيها .
خالد ـ انني انتظر ...
المثنى ـ والى من تكل امر جندك ؟
خالد ـ اليك يا مثنى. فانك خير من يعتمد عليك .
المثنى ـ وكأني ارى قادة الشام يطلبون النجدة . لان الروم اكثر اهتماما بثورتنا ... ولذلك حشدوا كل قواتهم من اقصى بلادهم الى ادناها ... فهم في العدد والكثرة ، ونحن في القلة .
خالد ـ ويحك يا مثنى . انسيت قوله تعالى (وكم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة باذن الله) .
المثنى ـ ولكن انسيت اننا نتنازع اعظم الدول بطشا ، الفرس في الشرق، والروم في الغرب ...
خالد ـ ولذلك ينبغي لنا ان نبادر الواحدة قبل الثانية . الفرس يستمهلوننا ، بل لعلهم لا يبالون بنا ، بعد ما رأوا شغلنا بالروم عنهم . انهم يحاربوننا بعرب الحيرة ، وقد رأيت ان اكثر عرب الحيرة قد انضموا الينا ، الا خائفا يترقب ، او راجيا يتأمل . اما الروم فقد تهيأوا لنا ...
صوت ـ (البريد ... بريد المدينة ... بريد امير المؤمنين ...) .
(يطل رافع)
خالد ـ ان قلبي يحدثني بنبأ عظيم .
هذا انت يا رافع !

رافع ـ سلام الله عليكما .
خالد ـ وما عسى يحمل الينا بريدك اليوم ؟
رافع ـ رسالة خاصة من امين المؤمنين اليك ...
خالد ـ الي ؟ وكيف حال الامير ؟
رافع ـ انه في قلق على الحملة في الشام ...
المثنى ـ احقا بدأت المعارك ؟
رافع ـ لم تبدأ ... لكن الروم يحتشدون بجيش كبير ، وجندنا يخشون ضيقا ... تركتهم يستنجدون ...
خالد ـ هذا كتاب امير المؤمنين ... اقرأه علي يا رافع .
رافع ـ (يفض الرسالة)
من عبد الله بن ابي قحافة الى خالد بن الوليد .
(سلام الله عليك ، توجه لتوك من ارض الحيرة الى ارض الشام بنصف من معك ، واترك على النصف الاخر المثنى بن حارثة ، وقد وليتك على الجند ، واستعملتك على الشام . اتمم يتم الله عليك ، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ، واياك ان تدل بعمل. لا تهدموا صومعة . ولا تحرقوا زرعا ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة . ولا تقتلوا شيخا كبيرا ، ولا صبيا صغيرا . وستجدون اقواما حبسوا انفسهم للذي حبسوها ، فذروهم وما حبسوا انفسهم له والسلام عليك ...)
المثنى ـ اترى ان احداثا عظيمة تنتظرك ؟
رافع ـ ليس لها سواك يا خالد . ان الروم جاءوا بخيلهم ورجلهم ، يريدون ان يردوا الصحراء الى محابسها .
خالد ـ هذا يوم كيوم مؤتة .. ومن هناك من امراء العرب ؟
رافع ـ سترى ابا عبيدة ، وعمرو بن العاص ، ويزيد بن ابي سفيان ، وشرحبيل بن حسنه ... وسترى سواهم من اهل السابقة من المهاجرين والانصار ... سترى ابطال بدر ، واحد . وليس منهم الا من باع نفسه رخيصة لهذا اليوم .
خالد ـ البريد . يا رافع . ان كل خطوة نسرع بها تقرب النصر . كم بيننا وبين ارض الشام ؟
رافع ـ فلوات ومفاوز وطرق محفوفة بالاخطار .
خالد ـ اريد اقصرها واقلها خطرا .
المثنى ـ في الطرق المعبدة حصون متفرقة اقام فيها الروم حراسا يحمونها .
خالد ـ ما علي الا ان اتخطى هذه الطرق . ليس لي شأن والروم عليها. اريد طريقا اخرج فيه من وراء الروم . هل تعلمان مثل هذا الطريق؟
رافع ـ لا اعرف الا طريقا لا يحمل الجيش . واخاف اذا سلكته ان تفرر بنفسك وبجيشك ...
خالد ـ لا يضعفن يقينك . ان المعونة تاتي على قدر النية ...
رافع ـ اذا كان لا بد من سلوك هذا الطريق ، فاسلك المفازة وحدك ان كنت فاعلا ، وخلف الاثقال بعدك .
خالد ـ لا بد من ان نكون جميعا .
رافع ـ ان الراكب المنفرد ليخافها على نفسه . وما يسلكها الا مغرر مخاطر بنفسه ، فكيف انت بمن معك ؟
خالد ـ لا بد من ذلك ... ان خطتي لا تنجح الا بقدر ما تضمن لي من السرعة .
رافع ـ هنالك طريق سلكته فقط مرة واحدة مع ابي وانا غلام ...
خالد ـ هل تحفظ معالمه ؟
رافع ـ انه يخترق جوف الصحراء... ويوفر عليك نصف المسافة . حتى اذا انتهيت منه جئت وراء الروم من حيث لا يشعرون .
خالد ـ هذا هو القصد يا رافع . كيف لي بسلوكه ؟
رافع ـ ابغني عشرين ناقة عظيمة . اظمئهن واسقيهن . ثم احزم على مشافرهن . ثم سر بالخيول والاثقال ، فكلما نزلت منزلا نحرت منها واحدة ، ثم اخذت ما في بطونها من الماء ، فسقيت الخيل، وشرب الناس مما تزودوا ... وهكذا حتى تبلغ شجرة عوسج على ظهر الطريق بعد عشرة ايام ... وهناك الماء والنجاة .
خالد ـ ما ابصرك يا رافع بالمفازة ؟ أأنت على يقين من ذلك ؟ أتكون معنا؟
رافع ـ على هداية الله .
خالد ـ (للمثنى) لنقسم الجند ما بيننا . وغدا نريد ارض الشـــام ...

(المشهـد الثـالث)

(في مضارب العرب المحاربين... وقد اجتمع امراء الجيش ليتداولوا الامر.)
(ابو عبيدة ... يزيد ... عمرو بن العاص)
ابو عبيدة ـ (لعمرو) ماذا وراءك يا عمرو ؟
عمرو ـ جيوش اثر جيوش تزحف . واني لاخشى ان يتم احتشادها قبل ان توافينا النجدات التي طلبناها .
يزيد ـ وماذا تقدر اعدادها ؟
عمرو ـ اخبرت ان اخر سراياها لا يزال ينحدر من وادي انطاكية . ومجتمعها الان في حمص ...
ابو عبيدة ـ انني لعلى ثقة من نجداتنا ... وما رأي اخواننا العرب في ديار الروم اذا وصلنا اليهم .
عمرو ـ انهم لا يستطيعون ان يظهروا ميلا الينا ، لان الروم ينتقمون منهم ومن اهليهم . لكنهم لن يساعدوا الروم علينا . اما المتطوعة منهم فانهم سريعا ما ينضمون الينا اذا احتدمت المعركة ...
ابو عبيدة ـ اننا لا نريد اذاهم ... لن يترك الروم ـ عند تقهقرهم ـ وسيلة الى تعذيبهم والانتقام من اهليهم . فلندعهم غير طامعين الا في هدوئهم ، والاستدلال على عورات العدو منهم .
يزيد ـ انهم لن يطيقوا على جور العدو صبرا ... ألم يرهقوهم ، ويسوموهم سوء العذاب ؟ ان هذه الفئة من الروم لا تبالي الا بترفها وزهوها .
ابو عبيدة ـ وماذا كان اتصالك بملك الغسانيين جبلة بن الايهم ؟ ان الغسانيين اخواننا في الدار والرحم . ولن يخون اخ اخاه .
عمرو ـ انه ـ على ما بدا لي من حواره ـ مضطرب ، لا يستقر على حال . انه يريد قبل كل شيء ان يصون تاجه وملكه . كأنما لا يعنيه شيء من حياتنا الا الملك والتاج . وكم تاج كان القيد اشرف منـه .
ابو عبيدة ـ سمعت انه الب علينا مئة الف عربي سار في مقدمتهم .
عمرو ـ على ان الروم انفسهم يرتابون في امره وامر جنوده . ولذلك يفضلون ان يفرقوهم في البلاد .
يزيد ـ مئة الف عربي . انه لعدد كبير .
عمرو ـ وما عسى تفعل هذه الاعداد ، اذا كانت تمشي بدون ايمان ؟
ابو عبيدة ـ ليكونوا ما يكونون . لقد جئنا ... وليقض الله امره . وكيف اتخذت خطة القتال ؟
عمرو ـ اننا ننتظر النجدة ، ورأي امير المؤمنين .
ابو عبيدة ـ وخلال ذلك ؟
عمرو ـ ليحارب كل امير بجنده ورايته ، منفصلين ، متساندين .
يزيد ـ من رأيي ان نترك الصحراء وراءنا طريقا الى النجاة ، لان خطة الروم وضعت لابادتنا .
ابو عبيدة ـ ليس من الحكمة ان نصنع سبيلا الى النجاة بايدينا ، ان العرب لا تستبسل الا حين تعلم انها بعيدة عن صحرائها . اننا سندخل المعركة ... اننا سنخوض قلب الروم . قد يكون هناك موت ، ولكن لن تكون هناك هزيمة .
اصوات ـ الله اكبر ، الله اكبر ...
اصوات ـ رايات مرتفعة .
اصوات ـ راية العقاب تختال .
اصوات ـ تلك راية خالد .
اصوات ـ ذاك علم ابن الوليد .
اصوات ـ ابو سليمان ينجدنا .

الفارس الذي لم يقهر .
هو سيف الله .
الله ... اكبر . الله اكبر ...

ابو عبيدة ـ هو خالد . رجل الحرب ، وفتى الهول .

خالد ـ السلام عليكم .

يزيد ـ لا تكاد اعيننا تصدقنا الرؤية .

عمرو ـ كأن النصر يلوح على جبينك ...

خالد ـ بدأت ساعة العمل . ليس في الوقت متسع . نحن في ارض مكن العدو فيها اوتاده ... مآ عندكم من انبائه ؟

ابو عبيدة ـ تكلم يا عمرو .

عمرو ـ لم نتبين حتى الانخطته ... لكنه يحتشد على نهر اليرموك ، وتحتشد قواته حول ارض الشام .

خالد ـ بقوات كبيرة ؟

عمرو ـ هي اقصى ما يملكون .

خالد ـ وماذا اتخذتم لمواجهتها ؟

عمرو ـ رأينا ان يقاتل كل امير بجنده عن الارض التي هو فيها .

خالد ـ بئس الرأي . هل نحن في قتال قبائل ؟ لقد عرفت الروم في مؤتة ، وبلوت حربهم وأساليبهم ...

ابو عبيدة ـ وماذا ترى انت ؟

خالد ـ ارى انكم يسرتم لهم السبيل الى اكلنا . انسيتم الاتحاد اليوم ؟ آنسيتم ان العرب الان تنازل الروم ؟ وهذا كل شيء ...

يزيد ـ ان الروم قد اقبلوا باعداد كثيرة ، ولهم زجل وفرح ، وان لهم حدة لا يردها شيء ... وليست خيلنا بالكثيرة ، ولا والله لا قامت خيلنا لشدة خيلهم ورجالهم ابدا .

خالد ـ لغوني في الثياب . لوددت ان الله توفاني قبل ان ارى توانيكم وعجزكم .

ابو عبيدة ـ ليس بهذا الوادي من العرب الا مستعد للنزال ، وبذل الروح عن سخاء ... فكيف بكوباشباهك الذين ولوا امور العرب. اولئك احق الناس بالجهاد والتضحية.

خالد ـ اتريدون رأيي ؟ ليس كالاتحاد شيء يكفل لنا النصر في هذه العزة . ان امير المؤمنين ارسلني ، وامرني بالقيام على الجند عامة ، والتولي لامر القتال . والله ما طلبت ذلك قط ، ولا اردته، فكل على حاله التي كان عليها ...

ان هذا اليوم من ايام الله ، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي ،اخلصوا جهادكم ، واريدوا الله بعملكم . فان هذا اليوم له ما بعده . ان اختلافكم لاشد على العرب من الروم ... هلموا . فان هؤلاء قد تهيأوا ... هلموا . فلنتعاور الامارة . فليكن عليها بعضنا اليوم ، والاخر غدا . والاخر بعد غد ، حتى يتأمر كلكم ... ودعوني اليوم اميرا عليكم .

ابو عبيدة ـ لله درك يا خالد ! لن تجد منا الا متفانيا في القضية العامة التي خرجنا من اجلها . نعاهدك على الامارة . لا نعصيك ولا نخالفك ، ولا نقطع دونك امرا . فاصنع ما تشاء .

يزيد ـ نعاهدك على ذلك .

عمرو ـ نعاهدك على ذلك .

خالد ـ الان نثأر ليوم مؤتة ... اننا سنجتمع كتلة واحدة نضرب جيش الروم الاول قبل ان يصل الثاني . لنبدأ قبل ان يبدأوا . فوالله ما غزي قوم في دارهم الا ذلوا .

ابو عبيدة ـ الى نهر اليرموك اذا ...

خالد ـ موعدنا على اليرموك .

حاجب ـ ان رسولا من قائدالروم جاء يفاوض .

خالد ـ وهذا اول الرعب يقذفه الله في قلوبهم . (يدخل رسول الروم) .

الرسول ـ اريد ان تدخلوني على اميركم .

خالد ـ تكلم . ماذا عندك ؟

الرسول ـ اين اميركم ؟

خالد ـ كلنا امير ... يجيز الواحد عن الاخر ... ويفي الواحد بما عاهد عليه الثاني . ما حاجتك ؟

الرسول ـ لقد علم ملكنا ان الذي اخرجكم من بلادكم الجهد وضيق الامر بكم . وانه قد امر بان يعطى كل رجل منكم عشرة دنانير وراحلة تحمل حملها من الطعام ، وكسوة ، فترجعون بها الى بلادكم، وتعيشون بها اهاليكم...والا فقد جئناكم ومعنا من الجيوش والعدة ما لا قبل به .

خالد ـ قل لسيدك ما اخرجنا من بلادنا جوع ولا ضيق امر ، ولكنا معشر العرب نشرب الدماء . جئنا نشرب دما .

الرسول ـ انتم تشربون الدماء ؟

خالد ـ اتختبر انت بنفسك ؟

الرسول ـ لست الا رسولا ، وما على الرسول الا البلاغ .

خالد ـ قل لسيدك ـ ان العرب لعلى ظمأ ... يريدون موارد الدماء.

الرسول ـ اخشى ان يلقاني ظمآن منكم فيشرب دمي .

خالد ـ لقد اعطيناك الامان حتى تخرج من معسكرنا .

الرسول ـ ولكن ما اكثر الروم واقل العرب !

خالد ـ بل ستری ما اكثر العرب ، وما اقل الروم ! انما تكثر الجنود بالنصر ، وتقل بالخذلان . (يمضي الرسول) .

خالد ـ (لقواده)

والان ... لا مجال لتضييع الفرصة ... ان القوم في جزع ، وما هذه المظاهر الفخمة التي يتظاهرون بها الا من علامات الخوف... انها والله لشعر واحدة . ينجلي عنها هذا الجمع المحتشد ، ويظهر الحق ...

اليرموك ... النهر الضاحك ... والواقوصة عن شماله .ذات الهاوية العميقة . هل يقدر الله ان نصب جموعهم فيهذه الواقوصة؟ لنجعل هدفنا في حملاتنا ان نستدرجهم الى الواقوصة . من منهم

فر من القتال ابتلعته الواقوصة ... علي بالفرقة التي بايعت الله على الموت .
اوصوا النساء بان يقتلن كل متزحزح عن القتال .
عكرمة ... ضرار ... الزبير بن العوام . الاشتر رجال بدر .
ابطال احد ... الثائرون ليوم مؤتة ...
سيكون يوم الواقوصة يوما له ما بعده . اوصوا هؤلاء جميعـــا باننا لسنا بالغزاة الفاتحين ...
اوصوا واستوصوا بعرب هذه الديار خيرا . انهم من اصلابنا ، واقربائنا . ان العربي ليحن الى العربي مهما تناءت الدار ، واختلف المذهب ...
القواد – الى اليرموك اذا ...
خالد – ستقول الصحراء – على اليرموك – كلمتها .
(ضجيج الجيوش ... وحركاتها) .

(المشهـد الـرابع)

(بعد ان اوقع الله بالروم)

(هرقل يدخل قرية على الحدود منهزما متنكرا)

رومي – اه . مولاي الملك . تستطيع الراحة الان .
هرقل – واية راحة ؟ اني لاشعر ان الارض تنبت عربا . ان ضربتنا – يا جرجة – لا تقابلها ضربة في تاريخ حروبنا .
لقد نازعنا الفرس ونازعونا ، وغالبناهم وغالبونا . ولكن لم نلق معهم كهذا اليوم .
ثمانون الفا من جندنا يغرقون في الواقوصة في ليلة واحدة .
لقد حسبنا الليل معهم يحاربنا . أمجد مملكة يتلاشى فـــي طرفة عين ؟
جرجة – غدا نلم شعثنا ، ونعود الى اخراجهم . أفي كل معترك يخوننا القـــدر ؟
هرقل – كيف لنا بان نجتمع ؟ وقد خرج الامر من يدنا ؟ لقد نصحتهم غداة المعركة بان يصالحوا العرب على ان يعطوهم نصف ما اخرجت من الشام ... ونأخذ نصفها . ثم تسلم لنا جبال الروم وارضها...
ولكن اخذتهم العزة واعتمدوا على جيوش متطوعة .
يا جرجة ! لقد فقدنا سورية الان الى الابد .
جرجة – ذاك فقد موقوت ... غدا نعود بسرايانا وقوانا .
هرقل – وزادنا بلاء موقف هؤلاء العرب الغسانيين الذين وثقنا فيهم...
انهم كانوا يقاتلون معنا رياء ... بل طالما اشرعوا سلاحهم فـــي ظهورنا ، كما يضربنا اولئك في وجوهنا . لقد خاننا جبلة بـــن الايهم نفسه ، وانضم الى العرب الغزاة .
جرجة – سنعود الى تأديبهم تأديبا شديدا .
هرقل – ليس امد بقائنا هنا طويلا ... انا نخاف انتقاض العرب هنا علينا بعد ان يروا ما حل بنا . هل الركائب جاهزة ؟
جرجة – لا ارى – حيث التفت – الا شراذم مشتتة في طريقها الـــى الشمال ...
هرقل – والمدن نفسها لم تعد تفتح لنا ابوابها . كل شيء تنكر لنا ؟ ألى هذا الحد كانوا يضمرون لنا الحقد والبغضاء ؟
جرجة – مولاي . لا تيأس على شيء . فقدنا الكثير ، ولا يزال عندنا الكثير .
هرقل – ماذا نقول غدا لبيزنطية اذا علمت ان ابناءها لن يعودوا . الركائب سريعا . اننا امام جنة عبقرية .

(المشهـد الخامس)

(خالد ، عمرو ، ابو عبيدة)

خالد – لقد كانت المعركة حاسمة . لم يذق الروم مثلها .
صدق الله العظيم « غلبت الروم » .
عمرو – ما كان أحكم تدبيرك . والان ... الى اين اتجاهنا ؟
خالد – ان دمشق اصبحت في متناول سيوفنا . سننحدر اليها قبل ان تتمكن شراذم الروم من جمع قواتها .
ابو عبيدة – انك تكلف العرب المشقة بعد المشقة . لماذا لا نريحهم اياما ؟
خالد – انك الحكيم ، ولست بالقائد .
ابو عبيدة – لا بد من أيام نستريح فيها .
خالد – اما انا فلست بمستريح .
ابو عبيدة – هكذا كتب الي عمر ... امير المؤمنين . الآ نحمل الجند على المخاطر .
خالد – عمر ... امير المؤمنين . وما خطب ابي بكر ؟
ابو عبيدة – لقد توفاه الله ، وتولى عمر بعده .
خالد – رحمة الله عليك يا ابا بكر حيا وميتا ! هل بلغه خبرنا ؟ وكتب اليك عمر بان تتولى هنا امرنا ؟
ابو عبيدة – لم يصرفك عن سخط ولا عن خيانة ... ولكنه يخشـــى تهورك .
خالد – غفر الله لك ! أتاك كتاب امير المؤمنين فلم تعلمني ، وانت تصلي خلفي ، والسلطان سلطانك ، والامر امرك .
ابو عبيدة – وانت – يغفر الله لك – ما كنت لاعلمك ذلك ، والمعركة ناشبة ... وما سلطان الله اريد ، وما لدنيا اعمل ...
وانما نحن نقدم بامر الله ، وما يضر الرجل ان يلي اخوه في امر .
خالد – لا ضير . الرأي رأيك ... ولكن هذا هو رأيي ...
عمرو – لقد خشي ابو عبيدة ان يحزنك ذلك فآثر كتمانه عنك والجند... خشية الفتنة .
خالد – اية فتنة ؟ متى كان خالد يحارب لسلطان نفسه ؟ والله لو ولى عمر علي امرأة لسمعت واطعت .
ابو عبيدة – بورك بك ياخالد . لم يزدك النصر الا تواضعا . والله ان لك الامارة التي كنت عليها ، لا نعصيك ، ولا نخالفك ، ولا نقطع دونك امرا ...
خالد – ان خالدا لم ينته امره ... وان يوم اليرموك له ما بعده...

(المشهد السادس)

(خالد على فراش الموت)

خالد – اعطوني سلاحي .
(يقدم سيفه ، وترسه) (يلمسهما)
هذا هو السيف الاخير الذي يشهد موتي .
رجل – لا ... لا بأس يا خالد .
خالد – اما واني لست بآسف في حياتي الا على شيء واحد .
رجل – على م تأسف ؟ وقد وفيت الواجب حقا . واحطتها متك بعمائم النصر .
خالد – يؤسفني ان اتذكر قول القائل (وما مات منا سيد حتف انفه)
ايموت خالد حتف انفه ؟ اتكون نهاية الذي لم ينم في مضجع على هذا الفراش ؟ لم تستطع الحرب ان تلوك لحمي ... وها هـــو الفراش الحفي يستل انفاسي .
لم يفتني شيء من اجر الا اجر الشهادة التي اعدها الله لرجاله المقربين .
رجل – خالد . انك على الارض التي حررتها .
خالد – ان مكة تنتظرني ... ولكن ...
رجل – ستعود اليها ...
خالد – هيهات ... اردت الموت في ساحة القتال . كم لقيت من زحوف وحروب ، وما في جسدي شبر الا وفيه ضربة بسيف ، او رمية بسهم ، او طعنة برمح . وها انت تراني اموت على فراشي حتف انفي كما يموت البعير . فلا نامت اعين الجبناء !!
رجل – ان لك من الفتوح ما يجعل نفسك راضية ...
خالد – هل يعد ما ادركته كافيا عن يوم مؤتة ؟ اما طوينا عنا عار ذلك

اليوم ؟ هل يحفظ الروم ذكرى مؤتة ؟

رجل ـ ان يوم اليرموك أنساهم يوم مؤتة ...

خالد ـ يوم اليرموك ... مري بخاطري يا وقائع الامس ! يا وقائع خالد ! .. لم يكن شيء عندي ارجى من ليلة شديدة الجليد ، وانا في سرية من المهاجرين ، بتها وانا متترس ، والسماء تنهل علي ، وانا انتظر الصبح حتى اغير ... فعليكم بالجهاد ! .. ان هذه الارض لا يصونها الا الجهاد . ما يوم اليرموك الا اليوم الاول في تاريخ هذه الارض ... ستتعاقب على يوم اليرموك ايام ، ثم ايام . فالويل للعرب اذا ناموا عنها ...

كأن بوادي اليرموك يسيل دما ... ويغص بالرجال ... لوددت ان الله يبعثني في كل يوم ،وفي كل جهاد الاقي به حق ذلك اليوم...

رجل ـ ان العرب عيون ساهرة على تراثها .

خالد ـ لهم المستقبل ما داموا عيونا ساهرة ، وقلوبا متحدة . ما اغنانا شيء ـ في هذه المعارك ـ الا اتحادنا ...

رجل ـ ارى عرقا يسيل على جبينك ، فرفقا بنفسك !

خالد ـ وصيتي ... ارفعني قليلا ... قليلا . ان جسدي يثقل عليك ... لقد كان اخف من الريح في زوبعة القتال .

ارفعني ... دعني اتكىء قليلا على سيفي ... انه سيحملني كما حملته ...

رجل ـ ماذا تريد من وقوفك ؟ انك متعب كثيرا .

خالد ـ ويحك ! دعني اقف ! اتريد ان يموت خالد قاعدا ؟ سأستقبل الموت واقفا كأني في المعركة ... هذا يوم أحد ... ذاك يوم فتح مكة ... نستقبل فيه مكة خيلنا ...

رجل ـ روح عنك قليلا .

خالد ـ اريد ان اسل سيفي. انه وحده سيبكي علي . وصيتي ... قل لنساء بني مخزوم الا يبكين . اربط فرسي لمن يحسن خوض المخاطر عليه ... وهذا سيفي ، اجعله عدة في سبيل الله ... ان خالدا ... يموت ، وهو لا يملك الا سيفة وفرسه . بسيفي هذا خطوا مضجع خالد ! ان الابطال يؤنسها قعقعة السيوف في لحودها .

(يقع خالد) ...

رجل ـ خالد . خالد ... بأبي انت وامي .

ليرحم الله قائدا ما اورث الا سلاحه وفرسه . ويوم اليرموك ...

خليل الهنداوي

أطياف الشتاء

حتى قاع الغربه .
حتى اسمال الاحزان الجدبه
منكفئا فوق جدار الوحدة يفري قلبه
انسان يقضي هذى الليلة نحبه .

***

ان شد خطاك الى الشط حنين الام ،
تحلم في وحشتها بالاوبه
وتسللت ، تطلعت الى اللاشيء
والنخل ظلال في النهر المتقع الضوء
تابوت الشمس تمدد ملتحفا سحبه
لا شيء سوى اشباح القوم
اسراب النمل انحدرت عبر الهضبه
والقرية تفتح اضلعها الخربه
للمنهوكين ، تهدهد في الاجفان النوم !
« الصبر جميل .. لا جدوى : عودي اليوم
سدي الباب ، وشمي في غربته ثوبه
علّ الطيف يواتيك الليلة في الحلم
ما اقسى يا اماه الايام الصلبه !

***

الغربة شوهاء الصلبان
والثلج المقبض كالاكفان
غطى اشجار السرو المكتئبه

***

« مركب احبابي تاهت .. أين ؟
عامان وما زال البين »
السفح الساجي تشجيه الاغنية العذبه

***

وطني يا حائط مبكانا ، اشلاء الشمس المنتحبه
وزغاب النجم نسيناها ، والليل المضفور الرهبه

***

السرو الاسيان تذري كف الريح الشتوية هدبه
والحزن جليدي الوجه ، خريفي الغربه
والشوق يشد خطاها للشط : « ايا رحمته الرحبه »

***

منكفئا فوق جدار الوحدة يفري قلبه
انهار الثلج ، حدائقه ، لا تطفي جدبه

موسكو

جيلي عبد الرحمن

مدخل الى رواية :

ضائع في «سوهو» !

تأليف كولن ويلسن

ترجمة يوسف شرورو

يسر « دار الاداب » ان تعلن انها تعاقدت مع الكاتب الانكليزي الشهير كولن ويلسون على ترجمة عدد من كتبه، ولا سيما الجديدة ، الى اللغة العربية . وسوف تصدر قريبا عن الدار روايته الاخيرة « ضائع في سوهو » التي ننشر فيما يلي مقدمتها .

اسمي هاري بريستون ، طردت من سلاح الطيران الملكي ،ومنحت – لسبب من الاسباب نسيته الان – مكافأة مالية كبيرة . وكانوا فرحين لتخلصهم مني ، ومن رؤية وجهي بينهم ، مرة ثانية يلمع الحياه المدنية في عيني ، مرة ثانية اعيش في حرية طليقة ، مزودا بمبلغ من المال لم امتلك مثله في حياتي كلها . العالم ينشد لي ، يفتح ذراعيه وابوابه، ويتركها بانتظاري ، سادفع لامي تكاليف معيشتي عندها ، اعتادت ان تأخذ جنيهين اسبوعيا ، وذات يوم وضعت في يدها نقودا كثيرة تكفي لعيشتي معها خمسة شهور كاملة .

سانطلق لاعمالي الخاصة ، ساكتب مسرحية رائعة ، او رواية ضخمة ، سأتمكن من ترويض نفسي على نظام صارم كالمؤلفين الكبار . سأتخذ من المكتبة العامة بيتا ، قد اكتب لست ساعات متواصلات دون تعب ، وسأتناول السندويشات الخفيفة ، وسأسير في شوارع بلدتنا الصغيرة خلال زيارة الظلام لها . سأتطلع ببهجة عميقة الى أضواء النيون الملونة المشعة في واجهات المحلات ، وفي المصانع ، وتهدر في اذني ضجة الالات الضخمة ، واشم رائحة الجلود والزيوت المعدنيـــــة ، والخشب المصبوغ . ففي هذه اللحظات يتذوق الانسان الطبيعة الخفية ،والحرية البعيدة البعيدة ، اذ تبرز له لوهلة بسيطة، بانها محصورة بين عالمين لا رابط بينهما . لماذا اذن ، ان لم يكن ذلك صحيحا ، يتجمـــع الناس بعيون مبهورة ، امام المباني القديمة عند هدمها ؟ في ذواتهم تتدفق لذة الشعور بالحرية ، والقدرة الكاملة على التدمير . انا لم استطع استغلال طاقاتي ، فقد مكثت يومين في المكتبة العامة ، وشعرت بملل قـــاس ينهشني ، واستعصت علي بداية مسرحيتي النائمة في عقلي ، لم اكتب شيئا . جلست هناك ، محاطا بضجيج الاوراق وتقليب الصفحات ، وطرقات الاحذية الثقيلة ، ورائحة الجلود والاصبغة . وفكرت . فكرت طويلا في الامكانيات اللانهائية التي تحتويها الورقة البيضاء الراقـــدة بخشوع امامي . ثم عدت الى قراءة عدة صفحات من كتاب « ميجر باربره » لبرنارد شو ، معجبا ومشدوها بدقته وعظمته ، وتساءلـت بصمت : كيف يمكن لكاتب ما أن يتمتع بهذه الدقة في جو من الحـرية الموحشة ؟؟

عطست العجوز المعروقة الجالسة امامي ، وغمغمت ومسحت انفها بمنديل . كانت عيناي تنظران بشبق الى الموظفة الشابة المنتصبة خلف مكتب الاستعلامات ، كم وددت لو احصل عليها بالرغم من افتقارهــا الشديد الى الجمال . انا اعرفها معرفة بسيطة ، فقد كنا معا في المدرسة يوما ما . تمنيت لو احادثها ، فقد كانت تبتسم لي بعذوبة كلما وضعت قدمي داخل المكتبة ، ولكن ماذا اقول لها ؟ ان المواضيع القليلة الهـامة لي ، ستحرك دوائر الملل المترسب في نفسها . وعدت مهزوما الى الورقة البيضاء ، بعد ان سرحت بفكري بعيدا عن موضوع مسرحيتي . وجاءتني فكرة تتناول النظام ، وتساءلت من جديد : ما هو النظام ؟ هل هـــو خنق الاندفاعة الجنسية التي تلح بجنون ؟ هل هو كبت مأساة السرحان اللامجدي ؟؟ ولكن ما هو الشيء الذي اريد تنظيمه ؟؟

انا اقدر على تسليط عقلي ، على الورقة البيضاء ، حتى انفجر . استطيع ان اتجاهل العجوز المعروقة وعطساتها ، أستطيع ان الجم عيني عن النظر الى الموظفة الشابة التي تتسلق الدرجات الخمس الاولى من سلم المكتبة لتتناول كتابا من على رف بعيد . لا ارغب في معرفة لـون ملابسها الداخلية الشفافة ، ولكنني لم ابدأ بالكتابة ، وما زالـت ورقتي عذراء .

لا . من المستحيل حتى ولو روضت نفسي على نظام صارم ،ان ادع الكلمات تتوالد على السطور ، من المستحيل ان املاها بالكلمات ، كمـا يملأ الزئبق ميزان الحرارة عندما ترتفع درجته الحرارية الى اقصاها .

ان حياة الانسان تعكس القضية ، وانا اؤمن بان حياة البعض فارغة، لا امل يبرق فيها . بينما ارى حياة آخرين حافلة بكل شيء زاه ، كأن حيواتهم قد خططها لهم ، كاتب مسرحي شهير ، قد تبدو كقطعة فنية، فيها شيء من المنطق ، قد ينبعث هذا المنطق من روائح الجلود التي تفوح مساء من المصانع ، فتتحول الى بلورة براقة . ولكن ، هل تنطوي الحياة العادية الرتيبة على شيء من النكهة ؟؟

انفقت عشرة جنيهات من الاربعين جنيها في اكتشاف حقيقة هامة، من المستحيل أن تكتب الروايات او المسرحيات بقذف كلمات منمقة علـى السطور . كما يقذف النرد على الطاولة ، مع رجاء ساذج بان يكـون الوجه « ستة ستة » .

فجأة شعرت بشعور البخيل الذي يود ان يسترجع جنيهاته العشرة التي اضاعها في شراء حاجة من الحاجيات . لو امكنني استرجاع النقود لما شعرت بهدر اسبوعين من حياتي بلا جدوى . ونتيجة لاكتشافي العظيم هذا ، توجهت صباحا الى مكتب التشغيل المحلي ، وقلت بنبرة عالية :

– اريد ان اعمل !!

كان يوما ماطرا من ايام تشرين الاول ، وكان حذائي يحتاج لتصليح واجهته الامامية ، والشوارع مزدحمة بالناس العاديين امثالي ، ودخلت محلا تجاريا ، لاشتري شيئا ولا ادري لم تخيلت نفسي واحدا من العمال الذين يرتدون البدلات الزرق ، ويحملون على اكتافهم صندوقا مـــن صناديق الشاي ، لوضعه بلطف على الرف البعيد . ولكنني فجأة، شعرت بانني حبيس ، ولا منفذ لي . انا اعيش في مجتمع حر. لا يلحق الضرر بأي فرد ، فلو خطفت رغيفا من الخبز الطازج كصاحبنا « جـان فالجان » فلن اعاقب بوحشية . ولو انني ارتكبت جريمة قتل فسوف

السجن ما شاء صاحب السيادة . قد اقف في الميدان العام واهتف بسقوط البوليس والنظام ، دون ان يتحرك احد ، واذكر ان احد رجال البوليس علق على خطاب يلقيه مجهول ضد الملكة فكتوريا قائلا :

ـ دعه ينفس عن غضبه . ان خطابه سوف يخفف من مشاكله ، ولكنه لن يضر الملكة .

ولكن السجن بالرغم من جميع مظاهر الحرية ، متين القضبان ، كئيب . فلا خيار لي . اما العمل في مصنع ، واما في مكتب ـ كما كنت في سلاح الطيران الملكي ـ انا استطيع ـ لو شئت ـ ان احترف التشرد . ولكن البرد مخيف في تشرين الاول ، واينما ذهبت ، ومهما فعلت ، فسيبقى المجتمع مندفعا في طريقه ، لا يحسدني ، ولا يلتفت نحوي ، لن آخذ شيئا ، ولن يمنحني شيئا . وانبثق شعور حاد حانق على والدي الذي لم يستطع ان يكون غنيا ، ويسهل لي سبل الرفاهية الحيانية كما اتمناها واريدها ، فهي حق لي لم اتمتع به حتى الان .

جلست في مكتب التشغيل على مقعد خشبي طويل ، بجانبي سرب من رجال طالت لحاهم ، وتآكلت معاطفهم التي كانت سميكة ، ونفذت الى انفي رائحة البلل المنبعثة من ثيابهم . اخرجت كتابا صغيرا من جيبي وحاولت ان اقرأ شيئا عن فلسفة ((ماركوس اوريميوس))فاصابني شعور بالقرف فهو لم يقاس في حياته ، كان امبراطورا كبيرا ، لم يعرق لينال ما يريد ، اختار الحكمة لسهولتها ، وسهولة حياته ، فانى لي الحكمة ، وانا انسان يواصل افراز عرقه لينال خبزه اليومي ؟؟

سألني الموظف الاصلع عن سبب تركي لسلاح الطيران الملكي ، فاجبت شاعرا بالخجل :

ـ اضطراب في المعدة .

والحق ان اوراق تسريحي تقول بكل صراحة ((اضطراب في الاعصاب)) .

واكتفى الموظف بجوابي القصير ، وسألني عن نوعية العمل الذي ارغبه . من السخرية ، انني لا احب العمل اطلاقا . ولا ادري كيف قلت له بانني اريد عملا يدويا .

ارتسمت دهشة مفاجئة على وجه الموظف وقال :

ـ ولكن يابني ، العمل اليدوي يتطلب قوة كبيرة ، ومتانة في البنية ، وانت لا تصلح له .

قلت بايجاز : ـ العمل اليدوي اجرته مرضية لي .

اقتنع الموظف ، واخذ يقلب امام عينيه عدة بطاقات ، اختار منها واحدة بالصدفة وسألني :

ـ ما رأيك بهذا العمل ؟؟

كانت عملية بناء على بعد عشرة اميال من بلدتنا الصغيرة . قبلت العمل بسرعة ، وبدأ الموظف يملي تعليماته بلهجة باردة :

ـ عليك ان تذهب في السابعة صباحا من كل يوم . لا تتأخر .

اخذت بطاقة عملي ، وخرجت من عنده ، فقابلت صدفة رئيس العمال ، حيث اطل من وراء كوخه الخشبي وسألني :

ـ هل انت طالب في كلية ؟

قلت بسرعة : ـ لا !

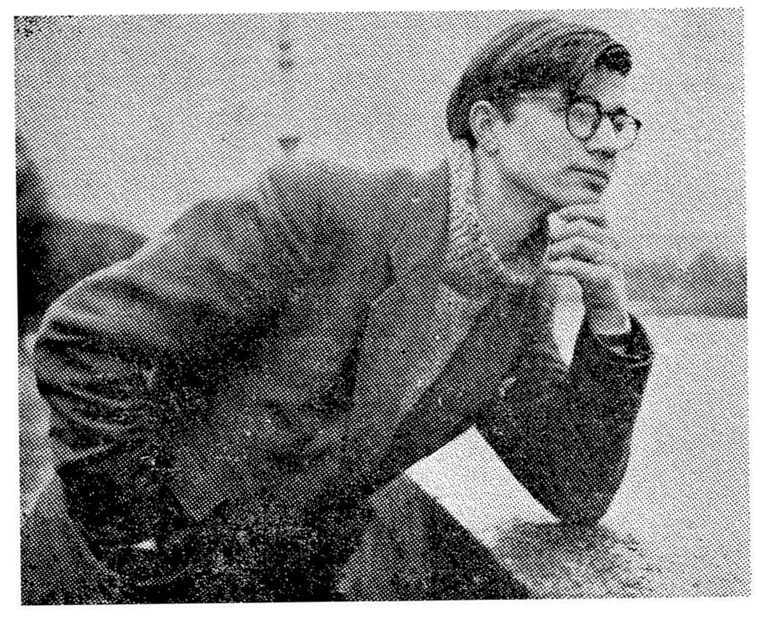
ـ كم تنوي ان تبقى معنا ؟

ـ ثمانية اسابيع على الاكثر .

اجبت بذلك محاولا ان ابدو غير مكترث لشيء . اعاد الي البطاقة وقال آمرا :

ـ ارسل بطاقتك غدا الى مكتب التشغيل ، وقابلني في السابعة تماما . احضر معك طعاما ، فلن تجد شيئا هناك ، لا يوجد عندنا مقصف للعمال .

غمرني شعور بالارتياح ، عندما اخذت الباص عائدا الى البيت . انا ملتزم بعمل جديد . احسست بنوع من القناعة ، ما زال عندي ثلاثون جنيها ، قد اقع في مأزق لا مخرج لي منه . ستتيح لي هذه الجنيهات مجالات واسعة ، ستكون قلعتي الآمنة التي اطل منها على العالم . وفي البيت سر والداي بنبأ استلامي لعمل جديد . وذهبنا للعشاء . كان



كولن ويلسون

●

عشاؤنا من لحم العجل المسلوق . اقول ((عشاء)) لان سكان المناطق الوسطى من انكلترا يسمون الغداء ((عشاء)) . الاعشاب الخضراء تتسلق شبابيك المطبخ ، معطف ابي المبلول يتأرجح بالقرب من الموقد . من عادة ابي ان يذهب الى عمله ، ممتطيا دراجته ، حتى لوغطت ثلوج السماء ، شوارعنا كلها . كنت متعبا ، وكان يومي حافلا باحداث جديدة لن تزول من ذاكرتي ابدا .

حاولت ان اهزم الانقباض الكئيب الذي هاجمني بجرعة كبيرة من الحساء ، ستزول ايام حريتي بانتهاء هذا المساء .

لم يكن العمل سيئا كما توقعت . تربعت على ظهر سيارة نقل كبيرة ، مغطاة بقماش واق ضد المطر ، فحملتني ـ وهي تخضني الىالاعلى والاسفل ـ الى نوتنجهام .

كان رفاقي العمال يتحدثون عن نتائج مباريات كرة القدم . لم يوجه احدهم نظرة الي . تنبه الى وجودي شاب صغير من عمري ، فتح فمه المتراخي ، وبدأ يقص علي ، قصة ليلته الماضية ، فقد اصطاد فتاة صغيرة واخذها الى غرفته . قال وهو ينتفخ كالديك :

ـ هل تدري من كانت فتاتي ؟ انها ابنة مدير مدرستي السابقة !!

ومضت السيارة الكبيرة في الاندفاع ، والعمال ساهون عني ، غير ان غطاء ((الترموس)) الزجاجي الذي احضرته معي ، وقع فجأةوتكسر . وخسرت الشاي الذي عملته امي لي . وسبب افساد بعض السندويشات . القيت بالطعام المبلول ، ولففت الباقي في جريدة قدمها لي احد رفاقي العمال وهو يبتسم . تطلعت الى الجريدة لاقرأ شيئا ، وهنا ذكر احدهم بانهم توقفوا عن العمل في اليوم السابق بسبب هطول الامطار . نظرت الى السماء ، ولكن الشمس اشرقت بلمعان غريب .

توقفت بنا السيارة . ونزلنا الى مصنع لم يكتمل بناؤه بعد . كانت مهمتنا ان نحفر الخنادق العريضة ، ونمد اسلاكا كهربائية عديدة . حملت فأسي بارتباك ملحوظ كفتاة مدرسة لا تدري اين تضع انفها عندما تقبل حبيبها لاول مرة . تقدم احد العمال وعرض مساعدته ، وارشدني الى الطريقة الصحيحة لحمل الفأس ، وكيف اقبض على طرفه بليونة وسهولة ، واهوي به ، فاتحا ثغرة ارضية ، وختم محاضرته قائلا :

ـ العامل المحترف يستعمل يده اليمنى واليسرى ايضا عندما يهوي بفأسه بلا تردد .

ما زلت اذكر كلماته ، حتى الان ، ولكن للاسف ، لم اجد فيها اية فائدة .

جاء احد العمال ، واشار الى قطعة من الارض ، ثم قال :
– نظف التربة من الحجارة ، ثم ابدأ الحفر .

التقطت الحجارة وكومتها داخل العربة اليدوية ، واخذتها بعيداً، حيث القيتها على بعد عشر ياردات . عملت كالمجنون لاطرد البرد الشديد عن جسدي ، وفي نصف ساعة ، كان بنطال سلاح الطيران قد تلوث حتى الركبة . في تلك اللحظة سلطت عينا رئيس العمال علي ، كان بدينا ، مخلع الاسنان ، ويحمل لقبا يعتز به ، وهو ((الكابتن)) ، تقدم مني ، واخذ يقذف باسئلته السريعة ، فرددت عليه باسئلة معاكسة . وهنـــا ابتسم بعطاء صادق ، وبدأ يحدثني عن الايام القاسية التي عاشها وهو يعمل كعامل بسيط ، واخيرا قال كمن يهاجم عودة ذكرى لا يحب انيراها مرة ثانية :

– كانت ايامنا تعيسة وشقية يا بني ، انتم الشباب لا تعرفونكم كانت كئيبة وفارغة ايامنا ، سبحان ربي ، لن يصدق هولها الا مـــن عـاش فيهـا .

ثم نادى ((توش)) وهو عجوز بارز العظام ، فاكد ذلكواخذ يتحدث عن ايام البطالة ، وكيف اذلته الشهور الستة التي لم يعمل خلالها كل سنة ، كان موظف مكتب البطالة يأتي الى بيته ، ويشير الى محركالنار الحديدي ، ونكة الفحم الفارغة ، والكرسي العتيق . ويقول دون ان تهتز عضلة من عضلات وجهه :

– آسف ، لن ازيف الحقيقة ، فانت تملك متاعا ، تستطيع بيعـــه بخمسة شلنات .

وتدخل الشاب الصبي ، صاحب الخبرة الجنسية الواسعة ،قائلا:
– كم وددت لو قالها لي انا ، فسأدق عنقه فورا .

اجاب الرجل العجوز وفمه الخالي من الاسنان يمضغ قطعة مـن الجبنة الصفراء :
– كم وددت لو كنت معنا ، ستجوع مثلما جعنا يا بني .

عدت الى حفر الارض ، تسلخ كفي الايمن ، تقدم مني الصبيالذي حدثني عن مغامرته مع ابنة مدير مدرسته ، وقال وهو يبتسم :
– عليك باليد السرى . اذا اردت ان تداعب شيئا الان !!

كلماته مبهمة لم افهمها ، توقفنا عن العمل بعد ساعة ، وجلسنـا في الكوخ الخشبي نتناول وجبة سريعة ، حزنت على ضياع الشاي، ولكن احد العمال اقترح بان اشترك ((بهاف كراون)) اي ((بشلنـين وستة بنسات)) في عضوية نادي الشاي ، ثم قال وهو يغمز :
– سوف تشرب ثلاثة اقداح من الشاي كل يوم .

وعلمت ايضا بان شركة مجاورة قد افتتحتدكانا صغيرا لبيعالشاي وبعض الحلوى ، وقد كانت الدكان عبارة عن كوخ خشبي تديره فتـاة شاحبة الوجه اسمها ((بتي)) . ذهبت لاشتري منها ما ارغب فيه . شربت الشاي مع قطعة ((كاتو)) فاصابني الم شديد ، ولكن الالم زال بعد ساعتين عندما تناولت سندويشات الغداء . وغابت الشمسالشديدة اللمعان واخذ المطر يهطل باستمرار مخيف ، لم يتكلم احدنا عن توقف العمل وانصرافنا ، وبقينا نعمل في المطر ، ذهبت لمساعدة العمال فـي تنزيل لفة ضخمة من الاسلاك الكهربائية ، اوصلتها الى مكان عملنا ، سيارة كبيرة . وفجأة سمعنا دويا عنيفا ، ورأينا بريقا آتيا من ورائنا، اصابتني رجفة ، ودرت لاهرب ، فرأيت رجلا منبطحا في الوحل ،وفي وجهه آثار دهشة مفاجئة .. وبعد قليل ازال الوحل عن ملابسه ، واخذ يشتم ويجدف ، وهرع العمال من كل مكان ، وسمعت ((توش)) العجوز يقـــول :

– الحمار . لقد ضرب الاسلاك الكهربائية بفأسه . كنت انتظـر هذا من واحد مثله .

نظرت الى الخندق ، ورأيت الفأس المحترقة ، وشاهدت ايضـــا سلكا كهربائيا مغطى بالرصاص ، مختفيا في باطن الارض ، ولكن النقطة التي اصابها الفأس ظهرت واضحة ..

قال ((نيبر)) العامل الذي سبب الحادثة :
– لم ار شيئا كهذا في حياتي . لقد تطاول عامود من اللهب الازرق في الهواء ، وكأنه سطل أفرغ من الماء ، من الطابق الخامس .

وجاء الكهربائي وقال موجها حديثه الى ((نيبر)) :
– كانت نجاتك اعجوبة . ان السلك المقطوع يحمل شحنةكهربائية تقدر بعشرين الف فولت . ولولا مقبض الفأس غير المبلول وحذاء المطاط الذي تنتعله ، لكنت الان اسود كالفحم الحجري ، ميتا كفار صغير .

ابتهج ((نيبر)) عند سماعه كلمات الكهربائي ، ولكن رئيس العمال تقدم منه وصرخ في وجهه قائلا :
– انت نغل اعمى . انتبه في المرة القادمة ايها الزنديق .

ثم امرنا بلهجة صارمة بان نعود الى العمل . وبدأ الكهربائي يعيد ربط الشريط الذي قطع ، وكنت انا اعمل بقربه ، مما اتاح لي فرصة مراقبته ، رأيته يضع قطعة مربعة من المطاط في اسفل الشريط ، ثـم وضع ثقل جسده على ركبتيه . واخذ يقطـــع الشريط بمنشار جاد . كان يقبض بيده على الشريط الموجب ، كأنه يقبض على حبل لا قـــوة كهربائية مدمرة في داخله . امدتني هذه الحادثة بفيض من الارتياح ، وجعلتني اشعر بان هذا محيطي . وانهمر مطر غزير بدا كضباب رمادي. وامتلأ خندقنا بالماء في دقائق قصيرة ، فركضنا نحتمي في الكوخ،واطلقنا عيوننا الى الخارج ، نراقب المطر بفرح خفي . لكننا اصبنا بالبلل حتى العظام ، وشعرنا بالبرد من هبوب الرياح الباردة . كنا على مسـيرة عشرة اميال من بلدتنا الصغيرة ، غير اننا لم نستطع اخفاء فرحتنا بالمطر ، فهذا يعني توقفنا عن العمل ، مع استمرارنا لاخذ اجرتنا الاسبوعية . واخيرا استدعى رئيسنا سيارة النقل المغطاة بالقماش السميك ،وتكومنا داخلها كاكوام الحجارة ، وتحركت بنا الى البلدة .

عندما افترقنا ليذهب كل منا الى بيته ، كان المطر ينهمر بغزارة شديدة .

راقبت خلال الايام الثلاثة الاولى طباع رفاقي وتصرفاتهم ، علنـي استخلص قدرا كبيرا من تجربتي الجديدة التي فرضتها على نفســي كعقوبة . لقد اذهلتني التجربة في بداية الامر ، ثم تبخرت .

كان ((تيري)) هو الذي جذب اهتمامي اكثر من غيره . وقد التحق بالعمل بعدي بيوم واحد . ووضعني تحت رعايته . الا ان رئيسنا كـان يعتبره فاسدا ، لا يصلح لان يكون قدوة لغيره من العمال . كان خبيرا بتفادي العمل . تعلمت منه هذا . ويبدو انه كان صاحب فطنة غريزية تنبهه الى اللحظات التي لا بد فيها من التظاهر بالعمل ، وخاصة عندما يبرز رأس ((الكابتن)) من وراء كومة الحجارة ، مراقبا سير العمل. اما بقية الوقت فقد كان ((تيري)) يرتكز على معوله ، ويدخن بشراهة من سجائري ، ويقص علي فصلا جديدا من حياته الحافلة العميقـة ، ابتداء من الحرب العالمية الاولى .

كان ((تيري)) يمتاز بميزة عمالية عتيقة – كان يعتبرها ميزة –وهي معرفة كل الشتائم . وقد كان رجلا نحيفا اسمر الوجه . حاولت ان

اشبهه « برابليه » ولكن البذاءة التي تتعلق على لسانه ، هدمت جميع محاولاتي في ايجاد شبيه له . من عادته ان يسالني كل صباح عما اذا نمت مع فتاة ام لا . كنت اعرف ماذا يرمي بسؤاله هذا . كان يتمنى ويذوب شوقا لان اسأله بدوري ، عما فعل في الليلة الماضية ، كي افتح فمه واجعله يتحدث عن ذكرياته الخصبة .

يبدو لي بان زوجته كانت في غاية البدانة ، وانه يتشاجر معها باستمرار . وقد حاول مرارا ان يهجرها ويفر بخفة . ولكنه كان من الكسل بحيث لا يبتعد خطوات حتى يقبض عليه بوليس البلدة بطلب منها ، ويودعه السجن ، ويطالبه بنفقة زوجته الوحيدة . وقد ذكر لي بانه يقضي شهرا واحدا من كل سنة بالسجن المحلي ، وقد كان معتادا على القيام بجولة ليلية ، يزور فيها كل حانات البلدة . كانت ليلته العظيمة يوم الدفع ، ففي يوم الجمعة يأخذ اجرته الاسبوعية . ويذهب ليكرع حتى يرتوي وينتشي ، ثم لا يدري ، كيف انقضت الساعات،ففي يوم الاحد ، يجد نفسه في بيته ، ولا يجد في جيبه « بنسا » واحدا .

واحيانا كان يذهب الى بيته مبكرا ، اي قبل منتصف ليلة الجمعة، ويركل زوجته بقدمه حتى تستيقظ ويطالبها بحقه كزوج قائلا فيدعابة:

ـ اعطيني حقي ، وخذي اجرتي الاسبوعية .

وعندئذ كانت تنتقل النقود من يد الى اخرى ، وكانت ـ اللعينة ـ كما يلقبها ، تحصي النقود ، قبل ان تمنحه نفسها ، ففي مرة سابقة ، اعطاها حزمة من ورق الجرائد ، بعد ان طواها بعناية فائقة فظهرت كاوراق النقد .

وقد حدثني ذات مرة بان زوجته ـ اللعينة ـ كانت تقفل باب غرفتها عندما تسمع صوته المنتعش بالخمرة يعربد مغنيا الاغاني القديمة، ولكنها توقفت عن ذلك بعد ان علمت ، بانه كان يضاجع ابنتهما الصغيرة . (لا ادري ـ حتى الان ـ ان كانت رواياته الجنسية ملفقة ام حقيقية . وقد كان معظمها غير صالحة للنشر ، ولكنني اعترف بصراحة بان عقله كان خصبا وغنيا ، وانا اضعه في المرتبة الثانية بعد الماركيز دي ساد مباشرة) . كان « لتيري » صدق بدين ، يبلغ من العمر ربع قرن . وكان اسمه يقترن دائما باسم « تيري » وقد بدا لي ان الاثنين يأخذان ثقافتهما من مكان واحد . وكأن المدينة الصغيرة تصب قنواتها القذرة في داخلهما . خفت على نفسي ان اصبح عامودا ثالثا لهما فابتعدت ، خاصة عندما بدأت تلاحقني عينا « الكابتن » الحذر على سير العمل .

طالت ايامي بينهم ، وحفرت جدران صماء في رأسي . الوجوه لا تتغير . الاحاديث عادية ، اسابيعي الثلاثة جليدية كالليل الذي يغطي الارض ، اكاذيب الشاب ذي الميول الشهوانية ، باتت تافهة لا تثير في اية رغبة للاستماع ، اللقب الذي يلصقه بالفتيات كلهن ، لم تحتمله نفسيتي ، قال لي يوما بنبرة باردة لم احبها :

ـ كل الفتيات « بغايا » فلا تثق بواحدة يا هاري .

لم اقل شيئا ، فوجدها فرصة سانحة للخوض في تفاصيل صغيرة سخيفة عن الاشياء التي تبرز فجأة عند الجماع الجنسي ، وكيف على الرجل الحق ان يعالجها بسرعة وبقسوة ، حتى ولو ذهبت الفتاة وجلست للاعتراف في كنيسة منطقتها .

كنت ارغب رغبة حقة في تجنبه ، كان يحبني ويثقفني جنسيا ـ كما يقول ـ ويفترش ارض السيارة بجانبي ، وعيناه الباهتتان،تبتسمان لي بغباء اخرس . كنت ابغض رؤية فمه المتراخي ، وشعره الباهت . اصبح وجهه بكل قسماته امثولة صادقة لقاتل نساء مخبول ، وانا الى الان ، كلما ذهبت في قراءة جريمة جنسية مخيفة ، اتخيل صورته على اعمدة الجريدة ، تبتسم بغباء اخرس . انه من النوع العادي الذي تقابله في كل مكان ، يذهب الى دور السينما ، ويشاهد اعلانات « التلفزيون» وتتلاعب بعقله الطفولي الكلمات العابرة ، والجمل الجاهزة التي تطلق بلا رحمة من الاذاعات ، ومن الافواه المزيفة ، كان ميت الشخصية والهوية ، وموضوعه الاثير الى نفسه ، الجنس بكل انواعه !!

زال اهتمامي بالعمال كافراد حية ، وخمدت جذوة الحياة ، ومعناها . لا بد لي من سنين عديدة متواصلة ، حتى اطل برأسي من خلف اكوام الحجارة ، واللقب « بالكابتن » . الفكرة مملة وصغيرة . ولكن ميلي الى القناعة بسير الحياة حسب مجراها الطبيعي ، دفعني الى قبول العمل ، والنهوض في ساعة مبكرة ، والجري خلف باص الساعات الاولى ، وحفر الخنادق تحت المطر والجليد ، والغوص في الوحل والطين . اما النافذة الصغيرة التي كنت اطل منها على العالم الحافل بكل شيء ، فهي ، الجلوس مساء ، واستماعي الى القطع الموسيقية من المذياع .

تم بناء المصنع ، ونقلنا الى المدينة ، لحفر الشوارع المبلطة ، وتبديل الاسلاك الكهربائية القديمة باخرى جديدة ، واعادة تبليط الشوارع من جديد .

في هذه الفترة اصبحت قادرا على النهوض متاخرا ، والذهاب الى عملي ، والعودة مبكرا الى البيت . وذات يوم انتحى بي عامل قديم والقى علي موعظة حارة ، قال والكلمات تتواثب من فمه :

ـ ازفت ساعة تركك لهذا العمل ، انت لم تخلق لهذا ، نحن طبقة لا محترمة . متى اصبحت واحدا منا ، فلن تتخلص من قذارتنا ، لن تصبح انساناً نافعا . لقد اضعت في هذه الحياة ثلاثين عاما ، كم تمنيت لو تركتها ، كم تمنيت ، قم ، واهرب يا بني ، قم وابتهج ايامك التي لم تعشها بعد ، نحن سجناء ولكننا عمي لم نجد الطريق التي اضعناها.

الغريب ان كلماته كانت باردة لم تلفحني حرارتها ، فقد انطويت على العمل الروتيني ، وطفح قلبي بالارتياح لان الناس الكبار الذين يجلسون خلف مكاتبهم الفخمة يخططون حياتنا واعمالنا كانوا ينظرون الينا كقطيع من الماشية ، لا يتوقع منها اي التزام فكري . فقد سمحوا لنا ان نتجاهل مشاكل الحياة ومعناها ، قتلوا فينا طاقاتنا الفكرية الخلاقة ، لذا اخذت انزلق الى حياة التشرد كواحد من العمال الاخرين، تيري ، توش ، نيبر ، والصبي الشهواني . لم تتلهف نفسي الى مغادرة البلدة ، وانقطعت علاقاتي بالحياة . وفجأة حلقت حادثة موت في سماء اسرتي . فقد مات جدي ، ولونت حياتي بلون اخر .

كان ذلك صباح السبت . لم اترك فراشي الدافيء . عبرت امي الباب والقت بجملة اخبارية :

ـ جدك مات اليوم .

قالتها دون تأثر او حزن ، لم اتوقع منها ان تحزن ، لست ادري لماذا ؟؟

بعد نصف ساعة ، نفضت موكب النعاس من عيني ، ونزلت الى المطبخ . كانت وجبتي الصباحية ، بيضة واحدة وشريحة من لحم الخنزير حرقتها امي ، فافقدتها نكهتها ، تشاغلت امي بتنظيف المطبخ ، وكنا نسمع لحنا موسيقيا اتيا من المذياع .

لاتحدث عن جدي : كان موته متوقعا ، فقد لزم سريره عدة مرات في السنة الماضية ، ولم يبد اي انزعاج على وجه الطبيب عند تركه لغرفة جدي ، نويت ان اذهب لزيارته في الليلة السابقة ، ولكن اخي الصغير توسل الي بان آخذه الى الحفلة الموسيقية التي اقامها نادي العمال المحلي . وهكذا مات جدي دون ان اراه لاخر مرة . قالوا بان قلبه توقف عن النبض .

سألت امي : ـ هل تشعرين بالحزن يا ام ؟

قالت : ـ لا . كنت اتوقع موته بين لحظة واخرى .

انا اؤمن بأنها كانت تحبه . فهو من اخرجها الى الحياة .ولكن ما جدوى الحزن ؟؟

انتقلت الى دار جدي ، علني اقوم بعمل ما . رأيت عددا من افراد اسرتي ، كانوا هناك ، يشربون الشاي بصمت ، ويلتزمون الحزن، اما جدتي فقد كانت مذهولة تماما . انا لا احبها ، اجتماعاتنا العائلية ، خاصة بعد ان تناثرت اوراق الملل وحطت علي . فانصرفت بحجة تسجيل الوفاة . وافقوا على ذهابي بعد ان علموا ، بان المسجل يغلق مكتبه مبكرا يوم السبت ، واثناء وجودي في الباص حاولت ان اجوب في سر الموت . كان جدي انا ، جدي الوحيد ، فقد قتل جدي لوالدي في

الحرب العالمية الاولى وانا لا اعرفه ، اما هذا الجد الذي مات اليوم ، فقد كان يدللني دائما . كنت اول احفاده ، ولم يهتم في حياته كلها الا بي . ولن اكون مغاليا اذا قلت ، بانه لم يدلل احدا من اخوتي ، او ابناء خالاتي واخوالي كما دللني واحبني ، ومع هذا فانا لست واثقا ان كنت احبه ام لا ، اما ان يحبني هو ، فهو حقي ولا جدال فيه .

كانت جدتي امراة لطيفة ، يتدفق الحب صاخبا من قلبها لكل مخلوق . ويستيقظ الفرح في عينيها عندما تسمع الضحكات منطلقة من فم جدي ، وتجلس صامتة تنظر بحب الى شعره الاحمر ، وتأكل تقاطيع وجهه وهو يحدثها عن مشاجرته للناس في حانات بلدتنا ، كانت تحبه حتى الموت ، وكنت اراه رجلا مرحا يجلب السرور والحلوى، ويحدثني بالنكات البذيئة مذ بلغت الخامسة من عمري ، الا ان نكاته لم تكن حول العلاقات الجنسية ، بل حول الناس وتصرفاتهم . وصلت الى الشارع الرئيسي ، ولم انقطع عن التفكير في جدي طول الطريق .

ادركت الان انني لم آبه لموته اكثر مما كنت ساكترث لمجرد ذهابه في زيارة لبعض اقاربنا في « درم » لبضعة ايام . وجدته الان رجلا يصعب علي فهمه . هل اعد حفيدا قاسي القلب ؟؟ الم يقدم لي الهدايا منذ طفولتي ؟؟ الم يهدني قنبلته اليدوية التي كان يحفظها ويعتز بها مذ كان في الحرب العالمية الاولى ؟؟ اذكر بانه وعدني يوما بان يهبني دراجة عند انتهاء الحرب ـ كان يظن بان الحروب ستدوم ـ ربحت الدراجة منه . قال لي وهو يربت على كتفي :

ـ كانت حماقة مني ، كل الحروب ستنتهي يوما !!

بعد ان سجلت الوفاة ، اشتريت زجاجتين من البيرة وذهبت الى البيت . وفي يوم الاربعاء التالي اخذت اجازة لحضور الجنازة ، وفي اللحظة الاخيرة قررت ان لا اذهب الى المقبرة معهم ، وظللت في البيت حتى يعود الجميع ، وعند عودتهم ، فتحوا زجاجة من الشيري ووزعوا السندويشات ، وانطلقنا نتحدث بمرح ، وفجأة انفجرت جدتي ببكاء عنيف وهرعت الى خارج الغرفة ، فتبعها احد اخوالي ، وسمعته يقسم لها ، بان جدي قد انتقل من مكان الى مكان ، ومكانه الجديد مزهر ومشمس . لكنها مضت في بكائها بالرغم من توسلات خالي لها .

تأملت صورتي المعلقة على الحائط ـ صورتي وانا في الثانية من عمري ، ممتطيا كتف جدي . ثم جاءني الجواب مرتعشا، ثم قويا،كالوحي حين يحط علينا ، عند العثور على حل لغز صعب في الكلمات المتقاطعة.

ان وفاة جدي لم تملأ صدري بالحزن ، فالموت امر لا اؤمن به ، ان الموت امر لا منطقي . اما ان الرجل لم يمت ، او انه لم يعش ابدا ، فالحياة لن تتغير ، ولن تقف وستبقى مستمرة ، ولا استطيع ان اتنبأ بأي تطور .

غرقت في مقعدي وقلت لنفسي: « هذا صحيح ، لن يحدث شيء، فلو حدثت الاشياء ، لكانت حياتنا بحاجة لنظرة جديدة اليها ، وبما اننا مؤمنون بان لا شيء سيحدث ابدا . لذا ينهض الرجال صباح كل يوم ، ويتوجهون الى اعمالهم ، ويتزوجون من فتيات يتراءين لهم جذابات فاتنات . ويحاولون ان يستمتعوا بالحياة الى اخر قطرة . وتمضي بهم الايام ، هادئة رتيبة ، لا ضجيج فيها ، ولا رنة فرح تنطلق منها ، لا خسارة ولا ربح ، فالاشياء الجوهرية ليست من دنيانا ، فلا واقع ، ولا اهمية لاي شيء . ولهذا السبب كان من المحتمل ان ابقى عاملا يدويا لعشرين عاما ، حتى اصبح رئيسا للعمال . وفيما كانت هذه الافكار تمر بعقلي ، اخذت اراقب خالي « ارني » وهو يقطع فخذ خنزير على الطاولة ، والهبني شعور بالفرح ، جعلني افقد شعوري بجسدي ، واحسست برغبة شديدة في النهوض والعبث بالصوروخوان الطاولة الابيض ، كطبيب يعالج مريضا ، امضه المرض واقعده ، وقلت في نفسي « يا للغرابة ، انا لم ار الدنيا من قبل ، كما رأيتها الان ، سأدون ملاحظاتي » .

وانتابتني رغبة ملحة بالانصراف في الحال ، سوف اجرب هذه الحالة الجديدة ، كما يجرب المرء نظارات جديدة عندما ينظر الى العالم الخارجي . نهضت ، وخرجت بخفة كانني ذاهب الى الحمام ، بعد ان همست باذن امي قائلا :

ـ سوف اراك في البيت .

كانت الدنيا خفيفة لا وزن لها ، استطيع رفعها ومداعبتها ، انها ليست مجرد « عالم » لا جدوى ، ولا معنى له . ها الفرصة قد ازهرت، لاقطفها بسرعة ، ولاستفد منها . وتدفق مني شعور بالحنان والحب لكل الناس الذين مررت بقربهم في الشوارع . رغبت بالابتسام العذب . وددت ان اقول لهم : « لا تخافوا . انا اعرف بان دنيانا حقيرة وتافهة، لا تهربوا منها ، انا سيدها الان ، سأغيرها » .

لا سبيل الى احتمال العمل ـ حتى ليوم واحد ـ بعد ان تكشفت لي الحياة . لذا اتصلت هاتفيا بمكتب الشركة . ولفقت لهم قصة كاذبة ، تقتضي سفري العاجل الى لندن لتصفية بعض الامور التي كانت تخص جدي ، وقلت لهم :

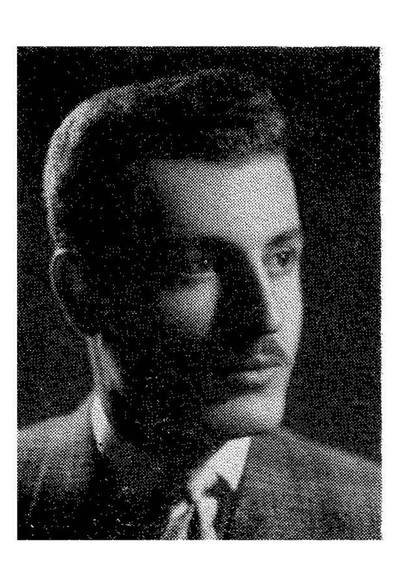
ـ سآخذ القطار في الحادية عشرة من صباح اليوم التالي ، فهل لي ان استغني عن الاخطار القانوني ، مع ارسال اجرتي الى عنواني في البيت عند دفع الرواتب ؟؟

لم يهتموا كثيرا ، كانوا لطفاء جدا ، فالاخطار ليوم واحد كاف للطرفين . ولكنهم ظنوا بانني وجدت عملا جديدا ، فقد سألوني عما اذا رغبت باخذ اوراقي بعد ظهر ذلك اليوم ، فاجبتهم بالنفي ، لانني لم ار ضرورة ملحة في حملي لهذه الاوراق ، في مستقبلي القادم .

بعد انتهاء المكالمة ، سطعت الشمس من خلف غيوم تشرين الثاني، وتذكرت جدي ، وشعرت بحب وامتنان عظيمين له . كان يهديني دوما اشياء كثيرة ، وكانت وفاته اخر هدية . وفي اليوم التالي اعطيت امي خمسة جنيهات ، واخذت قطارا الى لندن ، بعد ان استرد العالم وزنه العادي ، ولكن وجهتي في الحياة تحولت ، كقطار خرج من خط الىاخر.

لندن — ترجمة يوسف شرور

عائد إلى يافا



— ١ —

المخيم

فيم اندفاقك يا سمانا عميت عيونك لا ترانا ؟
بالكوخ آهات مجرحة الحناجر من ندانا
العري ، والخرق البوالي ، يا شتا ، هذا غطانا
أنا والعيال ، وكل سكان المخيم ، مبتنانا
وأعد خبز الجوع في هذي الخيام .. أما كفانا ؟
حتى بعثت السيل يجرفنا ويجرف ما أوانا !

**

غضب الطبيعة لا يرد قضاءه واهي قوانا
وسلاحه : الرعد المدمر والعواصف في لقانا
والبرد والسيل المخرب ما تبقى من ثرانا .
لك يا شتاء دلائل الخصب الثري ، لدى سوانا .

— ٢ —

ثورتان

يا ليت شعري ! يا شتاء ، أجن نوؤك من صيام ؟
فأثرت أرض العالمين ، وهجت بحرا من غمام
وهجمت لا تبقي على شيء تطالب بالطعام ؟

**

أنا مثل جوعك يا شتاء ومهجتي مزق دوامي
كالبحر نفسي اذ تفور بالعتاب وبالملام
وتجن بالحقد النبيل على قساوات اللئام :
هل يبصرون خيامنا شدت على كتل السقام ؟
ومن الجراح الداميات وجوعنا ، هذي خيامي
حرماننا من كل شيء غير تشريد حطامي
وبقية الذكرى الاليمة في جفون كالمنام ..
أيام تقذفنا من البيت الدفيء يد « الحرامي »
فاذا بنا خبز توزعه على الموت الزؤام
واذا بنا ثالوث بؤس لا يحس من الكلام
جوع وحرمان وتشريد ، على بصر الانام ...
هذا المصير بعالم يدعون فيه للسلام ؟

— ٣ —

يا سماء

كفي دموعك يا سماء لقد غرقنا بالبكاء
وتكاد تجرفنا سيول من ذبيحات الدماء ..
يوم الوداع ، ويوم قد رسموا على وجهي شقائي
وخرجت من « يافا » بحلم لا يصدقه ضيائي :
أبتي الحبيب واخوتي ليسوا معي لا كبريائي
ما هذه « يافا » و «حيفا» يا «فلسطين» الرجاء !
حركت نفسي كي أعود ليقظتي وضحى سمائي
لا البيت بيتي ، ليس جيراني ولا أهلي ازائي
أنا بالمخيم لاجىء ما بين أشلاء الفناء !
وهممت انهض صارخا . واخجلتاه ، وواحيائي !

(١) القصيدة من مجموعة شعرية تحمل هذا العنوان .

ليست معي رجلي اليمين ، ولا مفر من القضاء
الكل حولي لاجئون الى خيام بالعراء
وبقية عجفاء من أمي تؤجج بي بلائي
أنا لا اصدق انهم يا أم قد سلبوا ردائي
أنا لا اصدق انهم يا أم قد حجزوا فضائي
أنا عائد لحبيبتي أنا راجع لصفاء مائي
«قدسي» هناك ، ولن أعيش بغير ارضي في هوائي
أنا يا « فلسطين » الحبيبة ثائر حتى انتهائي
أنا عائد بالنور يا « يافا » الهوى حتى انطفائي .

— ٤ —
يا أمتي

يا قوم أي مصيبة حلت بأرضي .. أي هول؟
مزق الضحايا الابرياء على المفارق والسبيل :
هذي يد قطعت ، تمد انامل الكف القتيل
وهناك وجه شائه وهنا قلوب في سبيلي
ويلاه ! نمشي مرغمين على الجماجم ، أي ويل !
أأدوس رأس أخي ؟ وصدر أخيتي العاري الذليل؟
وأدوس أشلاء الابوة والامومة في السهول؟
وبكل ناحية أصم عن المناحة والعويل؟
أنا حائر ، أنا غائب عن كل احساسي وحيلي
يا امتي !.. أنا أين ؟.. في هذي الخرائب والطلول
أغمي علي ومت عن لذع الضياع ، عن الذهول
ثم انتبهت على يدي امي ، ومجتمع مهول :
هم اخوة الوطن الجديد ، رفاق درب المستحيل
اللاجئون الى المخيم من ربى عز « الجليل »
خلفاء « عيسى » في العذاب ، فيا لقومي للوصول

— ٥ —
يا غيرة الانسان

قلبت طرفي بالجفون الذابلات من الورود
ورأيت اخوان الشهيد رفيف أنفاس الشهيد
ورأيت آثار الجريمة فوق ايضاح الشهود
الله يعلم والسما والارض : انهم شهودي
ان البغاة الظالمين جنوا على هذا الطريد
وجنوا على هذا اليتيم ودنسوا قدس الحدود
يا غيرة الانسان ، للانسان يرسف بالقيود
فمتى نحرر من ميول ، راضيات الظلم ، سود ؟
حملت رواسب ضاريات الغاب من بيد العهود
ومتى الصباح يطل يا انسان بالفجر الجديد ؟
فجر التساوي بالضياء ، يشع في كل الوجود ،
فجر العدالة حيث ينتصف الشقي من السعيد
ويرد للدار المشرد في متاهات الوعود

**

أنا كيف اصبر يا دنى ؟ أنا كيف احيا في جمودي؟
انا كيف ارضى بالرغيف ، من البغاة ، وبالنقود؟
هل يشترون كرامة الانسان في سوق العبيد؟
انا لست ارضى بالمصير ، وممعن ابدا جحودي
حتى اعود اليك يا ارضي ، وانت لنا تعودي .

— ٦ —
مبادىء الانسان

البيت بيتي عش دفيء لا صقيع الزمهرير
فلم أشرد بالعراء ، ويستوي بالبيت غيري ؟
العدل يقضي غير ذلك يا أبا قوسي الضمير
ومبادىء الانسان ، ساطعة الشرائع للبصير
أي المحاكم للدجى تقضي على نور المنير ؟
وبأي مبدأ أمة غيري يحكم في مصيري؟
أنا ثائر باسم العدالة ، يا دعاة ، على الشرور
ودفاع أيماني سيشرق بالنتيجة كل خير
وقضيتي : أن يرجع الشعب المشرد للسرور
وترف أجنحة الطيور بجو رقرقة الغدير
وأرى « فلسطين » الجريحة في مقدسها الطهور
حكم العدالة صائر لا بد في شرع القدير
سلحت جيشي بالعواطف والمحبة والشعور
وغدا أسلحه بأنياب الكواسر والنسور

**

زحفي المقدس ، يا فلسطين الحبيبة ، أنت نوري
وغدا يسير المنصفون معي باصباح المسير

— ٧ —
غفران

أنا يا فلسطين الحبيبة عائد فاستقبليني
أنا ذلك الطفل الذي !! يا أم هلا تذكريني ؟
هذي حقول النور في ارضي وغاب الياسمين
وملاعب الذكرى وأيام الصبابة والفتون .
« يافا » ذكرت محبتي وذكرت يا « يافا » حنيني؟
وذكرت الهامي بغازية القلوب من العيون؟
وذكرت شعري عن فواتن حينا الهاني الامين؟
أذكرتني أيام يا « يافا » بحبك تغمريني؟
أيام دولتي : ألصبا والحب ، يا كل الفنون
وهفيف أنعام على قلبي لغادته يريني
كل الدروب المفضيات الى الجمال مدى السنين
آمنت يا « يافا » بلا وطن تضيعني ظنوني
وأضيع عن نفسي وعن فني الجميل وعن يقيني
لا حسن يغري بالهوى ، بعد النوى ، قلبي وعيني
لا شيء في الدنيا سوى وطني يملكني سكوني

**

فرجعت يا وطني أحبك فوق احساسي وكوني
وعزفت شوقي يا حبيب اليك في الهجر اللعين
لو ملكوني الكون لا ارضى سواك ولو نهوني

**

أنعيم طمأنة الرضى بعد التشرد تحضنيني
فأحس بالغفران حتى للجناة ، ومن رموني .

اسعد العلي

الشعر العربي الحديث ونكبة فلسطين

بقلم اسماعيل عدره

مهما غلا ادباء « الفن للفن » وتساوقت في مخيلاتهم اطياف الهجوع في رحاب الروح الهائمة ، فان الفن ، والشعر منه بخاصة ، يبقى يتلاحم مع الحياة والكون والانسان . فالبيئة توحي للفنان بخصوبة نفسية مشبوبة ، والفن يستلهم بدوره ، البيئة مقوماته ووجوده ومادته ،فكأن الفن والبيئة حتمية كونية ، ونبع يستقيان منه مادة حياتهما .. فهما متعانقان متلاحمان !!

والادب يسمو عطاؤه ويعمق ، حين تصطخب شؤون الحياة في بيئة ما ، ويفترس ازاهيرها واحد غريب ، يستهدف فناءها بعد اذلال وتشتت . فيبرز الادب ترجمانا للمشاعر المتمردة ،ومعبرا حيا عن وجدان الامة واحساسها في واقعها الجديد الطارىء .

لقد هزت نكبة فلسطين وجدان الامة العربية ، وأرثت في مشاعرها روحا حائرا ناقما ، يسخط على الانسان والكون والمفاهيم .. فالجرح يسيل دمه من صدرها اللاهث ، وينز صديده اللاغب ويصور الارتكاس العميق في النفس الحائرة ، وقد مسها الضر ولفحها الضياع ..

ومرحلة الحيرة والتمزق النفسي في وجدان الامة مقياس دقيق لادبها وفنها ، وانعكاس صادق الوقع لاصالتها وقدرتها على مجابهة الالم. واذا كان الالم يولد عبقريات الامة ، ويفجر طاقاتها النفسية والوجدانية، فان الفن هو المصور الحي لهذه الطاقات ، يستقطب غناها ، ويتشوف اثارها ، ويشدوها للتاريخ شذرات خلود ونفحات بقاء ..

غام الشعر العربي الحديث .. غامت مفاهيمه ، وضلت قيمه بين تقليدية متزمتة ، ممعنة في التزمت ، وبين نزوع جديد نحو تقييم جديد للشعر العربي ، ينهض على اشلاء القديم .. كذلك ضاع بين نزعة ملتزمة ، ممعنة في الالتزام ، حتى لترى في الفن كله نأمة محروم، او شهقة مكلوم ، او صفعة ظالم ، وبين انعتاقية موغلة في الخيال وتنكب دروب الشعوب ، والشموخ الى سفوح الازاهير ، وامواج البحار، يضيع الشاعر في عبابها عله يلقى نفسه الضائعة !!

انها مرحلة .. لا بد من عبورها ، يحتمها منطق الحياة المتطورة ، ويفرضها تطلع جديد ، الى مذاهب ادبية مستقرة .. فالشعر الغربي الذي غدا الان ذا مقاييس ثابتة ، وتقييم فني دان من الكمال ، مر بشتى المراحل والمذاهب ، وغاص في غنائيته دهرا طويلا ، حتى بلغ شاطىء القيمة الراسخة .. لقد كانت اشعار « بندار » – ٥٢١ – ٤٤١ ق.م.– تغنى في اليونان على المعازف والدف ، على حين غدا هذا الشعر الاوروبي في القرن الخامس عشر للميلاد تعبيرا عن ذاتية الشاعر والامه، وتصويرا لروحه ونفسه ، مثّل هذه النزعة المتطورة الشاعر الفرنسي « فرانسوا فيلون – ١٤٣١ – ١٤٨٩ م. » .. ثم ينداح الزمن ويتطور الشعر فنرى في جان جاك روسو ، اول اديب مهد السبيل للتحرر من قيود المدرسة الكلاسيكية ، وادخل في الادب الفرنسي وصف الطبيعة الكبرى .. وحتى هوغو ، وهو احد زعماء المذهب الرومانسي ، كان شعره يصور الحياة الطبيعية ، ويعبر في آن معا ، عن حرية شعبه ومثل امته في قصائد اتسمت بالثورة على القديم ، والتمرد على شعر الطبيعة نفسه .. وهذه الحقيقة تبرز صارخة جلية في ديوانه « اغاني الشفق ، واسطورة القرون » .

انها سنة الحياة وقانون التطور يسودان الشعر العربي المعاصر .

اصداء حزينة ، وصرخات تائهة تقود الشاعر العربي المعاصر ..انها من الجنوب .. من البلد الذي سماه اليهود « ارض الميعاد » .. تتمخض عن تزييف شائق لارادة الانسان ورسالة السماء ، وامانة التاريخ .. فالعرب يمسحون جراحهم في مصر والعراق ، ويضمدونها في سورية والحجاز ، والانجليز يمنحون اليهود وطنا قوميا في فلسطين ، ويحمل وزيرهم « بلفور » الهبة الحزينة ينثرها في ايدي اليهود ، ويغمرها بثناء دولته العادلة الجانية على رغبات الدخلاء ..

كان لا بد للشعر ان يثور ، وللشاعر ان يسخط .. فاذا ظل السيف في غمده ، فليشرع ابراهيم طوقان حراب الشعر الى صدور الانجليز :

قد شهدنا لعدلكم بالعداله ... وختمنا لجندكم بالبسالة
وعرفنا بكم صديقا وفيا ... كيف ننسى انتدابه واحتلاله ؟!
وخجلنا من « لطفكم » يوم قلنم ... وعد بلفور نافذ لا محالة
ولئن ساء حالنا فكفانا ... انكم عندنا باحسن حاله

انها السخرية المريرة بالدولة القوية تسطو على حقوق الشعب الجريح وتزور تاريخه ..

ثم يتدفق سيل اليهود على فلسطين ، يفترس منشآتها ، ويحطم قواها ، ويطغي على ينابيعها .. وعرب فلسطين لاهون ضالون ، يستنيمون للذئب يمزق شياههم ، وللدخلاء يصوحون الزنابق في خمائلهم ، فيصور طوفان هذا التسلل الغادر ، وتدوي صيحته المؤمنة لعلها توقظ الهاجعين والمدلجين :

يهاجر الف ثم الف مهربا ... ويدخل الف سائحا غير آيب
وفي البحر الاف كأن عبابه ... وامواجه مشحونة في المراكب !!
بني وطني ، هل يقظة بعد رقدة ... وهل من شعاع بين تلك الغياهب ؟!

وينتبه النائمون لصيحة طوقان .. السيل يتدفق ، وامواجه العاتية تدنو منهم وشيكا لتجرفهم الى قاع مجهول ومصير حالك حزين. لكنهم ما عتموا ان عاودوا الرقاد .. فزعماؤهم امناء على البلاد ، حراص على امانة الاجداد ، فليقروا عيونا ، وليغفوا بان وسلام على هدير هؤلاء الزعماء وخطبهم .. لكن الشعر المؤمن الصامد يدرك خيانة الزعماء وتواطؤهم مع الغاصبين ، فتنداح صرخة طوقان مرة ثانية لتحرك الراقدين على صخب الخيانة :

فالى متى يا بن البلاد وانت تؤخذ بالحماسه
والى متى زعماء قومك يخلبونك بالكياسه ؟
ولكم احطنا خائنا .. منهم بهالات القداسة ؟!

ويمضي الشعر يؤجج في الصدور الثورة والعنف ، ويمور على الشفاه اغاني للحياة والحرية والتاريخ .. ثم يحدث اللقاء الاول بين العرب والدخلاء في ميادين الموت .. لقاء يحمل الموت للعرب الغافلين، وقد ظهروا في ميادين الموت : على وجوههم بسمات يابسة ، وفي صدورهم ايمان لاهث عاتم ، ومن حول بلدهم زعماء الامة يحنون – واذل المروءة ! – للدخيل هام التاريخ العربي ، ويجتثون من غراسه الجريحة، غرسة فلسطين ليتفيأ اليهود ظلها الظليل ، حين تلفحهم نار العرب !..

ويخضب الدم العربي مسارب القدس وثرى فلسطين ، وتتمزق حناجر الايامى واليتامى حداء للزعماء والملوك . لكن هؤلاء يزورون على صراخ التائهين ، فيعصر ازورارهم قلب ابى سلمى :

ايه ملوك العرب لا كنتم ملوكا في الوجود
هل تشهدون محاكم التفتيش في العصر الجديد
قوموا اسمعوا من كل ناحية يصيح دم الشهيد
قوموا انظروا الاهلين ، بين الوعد ضاعوا والوعود
ما بين ملقى في السجون وبين منفي شريد
او بين ارملة تولول او يتيم او فقيد
قوموا انظروا الوطن الذبيح من الوريد الى الوريد !!

لكنهم لا يسمعون .. لا يشهدون .. لا ينظرون !! ..

واني يسمعون وفي اذانهم وقر ؟ وكيف ينظرون ويشهدون وعلى عيونهم غياهب الخنوع ؟! .. ولم لا يثور الشعب في وجوه الغاصبين؟.. ان اللقاء الاول في ميادين الموت تخطف من العرب النفوس والعيون ، فليمضوا ذائدين عن عرينهم اذا ارادوا للعرين ان لا تقعى فيه الذئاب . لكنهم مضوا لا الى ميادين الموت ، وانما الى الاحلام والشرود ليغرسوا الالم والحزن والحسرة في نفس الشاعر برهان الدين العبوشي :

لهفي على الليث المهدد غابه ... ما كان اجدر لو يموت بغابه
والحر يدفع عن حماه بسيفه ... فاذا تحطم سيفه فبنابه
فلنمش للموت الزؤام كما مشى ... جيش النبي بشيبه وشبابه

هذه الصيحات الساخطة الثائرة ، تعبر بالقوم اصداء حزينة ، ومشاعر لاهبة مخضبة بدم الشعراء ، فلم تلق في صدورهم الا لهاثا متعبا ، واحلاما كبارا ، وقوة ممزقة على صدور الزعماء .. ان السيل الجائر قد بدت طلائع امواجه ، وهدير هذه الامواج جدير بايقاظ اللاهين لدرئه عن الثرى المقدس والرحاب المباركة . غير ان الشعر وحده برز للموج يصاوله بصبر وايمان وقوة .. لا ينكفىء امامه ولا يترك الدروب خلوا من الزحف ..فيغني طوقان حداء الشعر ، وينذر بالمصير الحالك:

امامك ايها العربي يوم ... تشيب لهوله سود النواصي
وانت كما عهدتك لا تبالي ... بغير مظاهر العبث الرخاص
مصيرك بات يلمسه الاداني ... وسار حديثه بين الاقاصي
فلا رحب القصور غدا بباق ... لساكنها ولا ضيق الخصاص !

لقد احس طوقان بالنكبة والمأساة .. انها نكبة تنذر بعاقبة قاتلة .. نكبة ينزح ازاء ضراوتها وبطشها اهل البلاد ، مخلفين القصور والاكواخ والارض والديار ..

وتقع النكبة ... النكبة الكبرى ، وتبرح جموع النازحين القدس وحيفا ويافا ، مخلفين القصور والاكواخ والارض والديار ، وعلى شفاههم بقايا نشيد طوقان ، باهتة ، كئيبة :

فلا رحب القصور غدا بباق ... لساكنها ، ولا ضيق الخصاص!!

وتعربد المشاعر في نفوس الشعراء ، وتستعر لهواثهم شدوا للثار والثورة ، ويغترف الشعر العربي كل مادته من النكبة .. من الجراح تنزف اللعنة على العبث والضلال والحس المخدر ، ويكوكب صيحاته اعاصير تدمير وموت .. النازحون مشردون على دروب الضياع والالم ، وحقول الليمون يستولي عليها الدخلاء الغاصبون . بؤس كالح يستشري كالموت في فلسطين ، وغدر محتل جائر يفح ختلا وغدرا في المهاد المقدسة .. فليغن الشعراء موت السماء .. ولينعوا للانسان موت الانسان ! .. مات الانسان ، افترسه الغدر ، وبيعت كرامة العربي بالذل والخنوع .. فليصب عيسى الناعوري لعنة الاجيال على اليوم المشؤوم :

يا لعنة الزمن البغيض واسوأ الايام ذكرى
هذي ضحاياك الكثار تميتها الايام قهرا
تقضي الحياة على الطوى ، وتلوك مسغبة وصبرا
يا صورة الجبن الاذل وابغض الايام طرا
لا كنت من يوم به صار انتخاء العرب غدرا !!
وكرامة الشعب العريق هدرتها ، ومضيت ، هدرا !

ولكن اليوم المشؤوم كان ... وهدرت كرامة الشعب العريق ، وتخطف الدخيل ازاهير الحياة يبترها زهرة زهرة تتلو زهرة ..

النازحون في الخيام ، يتدثرون الهشيم ، ويقتاتون الندم والبؤس والتشرد .. انهم على الدروب هائمون .. لقد ضلوا معارج الوجود الحر ، فهاموا على وجوههم تائهين .. لا يحتويهم مرج معشوشب النبت، اخضر ، ولا يردون نبعا يتدفق بالماء السلسبيل .. هم في مهمه الحياة ، ضائعون ..

يا رفاق الدهر هل شردكم ... في الورى غدر عدو ام محب
زعماء دنسوا تاريخكم ... وملوك شردوكم دون ذنب
وجيوش غفر الله لها ... سلمت اوطانكم من غير حرب
دول تحسبها شرقية ... واذا امعنت فالحاكم غربي !

« دول » عربية سبع تداعت على فلسطين تنتشلها من براثن الذئب، وتحوط البقاع المقدسة بقوة السلاح .. فتنكفىء ازاء الذئب ، وقد تركته يعيث تمزيقا ونهشا في الجثة المسجاة على اشداق الذل ..ان هذا ما يضرم مشاعر النازحين ، ويشحن عواطف الشعراء بالحقد والنقمة ، فتصور اليراعة الغاضبة ، الهزيمة الذليلة ، تصويرا هو اشد هولا ، واعمق جرحا من كل عقوبة مادية .. لم تكن الهزيمة الذليلة الا خيانة الحاكمين ، نثرت الامة على ايديهم مقاليدها ، فباعوا بلادها . واذن فلتسمع اذن الدنيا ابا سلمى ، وهو يندد بالحاكمين ، ويصفع الخائنين :

قالوا : الكرامة ، قلنا : اين صاحبها ؟
قالوا : الرجولة ، قلنا : ايهم رجل ؟!
باعوا فلسطين فلتهنأ ضمائرهم
اما نراها على « الدولار » تشتعل ؟!

من المسؤول ، حقيقة ، عن الهزيمة الذليلة ؟

حتى الشعراء وهم يعانون الام النكبة ، ويعيشون الواقع المرير، يذهبون كل مذهب في اسباب الهزيمة . فاذا كان ابو سلمى وطوفان ومحمود الحوت والناعوري والعبوشي يرون في الزعماء العرب سببا مشينا في الانحدار ، ويسجلون للتاريخ خيانات هؤلاء وغدرهم ، فان هارون هاشم رشيد يدمغ الانجليز الطغاة في حدوث النكبة :

لولا خداع الانجليز وغدرهم ... ما عاث في ارض الاسود كلاب
والغرب ! . يا للغرب ان قدومه ... نحو البلاد مصيبة وخراب
هو اخطبوط فاجر مستعمر ... في كل ناحية له اذناب

وسواء أكانت الخيانة سبب الهزيمة او الانجليز ، فان من حق الشعر ان يعمق حقيقة المأساة ، وان يعيش الالام والاحزان .. فالنازح العربي ارتقب العودة الى بياراته ومنزله ، الى زيتونه وليمونه ، يجنيه بين اهازيج العودة ، ويقذف به رفاق الحقل ، وجيران الدار تعبيرا عن مشاعر البهجة .. واخذ يرنو الى البعيد .. أيعود ؟!

والى اين يعود ؟! ومن هو ؟ .. نازح الفت به الاقدار في مهاوي التشريد ، فاضاع نفسه ، وضل دربه ، فتنكر للقدر وقد فصله عن دياره .. ويصور الشاعر بشر قيطي هذه الحيرة والتشرد والتسآل :

من اين انت ؟ .. وزمجرت كلماته في مسمعيا

لكن النازح الشريد يأنف ان ينسى بلاده .. انه من هناك .. من المهاد التي باركها الله .. من فلسطين :

انا من تلال الرملة البيضاء ذهبها الاصيل
من سفح غزة ، من ربوع اللد ، تحضنها السهول
انا من ضلوع القدس ، شرحها بمبضعه الدخيل
انا من معين الثار ، من ثغر الاعاصير الغضاب
انا من فلسطين التي انتفضت على قصف الحراب
قد ضلل الدخلاء شعبا جاهلا غض الاهاب

ثم تتالى محن النازحين ، ويتداح الزمن سنين طوالا، فيجف امل العودة ، في الحناجر . وعلى الشفاه المتشققة المربدة ، يظل طيف شاحب لحلم باهت بعيد ، يطفىء في العيون الومض الغاضب ، ويشوب الوجوه بالوان قاتمة حزينة .. انهم وحدهم يحملون الوزر الكبير ،فاذا ترنحت اجسامهم تحت وطأته فليخمدوا في الصدور حشرجة الغضب والحقد ، وليمضوا الى حتفهم صاغرين !! .

اليأس من العودة ، بدأ يتخطف نفوسهم ، ويهيمن على نفوسهم وقواهم ، ولفح الهجير يضرج وجوههم في قيظه وموته ، ورياح الزمهرير

تعصف بخيامهم فتقتلعها من جذورها الواهنة ، فتنعكس هذه الالام ثورة مكبوحة في قلب ابي سلمى :

يا اخي .. ايها المشرد ، قل لي هـل تحس اللهيب في انشادي
ان في الدرب مـن خطاك دماء كيف لا يهتدي بها كل غاد ؟!
من سيروي تاريخ خيمتك السوداء في كـل سامر او نـاد ؟
نشرتها الرياح في الافق الدامي وقد اصبحت شعـار حـداد
حملتها العصور نـارا تلظى وسمت كـل ناطق بالضـاد
وشظايا الاشلاء في كل ارض مشرعات الى صدور الاعادي

لم يهن النازحون .. ان ناقوس العودة يدقه اليهم الشعراء .. يحدوهم للصبر والعودة الى الديار .. لقد قسروا على ترك الديار، وانبرى الدخلاء يتربعون على سفوحها الخضراء . لكن لا بد لليل مـن اخر ، ولا بد للفجر ان ينبلج مهما طال الليل ، وتكومت السحب الكدراء .. ان انغام الشعر تنساب الى صدورهم تغني اناشيد العودة ، وتحدد الثأر يوما كيوم هزيمتهم ، اسود ، مربدا ، يقتلع اشواك الشر من ريـاض الجمال والحق والخير .. والشعر ناي النازحين ينبثق بغناء العودة على شفاه سعد دعبيس :

ولسوف يطلـع فجرنا يومـا على هـذي الربوع
ولسوف ادخل قريتي واعود للبيت الوديـع
واضم قبر ابي والثم قبـر امـي فـي خشوع
ساعود احمل حقدي الاعمى علـى جيش الطغاة
ولسوف احمـل مدفعي والوك اكبـاد الجناة

ويصر الشعراء صرير الغضب ، وقد تطاول زمن العودة ،واستشرى خطر الغاصبين .. فيصلي الشعراء في معبد فلسطين ، يصلون لـرب الالم ، ولاله القوة ، صلاة النازحين ، لعل المعبد ينشق عن نبي جديد يمسح الجرح ، وينثر دروب العودة بمشاعل الحياة . لكن الصـلاة ترتسم على الوجوه حيرة وقلقا وضياعا .. لم يتمزق الهيكل ، ولـم يمنح الرب ، النازحين،نبيا جديدا يقطف لهم الكواكب ضفائر نور وحرية واستقرار .. فيكتئب الشعر في محراب الله ، ويهدهد عاطف كـرم الام فلسطين :

يا فلسطين . اي سر وجيع انت في موكب الفدى والعظائم
يا فلسطين ، ما ذكرتك الا وبقلبي جرح على العمر ، ناقم
في ضمير الاجيال ، انت حراب وبجفن الطغاة دمعة نـادم
ولهيب يئج في اضلع العرب ، ويلظى علـى اللهاة الوهـاهم
يـا فداك الشباب يسترخص الموت ، ويبنيك جنة في العوالم
وغدا نحن شعلة الحق في الارض ونار تبيد سفر المظالم !!

اما يوسف الخطيب فينز صدره حزنا وجراحا ودما .. انه ابـن النكبة وشاعرها ، غناها فاسال الدموع ، ورسم طريق العودة ، فكفكف الدموع ، وايقظ القلوب ، واحيا الطيف الباهت لاحلام العودة .. لكن فلسطين اليه ، نبع من الذكريات يمتاح منه صورا شاحبة ، فلا ينضب، ويرفده بذكريات حزانى عبقات بالالم ، فلا يعكوكر .. فلسطين التـي شهدت نزوح شاعرها في امسية قاتمة سوداء ، ستبقى في روحه دفقة الم وجرح عذاب .. فاذا ما الحت الذكرى على الروح المعذبة ، والنفس التي اضرمها الحنين الى العودة ، صاح بالنازحين التائهين :

ذكروني بالله ، بالكرمل الساجي على البحر ، بالربى ، ، بالوهاد
بالظلال الخضراء ،بالكوخ،بالجدول ،ويحي .. لقد اضعت بلادي !!
بقيت لي من الحديقة اشواك ، وقلب دام وعـين سهـاد
ذكروني بالله ، اطياف ماضي ، اضعت التراث من اجدادي

واذا قدر للشاعر ان تغتمض عيناه الاغماضة الاخيرة ، قبل ان يرى فلسطين ، فانه يتوسل للعائدين الظافرين ان يرقدوا روحه هناك ، وان يوسدوه في الثرى المطهار :

واذا مت ، فاجعلوا بعد موتي ، قرب صفصافة ، هناك ، رقادي
لن يطول الفراق ، في الصبح القاكم ، وتزهو بالنصر والاعياد
ويعود البستان والكوخ والنـاي . جميعا لنا بارض المعاد !

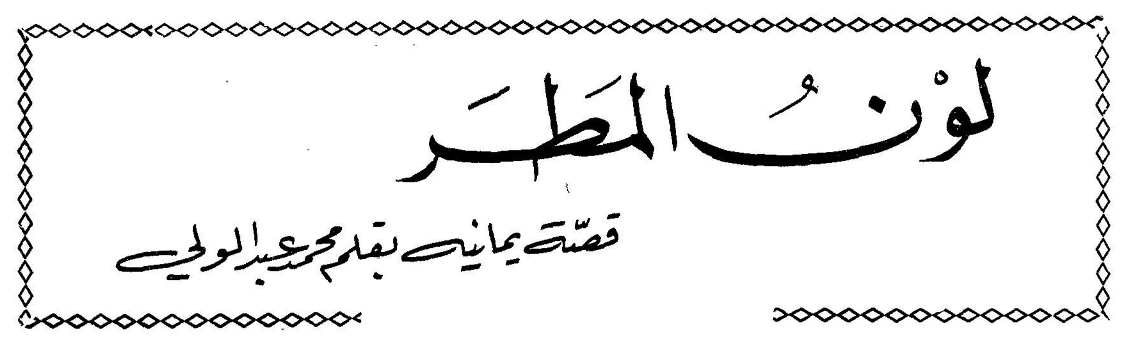
غدت فلسطين محجا لمخيلات الشعراء ونبعا دفاقا يستقون منه روائع الشعر.. اوحت اليهم بالفكرة الحزينة الفنية ، والصور الموجعة الخصبة ، واضفت على الشعر العربي المعاصر لونا جديدا .. هو لون المأساة .. فكم من شاعر ذوب روحه على الايقاع العميق يحدو للنازحين حداء العودة ، ويشدو للعرب شدو الثورة والثأر .. وكم من شاعر وقف ارتعاشات قلبه المضطرم وروحه الحائرة الهائمة ، على كعبـة القدس يعنو اليها بتقديس واجلال ، ويملأ الدنيا بالحان شعرية مؤمنة بالنصر ، وموقنة ان البغي الذي انتصر على الحق ، في غفلة من السماء، لن يمكث في ارض الله طويلا ، لان دموع اليتيم ، وشهقة الجريح،وانين الثكلى ، ودمدمة الغاصبين ، لا بد منطلقة غداة غد ، بجحافلها الى الديار المتعبة ، والحقول الظمأى لاناشيدهم واهازيجهم ..

وكانت صيحات الشعراء تتفجر من احساس بالنكبة ، حاد ، ملتهب، وتنبثق انغاما تتشح بالشعور الثائر ، حتى لكأن الانغام ما تعتم ان تغدو ايقاعا رهيبا يجلجل الدنيا ، ويهز الكون ، ويرفد الزمن بزمن يخلقه من روحه الواثبة ، ووجدانه المصطخب .. فينعكس قسما عميقا على قيثارة علي الحلـي :

قسما باللهيب ، بالزمزمات البكر ، بالنار ، باللظى المفتول
وبقيد الطغاة تخضبه الجدران في السجن ، بالدم المطلول
سوف تنهد كالدمى عند لمح القبس الحي صخـرة المستحيل !!

وحين نؤرخ للشعر العربي في اتون نكبة العرب الكبرى ، فـي العصر الحديث ، نستشف شعرا حيا عانى المأساة بقوتها ، وعـاش النكبة بعمق جراحها ، حتى سلا الشعراء العرب عن كل شيء سواها، فكأن الوجدان العربي الذي امضته جراح فلسطين ، قد فاض حقـدا ونقمة ، يغنيه الشعراء ويرسمون من خلاله صورة حية للامة العـربية التي اوجعتها هذه الجراح ، وارمضها الدم المطلول .. والشعر لسـان الامم المعبر عن صدق وجدانها ، وضرام مشاعرها ، وتوهج روحها ،رائدها الى دروب النصر ، وباعث فيها شعلة الحياة اذا ما اعترى الفتور هذه الحياة .. فهل سيشدو الشعراء العرب في غد قريب شدوا جديدا لنازحين انتصروا على البغي وقهروا الظلام ، وعادوا الى ديارهم بعـد تشرد ربا على خمسة عشر عاما ؟

اسماعيل عدره
ليسانس في الادب العربي
سورية



– هل انت خائف ؟

– لا ، انني ارتجف ... ربما كان ذلك من البرد .. او ...

وصمت قليلا وراح يحملق في الفضاء امامه ، وعادت عيناه بعد ان اصطدمتا بقمم الجبال السوداء ، التي تحتضن الوادي العميق،النائم في صمت خرافي ، صمت خاله ابديا ، حتى وهو يردد صدى طلقات نارية بعيدة .

– انت جائع .. ؟

– ربما ، انني لم اذق طعم اكل حقيقي منذ ايام بعيدة .

– والخبـز ...؟

– لقد مللت منه ...

– ايه .. انك مغفل ، اتعرف .. انني اتشوق له طعما رائعا ؟ لقد مللت ما تسمونه اكلا حقيقيا . عشرون عاما ، ذقت فيها كل شيء ، من الثعابين الصينية حتى شربة الضفادع الافرنسية و ...

– هل ستبدأ في قصة ذلك من جديد .. ؟

– ولم .. لا ، قد يمضي الليل سريعا ، فلا نشعر بالسأم .. او الخـوف ...

– او الجوع ... اليس كذلك .. ؟

– ربما ...

ودوت طلقة من بعيد رددها الاخدود ، فارتجف .

– الم اقل لك انك خائف ...

– ارجوك ، انني اشعر بالبرد فقط ،

– انظر الا تشعر بشيء جديد في هذه الليلة ؟

– ما هـو ؟ قالها بصوت خائف ...

– لقد امطرت السماء في النهار .

– اذن ؟

– الا تشعر بلون المطر الذي غسل كل شيء .. حتى لون القمر...

واشار بيده الى القمر .

– الافضل أن تترك يدك على زناد بندقيتك ، ...

– اوه ... الا تنظر ما اروع كل شيء .. ؟ هل تخيلت عمرك منظرا ساحرا كهذا .. القمر يرسل ضوءه كشلال المطر الذي تساقـط نهارا ، حتى النجوم تشبه انطلاقة القطرات من السحب . ان للمطر لونا لا تشعر به ، الا عندما توده ، وتود تلك الاحياء التي يتساقط فيها، لم اكن اتأثر بالقمر او بالمطر وانا في الباخرة ، كان ذلك يذكرني بالقرية ، انت لا تعرف معنى البحر ، ان تقضي فيه اعواما واعواما ، تشويك الشمس ، ويلتهمك المساء بصمته ، كنت مستعدا لدفع حياتي ثمنا لمنظر كهذا ، الا تلاحظ قمم الجبال المقابلة ، انها واضحة كـــل الوضوح ، بكل تفاصيلها ، انظر هنالك ، سادفع حياتي ثمنا لهذا ،يـــا الهي ، كنت اظنها مجرد مغامرة ، ان احمل السلاح وامضي انشـــد اناشيد الثورة ، كتلك التي كنت اسمعها من عمال الموانيء في فرنسا ، عن الثورة ، ونابليون والمارسيلييز ، ولكن هل رأوا شيئا رائعا كهذا ، القمر يكشف لك كل شيء ، نعم ، كل شيء ...

و .. ضغط على زناد بندقيته ، وردد الجبل الصدى ، وارتجـف الجسد المدد بجانبه

– ما لك .. هل جننت ؟

– لا .. لا شيء ، القمر رائع ، لقد هوى ، الم تلاحظ شيئا ، لذلك انا اعبد القمر ، الضوء الخافت ، انه لا يعطيك كل الصورة ، الظلال تكفي ، لا ترتجف هكذا يا عزيزي ، انت لم تتعود البـرد فـي – عدن – هناك الشمس مضيئة دائما ، ولكنها تثير الضيق احيانا ، انت لم تر جبال الثلج ، عشرين عاما عملت فيها ملاحا ، رأيت كل البحار، وسمعت كل الحكايات ، الا ان اكون جنديا في صفوف الثورة ، تلـك اخر اسطورة كنت اتصور حدوثها ، ولكنها حدثت .

– اسمع يا عزيزي ، لقد سمعت ذلك للمرة العشرين ، ولكنك لاول مرة تثبت لي بانك رام جيد ، لعله يتألم هناك ، او – لعله قد مات .

لم الاحظ اي شيء ، لم اره الا بعد ان هوى ، وصمت قليلا ، ثم قال :

– ولكنك كنت تعيد علي كل ذلك من جديد ، والقمر هو القمر ، الذي يوجد في كل ليلة والنجم والامطار .. لا شيء الا انني غرقت في الاوحال وانا اطارد ذلك الارنب اللعين ظهر اليوم ، لقد كنت ارسم في مخيلتي مائدة لذيذة لارنب مشوي ، ولكني لم اجد سوى الخبـز اليـابس !

وهبت رياح باردة كان لها صرير وهي تعبر شقوق الاخدود ، وردد الجبل صدى انسان يصرخ .. لم يجب عليه احد ، فمات الصدى ،وهوى انسان في القاع ، وارتطم حجر في الوادي العميق .

– اسمع ، اسمع .. هل تحس بشيء ؟

كان صوته خائفا ، وشد بقوة على البندقية .

– لا تخف ، انه صوت هدير المياه ، انه السيل القادم من الشمال، كانت الغيوم تغطي كل المنطقة منذ الصباح ، هذه المياه القادمة بصخب هي حصيلة الامطار التي هطلت ، الا تشعر بصوتها العذب ؟ يخيل الي كأنه هدير جنود يزحفون الى الهدف ، دونما خوف ، يمزقون الصمت والجبن ، لقد تناسوا كل شيء ، حتى وجودهم ، انهم يندفعون ، كـل واحد يتشجع لان اخرين بجانبه ، لو كان وحيدا .. لفر .. ولكنهم جموع . اتدري ، انهم أكثر من شخص واحد ، اتسمع ارتطامهم بالجبال؟ وحتى تساقط الاحجار لا تهمهم ، انهم يندفعون ، كل واحد يشجـع الاخرين ، دونما خوف ، دونما خوف ..

وكان السيل قد بلغ الوادي ، كانوا ممتدين على قمة الجبل . كان الماء يندفع بشدة وقد حمل امامه اشياء كثيرة لم يلاحظوا منها شيئا ، والماء يرتفع وينخفض بعنف ، وصوت ارتطامه يرتفع ويرتفع ، حتـى ظنوا بانه سيلتهمهم . وضمهم صمت عميق والماء يمضي من تحتهم بعيدا، كثعبان اسطوري خرج فجأة من اعماق الجبال بعد سجن دام قرونا ،وراح يحطم كل شيء ..

– ونحن ايضا مثله ، لا ندري ما نلتهم امامنا ، ولكننا نمضي بعنف، ولكوننا مجموعة فنحن لا نشعر بالخوف ، لا يهمنا . ثم نرتطم ، انهـا البداية ، والبداية عنيفة دونما حدود ، كل شيء مباح وقانوني .. مـا دمنا في النهاية سنسقي حقولا وحقولا ، وما دمنا نعطي الصحراء لون اخضرار رائع ، بساطا من السعادة . ان اندفاعنا لن يستمر طويلا،سنهدأ بعد قليل ، ولكنا سنعطي الارض لونا اخر ، حياة اخرى .

وساد صمت . وكان القمر حنونا . والسيل قد مضى بعيدا .

– وماذا عنها ؟ هل كتبت لها شيئا ؟

– مزقت كل شيء .. مع من سأرسل رسائلي ؟ عـدن .. انها

بعيدة الان .. ما كان اغباني ! قلت لها انني ساكتب لها دائما ، لعلها تعتبرني الان بطلا ، وتنتظر مني ان احكي لها اساطير عن بطولاتي ، انها لن تصدق بانني ارتجف عند سماع طلق ناري ، وكان الرصاص ينفرس في اعماقي ، انت اكبر مني ، لقد رأيت عوالم فسيحة ، ولعلك تسخر مني الان .. اما انا ...

وضحك بحزن .

ـ انا مجرد .. طفل .. لا يجيد سوى الحساب والكتابة و .. التحدث عن الوطنية بحماس اجوف ... الشيء الكبير في حياتي هو انني هنا . كنت مستعجلا في قراري هذا ، لو فكرت قليلا ، قليلا فقط، لما كنت هنا ـ انه الحماس ،انا الذي تحدث في الوطنية حتى مل الناس منه ، وها هي ذي الثورة ، كيف اقف بعيدا عنها ؟ كثيرون قالوا لي تطوع ، تطوع ، وتطوعت ، لم يمض على زواجي سوى اشهر ، لم افكر فيها ، قال لي والدها ، لا تخف ، .. انا هنا ، .. وقال الاصدقاء ، نحن هنا .. وها انذا ، ستخجل مني لو قلت لها ما هي الحرب ، وما هو الخوف ... اقول لنفسي ، انني اخاف من اجلها . ولكني كاذب ، ان طعم الحياة اشعر به هنا على لساني .. عند كل طلقة رصاص .

ودوى طلق ناري ، وارتجف ، وجف ريقه ..

ـ لقد هوى ، انهم ملاعين ، يعرفون ان القمر يكشف القمم فيتسلقون الصخور ، ويبحثون عن فجوات ، ولكنه هوى ، هل تشعر بشيء ؟

ـ لا ، لا .. انني خائف حتى الموت ..

ـ لا ، لا تقل ذلك ،استمر في حديثك ، كأن شيئا لم يحدث ...

ـ انت شخص اخر ، قاتلت اليوم ، وقاتلت من قبل ، وربما اكثر من مرة .

ضحك البحار قائلا : ـ ومع اكثر من جهة ، وبدون مبرر ..اما اليوم ، فانا احارب من اجل شيء .. ربما كان ذلك هو لون المطر ، في بلادنا . من قبل حاربت مع الايطاليين ، ثم عدت فحاربت مع الانجليز، ثم عملت مهربا للاسلحة ، ولكني لم اشعر باي لذة ، لم تكن الجبال ، ولا القمر او النجوم حتى ولا لون المطر في بلاد الناس تثيرني ، كنت احلم بهذا ، هذا الهواء البارد ، هذه القمم العارية ، هؤلاء السخفاء المتسللين ، صائدي الذهب والسلاح ، والغباء ، والحالمين بصيد الثورة ، حلمت بكل هؤلاء ، ولم اعرف بانني ، وتحت هذه الامطار،امطار بلادي ، سأكون انا صائدا ، ايه يا بني .. عرفت ارصفة موانيء الدنيا كلها ، نمت على حصاها ، تشردت في ازقة مارسيليا ، وكنت جائعا ، عملت اياما وليالي ، في مخازن الفحم ، وعند لهيب الافران ، وتحت سماء مثلجة ، عرفت معنى ان تحارب حربا ليست هي حربك ، صعب ان ترى وجوها جائعة ، و .. الان .. الا تريدني ان اصرخ فرحا هنا : « لكم انا سعيد .. لكم انا سعيد ؟! » اه .. ساقص كل هذا ، لكل الناس وفي كل مكان ،اه لكم كنت اخجل ان اقول لهم من اين انا ، اما الان ، فلن اخجل مطلقا ، بل ساقص عليهم قصتك ، ابن ـ عدن ـ النائم شبه عار وجائع ، فوق قمم الجبال ، في برد لم يعرف طعمه ، يتغذى بالخبز وحده ، ويحلم بارنب مشوي ، ويكتب رسائل خيالية لامرأة اكثر خيالا .

ـ انني لا اكذب ..

ـ لم اقل لك ذلك ، كل شيء هنا واقعي حتى اصبحت الواقعية لا تصدق !

ومضت عيونهما تبحث عن شيء امامها ، شيء غير الصمت ، او لون المطر ، شيء كانا يحسان بدبيب اقدامه يتقدم كنصل حاد يزرع الموت ، وكان الوادي من تحتهما يمضي بعيدا وقد فقد قوته الاسطورية، كان هادئا ، يمضي الى الجنوب ، لا احد فيهم يعرف من اين يبتدىء ولا اين ينتهي ، وان كانوا يعرفون تماما ما يريد ان يعطيه ، ويعرفون الناس الذين ينتظرونه بفارغ الصبر ، ويعرفون الارض التي تحتضنه وتقبله...

كان الدبيب يقترب ، ويقترب ، وكان لون القمر يصفر ..

ـ كان ذلك في ميناء ، كنت ايامها شابا ، في يدي وريقات خضراء وحمراء ، وفي اعماقي تنفجر رجولة ، لم اكن قد بعت ذراعي لاحد ، كنت اعمل بشرف ، بعرقي وجهدي ، وكنت فرحا لاني خلفت من ورائي اليمن ، لارى عالما جديدا ، كله اضواء وصراخ واناس ، اقل ما تصورته انهم نوع من الملائكة ، في تلك الليلة ، وفي ذلك الميناء ، فقدت رجولتي في احضان اول امرأة ، صادفتها ، كانت عندها طفلة ، اعطيتها بكرم كل اوراقي ، واخذت منها اكثر من رجولتي ، قالت لي اشياء كثيرة ، ولكني لم افهم منها شيئا ، كنت محموما ، لقد قضيت على الباخرة ستة اشهر، هل تعرف معنى الغربة ؟ لم اكن اعرفها ، ولكني لقيتها على سرير تلك المرأة في تلك الليلة ، قبلاتها كانت كاذبة ، لم اشعر بذلك الا في البحر ، عندما استعدت ذاكرتي ، وعرفت انني ابله ، ولكني لم انس تلك الميناء ، ظللت ارسل رسائلي اليها دون ان اعرف حتى عنوانها ، مجرد اسم الميناء ، كان ذلك يكفي لان احبها ، لقد نسيت حتى اسمها، وعدت اليها عدة مرات ، لكنها لم تكن هناك ، لانني عدت اليها بعد ثلاث سنوات ، ذلك هو الشيء الوحيد الذي سميته حبا . اعرف الان انها خدعتني ، اخذت كل شيء ، كل شيء ، ولكنها تركت في فمي مرارة الغربة . لقد زرعت هذه المرارة ، نعم زرعتها ... انت يا عزيزي تملك بيتا ، وحبا واصدقاء ، اه ... اما انا ، فلقد عدت الى اليمن بعد عشرين عاما ، فلم اجد احدا ، كانوا قد مضوا هم ايضا ، وجدت بعض القبور ، ولا شيء غير ذلك ، لكني كنت قد تغيرت بعض الشيء ... هممت بان اعود الى البحر ، الصديق الكبير الذي لم افقد ، والذي هو مستعد دائما لان يحتضنني ، في اية لحظة ، وها انت ذا ترى بانني هنا وليس في مكان اخر ، انها المصادفة وحدها ، اليس كذلك ؟مصادفة، او مجرد حظ تمنيته دائما ، لقد بعت نفسي لاكثر من جيش ، واكثر من شركة ، تعلمت كيف اعمل في باخرة ، وتعلمت كيف امسك ببندقية واقتل اناسا لا اعرفهم وليس بيني وبينهم اية عداوة ... اما اليوم فلا.. انني اعرف ، ولاول مرة لماذا انا هنا ، ولماذا تقع هذه البندقية في يدي ، قد لا اعرف من اقتل ، ولكني اعرف لماذا اقتل ، اتسمع ؟ انني اعرف ولاول مرة منذ عشرين عاما شيئا ما ... صور المقابر لا تزال امامي ، عدت فرحا احمل هدايا ونقودا ، ولكني لم اجد سوى مشاهد قبور امامي ، انني هنا ايضا اصنع مشاهد قبور جديدة ، وربما صنعت واحدا لنفسي .

قاطعه الصوت الاخر ، فجأة : ـ لا تقل ذلك ، ارجوك ..

ـ الصبح يقترب ، سنظل هنا معا ..

ـ نعم فنحن اخر من بقي ..

ـ لا احد يعرف ، قد يكون اخرون استطاعوا مثلنا ان يشقوا لهم طريقا وسط تلك الصخور ..

ـ ربما ..

من بعيد ، لاح ضوء ، ولكن القمر لم يكن قد غاب .

وامامهما بعيدا ... بعيدا ، كانت خطوط تربط السماء بالارض كانت تلوح بعيدا ، وكان لها رائحة عذبة .

ـ انظر ، انه المطر ، الا ترى لونه ؟ لا استطيع ان اصفه ، ولكني احس به احساسا عجيبا ، حتى اني لاشعر بانني استطيع وصفه ..

ـ انني استطيع ان احس برائحته ، رائحة عطر ما .. عطر ما كنت ابيعه في الدكان الذي عملت به ..

اقترب الدبيب ، كانت الارض تخبر بذلك ، واحتواهما الضوء وارتفعت اصوات وكانت طلقات ، عديدة ، وثار غبار خفيف حولهما ، وردد الوادي صدى الطلقات ..

ـ لا تخف ، سنظل معا .

ـ وستحكي ذلك على الباخرة ..

ـ نعم ، ساقول لهم ما هو لون المطر في بلادي .

ـ وساقول لهم في ـ عدن ـ ما هو طعم البرد هنا .

احتوى الجبل هدير ، وكان الماء ينساب في الوادي،هادئا،والجبال تردد الصدى ، صدى الطلقات ، عنيفا ... عنيفا ...

محمد عبد الولي

غنيتهم وبكيتهم ليلـي ورأيتهم يطفون في السيل
لله ما حصدوا ومـا غرسوا قد ضاع بين حوافر الخيل
الصمت يصخب في منازلهم والعشب منطرح على الوحل
وبقيـة الاطـلال شاخصة في الريح ترقب عودة الاهل
كالليـل واجمـة مراكبنـا من يعرف القدر الذي يملي ؟

***

واجر فوق الـدرب رجليا واجيل فـي الاكواخ عينيـا
والرعشة السوداء تغلبني .. وتكاد تلطم حولي الـدنيا
المأتم الغربي يـا ليلى .. يا ما اشد البعد واللقيا
هذا الحطـام يكاد يحرقني أواه كم يشقى وكم يعيا
ما غاب عن ليلى واخيلتـي انـا في ظلام جنونه احيا

***

وامر عـن شبحي صبيين لعبا ونـاما بـين دربـين
ثوباهمـا خـرق مهلهلـة عرفتهما مـن قبل عـامين
الـريح تطويهـا وتنشرهـا وتعيدهـا فـوق الصغيرين
رضيا ذراع الليـل واختفيا مـا اضيع الغرباء في الكون
ووقفـت والعبـرات تغمرني حتى توارى الدرب عن عيني

***

رباه ! كيف اتيت يا اشباح ؟! عودي وخليني مع النـزاح
ماذا ترين هنا ؟ جماجمنا ؟ وقبورنا والنعش والنـواح ؟
عودي فان على الغدير دما والزهر مات ولم يـر الاصباح
وتعفر الاقدام يـا اشباح وتسيل فوق الشوك لا ترتاح
الامس اجمل من حقارتنا الفجر والابطال والارمـاح !

***

ما كنت اعرف قبلها وهما ما كنت اكره قبلها نجمـا
ايامنـا اللاتي غبـرناها كانت علـى علاتها حلمـا
السهـد والاشواق والحمى تقسو على ارواحنا الكلمـى
لن نرحم الاعداء في غدنـا انا رجـال نعشق الظلمـا
القتل والتـدمير مبدؤنـا اعماقنا لا تعـرف السلمـا

***

اكواخنا مـا ابعد السلوى يا مـا امر الظلم والشكوى
القاك في صحوي وفي حلمي وتكاد تلهب قلبي النجـوى
قالوا هنـا خطت مقابركم قلنا جحافل شعبنا اقـوى
الثأر يدفعنا الـى غدنا والسيل عربد فاطلبوا مأوى
كل السدود غدا سننسفها ونعود للارض التي نهـوى

***

وكأنما ينقض الف شهـاب والريح تصرخ في اعالي الغاب
والليل يظلم عـاتيا شرسا تلهو اظافره على الاغـراب
والغيـم تصفعـه جبـابرة ويلوح مثل خرائب الاحقاب
ومعسكـر النـزاح مرتجف مليون غول تنزع الابـواب
وتبيت عند الموت واقفـة اطلالنـا تتـرقب الغيـاب

***

يا موطني اغرودتي سكـرى تتعشـق الحـرية الحمـرا
ذكراك تأسرنـي اتعرفنـي ؟ انا من ترابك حفنة حـيرى
تتقاطـر الايـام كـالحة والقيد يأكل ارجل الاسـرى
ونعود للماضي الذي ولـى فتهزنـا ثـوراتنا الكبـرى
اكفر بمن خانوا ومن غدروا نحن الذين سنطلع الفجرا .

دبي

عبد الرحمن احمد بارود

السيف والصدأ

« يروى ان اميرا قتل تاركا عدة حربه لابنه الصغير كي يثأر له عندما تشاء الالهة . وكانت الارملة تصعد كل عام الى جبل الاولمب لتستشير الالهة عن موعد تسليم الاسلحة الى اليتيم .. »

✶ .... ✶

تأخري ما شئت في الاولمب عند ذلك الاله
واكثري له الصلاه
ولتمنحيه ما يشاء لم تعودي عرضي المصان
تململي غوى ، على اقدامه ، كافعوان
ولتعصري من الصخور في ضميره حنان
غوصي الى ظلام قلبه ، ونقبي مداه
لا ترجعي بلا « قرار »
فلم اعد اطيق بعد لحظة انتظار

...

فخمس عشرة مضت ،
والعلج لم يزل يرش في الربوع نار
نساؤنا هناك لم تزل تنوح، تنذر النذور للنجاه
سماؤنا تلفلف النجوم بالدخان
اصمها عويل رفقتي الصغار
عويلهم يتيه في السماء دونما صدى
انين جارتي يدوخ لائبا ، كأن في ضميره دوار
وكلهم يراقبون ذلك الصغير
بودهم لو ارضعوه من دموعهم ندى
لو اطعموه من قلوبهم .. لعله يصير
ففي التفاف زنده تجمد المصير
وانت تكتمين توصيات والدي بلحظة احتضار
كأنما هناك لم تعد دماء بعلك الامير فوق جبهة الجدار
كانما نسيت في جبينه الجراح
اذ عاد ينثر الدماء في الطريق
عبيرها كنغمة مضت بها تثرثر الرياح
علام ذلك النجيع يومها اريق ؟
لمن ترى اعطاك يومها السلاح والوشاح ؟

...

وخمس عشرة من السنين انزوي بلا اب
فلم يعد لذلك الاله مخرج ، ولا لك اعتذار
لانني كبرت .. لم اعد صبي
وارث والدي يضيع مضغة بشدق ذلك الصدأ
وجبهتي تغوص في الحمأ ،
ولم يزل لوالدي في ذمة الاله ثار
يثير في عروقي الظمأ
ينقط انتظارنا خزيا ، على جباهنا ، وعار
ولم ازل افتق الظلام ، اسأل المدى
وصوتي الذبيح لعبة بكف قردة الزمان
يلوب بين ظلمة الجبال تائه الصدى
وكل ليلة تؤملينني غدا ..
والعام ينزوي وراء ظله جبان
يشير نحو ما يليه زائغ العيون
طوى قوافلا قضوا بحرقة الظنون
لهم بذمة الاله في ذرى اولمب موعد .. ديون
ماتوا وهم على خطاك يحلمون
ويغزلون من تطحلب الوعود ومضة انتصار
بأن يروا في الافق لمعة السنان
وفوق جبهة الصغير في الضحى اكليل غار
لتمطر السماء في الوجوه زغردات موكب يعود
كما وعدتني .. وكل ما وعدتني زهور زيزفون
وخمس عشرة من السنين تنطوي سحاب صيف
ولم زل هنا ، على انتظار موعد الاله ضيف

...

تذكري واليوم عامنا الجديد
وانت تحرقين في عيون ربنا البخور
والمخلب المسعور حول دمعنا يدور
تذكري .. كم سنبل انتظارنا قبور
وكم وعدتني بسيف والدي .. بدرعه الحديد
لكي ازيل عن جدارنا دماه
لكي اسير حيث سار
فلم تزل على دروب قريتي خطاه
زنابقا تسقي شروشها الطيور
بسيفه ستمحي من هذه القلوب الف آه
تذكري وانت خلف غفوة الصخور
بانني ملأت بالزيوت ، فوق النار ، هذه القدور
ان عدت دونما خبر
ستخسرين ، مثلما سأخسر ، الحياة
فلن يخدر القوى اله
ولن اظل ضيف
بلا مشيئة الاله سوف اصنع القدر
اصارع العلوج دون سيف
لن يرسل الاله لي نبي
هناك سوف انتهي .. حيث انتهى ابي
لانني انتظرت خمس عشرة .. ولم اعد صبي.

ممدوح عدوان
جامعة دمشق

لقـــاء كـل مســاء

– تتمة المنشور على الصفحة ٢٠ –

بوضوح . ومثله كان شاطىء اخر يقترب من جانب السفينة الايسر. ذلك اننا كنا قد قاربنا ان ندخل في مضيق كورنثيا الذي شق في صخور الجبال التي كانت تكون برزخ كورنثيا القديم . قلت للدكتور يانابولوس:

– أالى هذه الدرجة انت ناقم يا دكتور على حياتك كطبيب هنا ؟

فانطلقت من الطبيب ضحكة قصيرة وقال :

– ناقم ؟ ليست هذه هي الكلمة التي تعبر عن حقيقة شعـــوري حيال حياتي كطبيب على ظهر سفينة .

وسكت قليلا ثم اطلق حسرة قصيرة قبل ان يقولبلهجة اكثر جدا :

– اننا نتعلم في المدارس تجارب الناس الذين عاشوا قبلنـــا ، مكثفة ملخصة ، لنوفر على انفسنا معاناة تلك التجارب بانفسنا . فـي خلال دراستي الطب في جامعة فينا وفي مستشفيات اثينا ، مثـلا ، كنت اتلقى تجارب مئات الاجيال من البشر ، من عهد ابقراط ، وعهـود اطباء الفراعنة وقدماء الصينيين والهنود قبله ، مجمعة في بضعة الاف من الصفحات . وبذلك وفرت على نفسي عناء الركض وراء كل دقيـق في جسم الانسان ووراء كل مرض في اعضائه . ليت لنا ان نتلقى، في عالم النفس وعالم العاطفة ، تلك التجارب في خلاصات مكثفة ، مثـل خلاصات العلوم ... اذن لوفرنا على انفسنا الاكتواء بالجمر والتقلب في لهب نار القلوب ...

وفي هذه المرة ابتسمت انا قائلا له :

– اين ترى توجد خلاصات التجارب العاطفية التي تتكلم عنهـا يا سيدي ؟ فاني ، لقلة تجربتي ، احوج الناس اليها ...

فلم تتغير لهجة الدكتور يانابولوس ، بل استمر في جديتـــه متابعا كلامه :

– وهل تظنني ، حتى في هذه السن ، اقل حاجة منك الى تجارب غيري ؟ اما تجربتي انا فاني على استعداد ان اضعها بكل سرور تحـت تصرف غيري . وهل حديثي معك الان الا امر من هذا القبيل ؟ .. نعم ان لي تجربة ... تجربة بدأت في غابة من غابات فينا ، وانتهت ...

وسكت محدثي فجأة ثم ضحك وقال :

– هل سمعت بمايرلنغ ؟

قلت متسائلا :

– مـاذا ؟

قال : – يبدو من ملامحك ان هذا الاسم لا يعني عندك شيئا . ولكنه في ذات يوم كان ملء افواه البشر واسماعهم . مايرلنغ ! ... بل انه كان نقطة الانطلاق لمآسي ملايين البشر ، في الحرب العـالمية الاولـــى ....

وسكت قليلا وهو يتطلع الى الشاطىء الذي قرب منا حتى اصبحنا نرى العشب النامي في الشقوق بين صخوره ، ثم اردف يقول :

– ليس بعيدا من فينا ، في قلب غابات جميلة فاتنة ، تقع قـرية مايرلنغ . في هذه القرية ، وفي صباح احد الايام في اواخر القـرن الماضي ، وجدت جثة الارشيدوق رودولف وجثة عشيقته ، في المأساة التي عرفت بمأساة مايرلنغ . كـان الارشيدوق رودولف ولي عهـد الامبراطورية النمسوية ، فاقلق مصرعه الفجائي في مايرلنغ توازن اوروبا التي كانت وراثات العروش فيها خيطا اساسيا في نسج الممـالك والاقطار . لا تظن مما اقوله ان مأساة مايرلنغ قد مستني بشيء ،فليس في عروقي قطرة واحدة من الدم الازرق ، وليس لي اية علاقة باصحاب العروش . لا ... بل لعلني مخطىء في هذا . فلولا ان مايرلنغ كانت مسرحا لتلك المأساة لما اصبحت هذه القرية الصغيرة ، من بين عشرات مثلها في الغابات المحيطة بالعاصمة النمسوية ، مستزادا للسائحين ، ومحجا للعشاق ، ولما قصدتها في ذات يوم في زمرة من اصدقائي ، وبينهم كان صديقي البولوني ستانيسلاس شامسكي ، وكانت شقيقتهايدا شامسكا ...

ونهض الدكتور يانابولوس منكرسيه وانحنى فوق حاجز اسفينة ناظرا الى مقدمتها ، واشار الي قائلا :

– تعال وتأمل ... لقد بدأنا بالدخول في مضيق كورنثيا .

وكنت قد الفت من صاحبي الطبيب طريقته في الحديث ، حـين يقطعه بوقفات وجمل بعيدة عن الموضوع الذي كان يتحدث به . فقمت مطاوعا ، وانحنيت مثله اطلع الى مقدمة سفينتنا التي اخذت بالتباطؤ في سيرها . ورأيت المضيق امامنا وقد تقارب شاطئاه حتى بدا لنـا كشريط من الماء بين جدارين من الصخر مائلين ، مستويين وعاليين . وخيل الي ان هذا الشريط كان من الضيق بحيث انه لن يتسع لسفينتنا في مرورها . ولكن الباخرة كانت تتقدم نحوه بهدوء ، وقد خفت ضجة الالات في اعماقها ، وخفتت ضجة الركاب على سطحها وهم يترقبون ، مثلنا ، دخولها في الشريط المحصور بين جداري الصخر العاليين ...

وظللنا ، انا وصاحبي الطبيب ، برهة ساكتين في تطلعنا الى مدخل المضيق الذي كان يقترب منا ، او بالاحرى اننا كنا نحن الذين نقترب منه ، والى امواج البحر التي كانت تلطم جانبي مركبنا بوداعة كانها كانت تتحبب اليه ، ثم لا تلبث حتى تتراجع وقد علا الزبد زرقتهـا المخضرة . وانفتل الدكتور يانابولوس عائدا الى كرسيه ، فتبعته وفي نفسي ترقب ، وشوق ، الى ان يعاود الحديث عن تجربته التي بـدأت في تلك القرية التي سماها في غابات فينا ...

لم يطل ترقبي ، فقد عاد الدكتور يانابولوس الى الكلام قائلا :

– ايدا شامسا ... لقد كانت الفتاة التي تتصورها احلامنا مثالا للحسن والفتنة ، نحن ابناء هذا المتوسط الذي احرقت شمسه بشراتنا والهبت عواطفنا . كانت بولونية في اصلها النبيل ، ابنة الكـونت سيغموند شامسكي ، ولكن عروقها لم تكن تخلو من دماء بارونات بحـر البلطيق التوتونيين ، فكان جمالها مزيجا ، بل خلاصة ، من جمـال السلاف والجرمان : ذهبية الشعر الى صفرة ، صافية البشرة الـى شحوب ، دقيقة الملامح ، طويلة القامة . ومثل جمالها كانت خصالهـا ، في رقة العاطفة ونبل السلوك ومرح الصبا . وقد احاط اسم اسرتهـا العريق كل ذلك بهالة فاتنة ... فلا تنس اننا كنا حينذاك في اعقاب الحرب العالمية الاولى يوم كان للاسماء العريقة سحرها وقدسيتها . فهل تعجب اذا كنت قد اخذت بكل تلك الفتنة ، وانا شاب في ميعـة الصبا اتردد مع ستانيسلاس ، شقيق ايدا ، على ابهاء الدرس وقاعات مستشفى فينا العام صباحا ، واقضي اغلب امسياتي الى قربها ، بحجـة الدرس في شقة اخيها ، او اصطحبها انا وستانيسلاس الى قــاعات الموسيقى او ملتقيات الشبيبة في عاصمة النمسا ! نعم ... لقد غرقت فيهوى ايدا الى اذني ... اما هي ؟

وسكت محدثي قليلا ، واغمض عينيه قبل أن يجيب على السؤال الذي القاه هو بقوله :

– لقد احبتني ايدا ، هكذا خيل الي ... بل ان الحقيقة كانت هكذا . وما كان لها الا ان تحبني مثلما احببتها . لقد كنت في عينها سليل سكان الالمب والبارناس من شعراء وحكماء والهة ، وقد جعلت مني زمالتي لشقيقها رفيقا دائما لها ، احمل اليها باقاتالورد واراقصها واقرأ عليها ، في العربة التي تطوف بنا بين جنبات غرينتسيغ وكوبنزل من ضواحي فينا ، اشعار هايني وغوته : الى اين كان يقودنا ذلـك الحب ؟ لم نكن نقدر في بدء تعارفنا الى اي مدى كنا سننجرف به ، او ، على الاصح ، لم أكن ادري انا ... فقد عرفت في نهاية الصيف ، وكانت قد مرت شهور ستة على اول لقاء لي بايدا ، بأن عليها ان تعـود الى وارسو ، حيث كان ينتظرها وارث اسرة مثل اسرتها ، ليعقد قـرانه عليها . لقد كانت زيارتها لاخيها في فينا ، حيث كان يدرس الطب ، جزءا من برنامج رحلة جرت فتيات الاسرة الارستوقراطية على القيـام بها قبل ان يضمهن قصر الزوج ذو الابراج العالية ، وضياعه المنبسطة

في سهول بوزنانيا او سيليزيا العليا . عرفت هذا ، بتفصيل وصراحة ، في مايرلنغ ، حيث قادتنا نزهاتنا البعيدة الى القصر الذي يبعد اربعين كيلومترا عن عاصمة النمسا ، وحيث وجدت نفسي نهبا لاحساسين متباينين كل التباين وكلاهما عنيف جارف . اهناك تباين اكبر من التباين بين الغبطة التي تملأ كل جوانحك حين تعرف فجأة بانك محبوب مثلما انت محب ، وبكل القوة التي تحب بها ، وبين الالم الممزق الذي تحس به حين تعرف ان حبك الكبير حب يائس ، مسدودة امامه كل السبل وميتة فيه كل الامال ؟ لقد كنت انا نهب هذين الاحساسين المتعارضين في مايرلنغ ، حين باحت لي ايدا بانها تحبني ، وبأنها ما كانت تبوح لي بهذا الحب لولا انها راحلة غدا الى حيث لن يكون لها عودة ، لا الى فيينا ولا الى اثينا ، الا بعد ان تتزوج من البارون فلانسكي أو فلانوف او فلانيتش ... لست ادري ما اسمه ومن يكون الا انه اخر فرد من سلالة اسرة سلافية مهترئة ، وانه سيحول بيني وبين ايدا الى الابد ...

وكان صوت الدكتور يانابولوس قد اخذ طابعا حادا حين ما بلغ كلامه هذه الجملة ، الا ان هذا الطابع لم يلبث حتى اختفى واكتسى صوته رنة حالمة وهو يتابع كلامه بقوله :

— تصور نفسك مكاني في اصيل ذلك اليوم من ايام الخريف ، تحت شجرة سامقة في زاوية من حديقة القصر الذي عاش فيه رودولف وماري فتشير ليلتهما الاخيرة ، ليلة الحب العنيف الذي وقفت الاعراف والتقاليد امامه فحطمها بالموت . كان طيف العاشقين وحديث مأساتهما يملآن نفسي حين كانت ايدا شامسكا تضع مأساة حبنا نحن ، انا وهي ، امام عيني بكلمات قليلة تتسلل بينها لحظات الصمت وتتخللها الدموع فتجعل منها حديثا مسهبا يمزق القلب . وبعد ان اجهزت حبيبتي بكلماتها القلائل على امالي التي تفتحت للحظة قصيرة ، سألتني هل سأظل احبها بالرغم عن كل ما يفرق بيننا وما سيفصل واحدنا عن الاخر ؟ سألتني هل سأظل اذكرها حين اترك هذه البلاد لاعيش في بلدي في عيادة انيقة تتردد عليها حسان اثينا ، او في مستشفى تؤمه نخبة الاسر الارستوقراطية تبحث بين قاعاته عن الشفاء لابنائها وبناتها ؟ قلت لايدا حينئذ اني لن اتخذ لنفسي عيادة في حي من احياء اثينا ولن اعمل طبيبا في اي من مستشفياتها ، ولكني سأجوب البحار طبيبا ، على ظهر بواخر الشركة التي تملك اسرتي اغلب اسهمها ، واني سأظل دوما ذاكرا لها . قلت لها انه كان لي هوى نفس ، هو هذه المهنة الانسانية التي اعددت نفسي لها ، وهوى قلب هو هي ، ايدا . وانه بعد ان حرم قلبي من هواه فان نفسي لم يعد يهمها ان تجد هواها في اي مكان في مهب الرياح الاربع ، اذ لم تعد تربطها الى مكان بعينه من الارض رابطة . بأي اخلاص واية حرارة قلت تلك الكلمات في ذلك الاصيل في زاوية حديقة قصر مايرلنغ ؟ ... كنت الفظ كلماتي وانا اتطلع الى عيني ايدا الواسعتين في محياها الصافي ، تحت جبينها الذي كان في استدارته وتناسقه يذكرني بجبين القديسة آنا التي رسمها ليوناردو دافنشي مع العذراء ... هل رأيت تلك اللوحة ؟ ينبغي ان تراها لتعلم كم كان ساحرا جبين ايدا الذي كنت اتطلع عليه كأني كنت اقسم به على اني لن انساها في اي اوقيانوس تمخر عبابه السفينة التي سأكون طبيبها . امسكت ايدا بيدي حينذاك وقالت : اذا كنت تحبني يا نيكولاس ، فاذكرني كل ليلة ولو لحظة قصيرة ، دقيقة واحدة تكفيني منك ... اجعل بيننا موعدا في تمام الساعة العاشرة والنصف من كل مساء ... انا سأتذكرك اينما كنت في تلك اللحظة تماما ، اينما كنت سأتذكرك : في الاوبرا ، في قاعة الطعام في قصر زوجي في وارسو ، في مزرعة الاسرة على حدود بوميرانيا ، وسأتذكرك حتى بين ذراعي زوجي اذا كنت بينهما في تلك الدقيقة . تذكرني انت كذلك ... تطلع الى السماء على ظهر سفينتك وتأمل في اي نجم من نجومها وناديني باسمي ... نعم ، ناديني في تمام الساعة العاشرة والنصف من كل مساء ...

وهنا سكت الدكتور يانابولوس بلهجة من انهى حكايته ، او بلهجة من لا يريد ان يروي من حوادثها شيئا بعد الذي رواه . وكانت سفينتنا في تلك الاونة قد توسطت قناة كورنثيا الضيقة ، تمخر في مياهها الراكدة في سكون غريب . فنهضت من مقعدي ، واعتمدت على حاجز الباخرة ، ورحت اتشاغل بالتطلع الى جدار المضيق القائم كالعمودي ، قريبا تكاد تمسه رؤوس الاصابع لو مد الانسان ذراعه ، وبالتأمل في مياه البحر القاتمة في الظل الكثيف لشمس اخر النهار ، الا ما كان من زبد يتطاير رشاشه في المسافة القصيرة بين ادنى جدار السفينة وصخور المضيق . واذ مددت بصري الى امام بدا لي اننا كنا لا نزال بعيدين عن ان نبلغ اخر القناة ، فعدت الى مقعدي الى جوار الطبيب الذي كان لا يزال في صمته ، قد ارخى ذراعيه واصابع كفيه الوردية المصفارة على المسندين ، ونظره ثابت على جدار المضيق الذي كان ينسحب الى وراء ، بصورة بطيئة ومنتظمة ، بتقدم السفينة الى امام .

ولم اتلفظ بأي كلمة استحثت بها الدكتور يانابولوس على متابعة حديثه ، على شدة رغبتي في ان يفعل . فقد كنت اشعر ، في قرارة نفسي ، بغرابة ان ينفض طبيب مجرب ، في الستين من عمره ، بمكنونات صدره وحكاياته الحميمة على مسامع مسافر مجهول ، شاب غر مثلي ، لم يلتق به الا منذ ليلة واحدة . لذا فقد كنت اخشى ان افسد بكلمة واحدة ، انطق بها من غير تقدير ، نظام العوامل المتعددة التي تضافرت فأثارت في نفس الدكتور يانابولوس ، في ساعة المغيب هذه ، رغبته في ان ينفث ما بصدره الى اي انسان يكون بقربه ، وقد كنت انا ذلك الانسان . لقد ظللت ساكتا ، ولعل سكوتي كان دعوة مغرية للطبيب الى ان يعود الى حديثه ، اكثر من الحاحي عليه بذلك لو اني الححت .

فقد بدا لي من تململ الدكتور يانابولوس في جلسته ، ومن تحلل النظرة الثابتة في عينيه ، انه سيعاود الكلام . بل انه فتح فمه ليفعل لولا أن برز الينا من فوهة السلم القريب بحار تقدم الى الطبيب فحياه ، ثم قال له باليونانية جملة جعلته يقوم مبادرا من كرسيه . وقبل ان يترك المكان التفت الي كالمعتذر وقال :

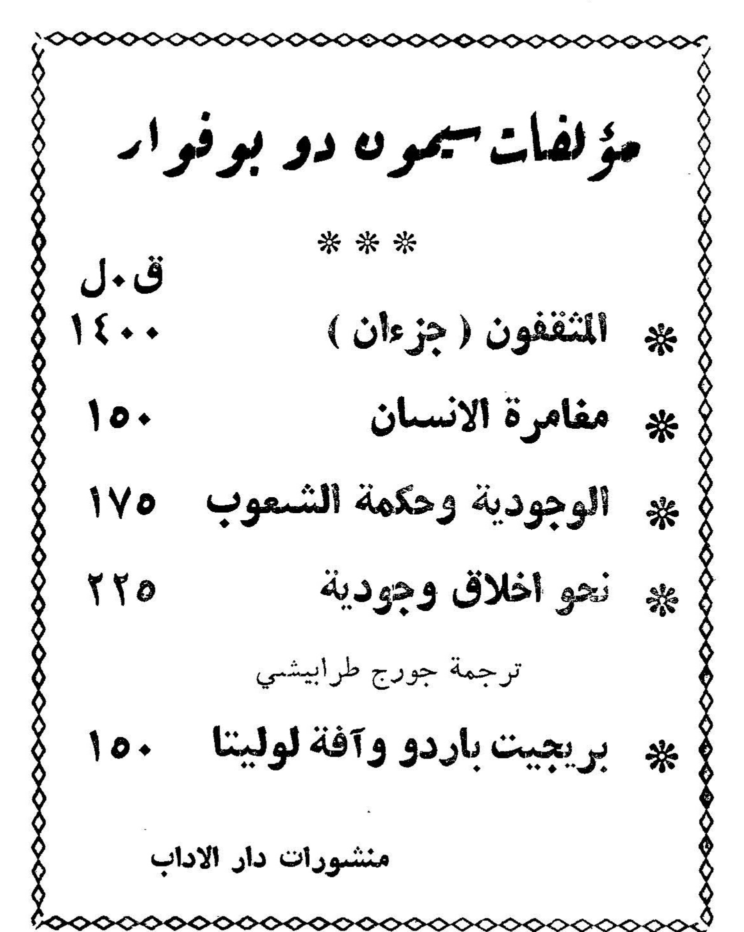
— تمتع بمنظر الافق والبحر دونه حين تخرج السفينة من المضيق ، انه منظر لا ينسى ... والى اللقاء .

— ٤ —

لم التق بالدكتور يانابولوس منفردا في ذلك المساء ولا في اليوم التالي ولا في صباح اليوم الذي بعده . كنت اراه عن بعد على مائدة ضباط الباخرة ، في قاعة طعام الدرجة الاولى ، من خلال نوافذ القاعة ، مكبا على صحنه ، قليل الالتفات الى من حوله ، في حين كان قبطان السفينة وضباطها ، ولا سيما الشبان منهم ، يثرثرون ويضحكون مع الركاب على الموائد المجاورة او مع بعض الفاتنات المدعوات الى مائدة القبطان . وكنت انعمد المرور ، في اوقات مختلفة ، امام الحجرة التي تحمل كلمة « ياتروس » بالاحرف اليونانية فأجد بابها مغلقا ، او اجده مفتوحا ولا احد في الحجرة . اما المر فلم يكن يقف فيه احد ، حتى الكرسي الذي كان يقتعده الطبيب كان مرفوعا من مكانه . وكنت في اعماق نفسي مشوقا الى ان اسمع تتمة القصة التي بدأها الدكتور يانابولوس . هل كانت قصة ؟ في بعض اللحظات ، حين كنت استعيد لنفسي ما رواه طبيب السفينة ونحن نخترق مضيق كورنثيا فأجده مجرد وقائع مبتذلة مما تجري به الحياة في كل آن وكل صقع . في تلك اللحظات كنت اشك في ان الدكتور يانابولوس قد روى لي حقا جزءا من قصة حياته . انه مجرد هذر اراد الطبيب ان يزجي به الوقت مع هذا المسافر الذي كان ينظر اليه بعينين ملؤهما الفضول والدهشة لمجرد كونه طبيبا لسفينة ... طبيب باخرة حياته كلها مغامرات وفي جعبته الاف الاسرار والحكايات . ولكني حين كنت استعيد لهجة الطبيب الجادة ، وذلك التباين بين وقاره كرجل محنك وبين انطلاقه في رواية تفاصيل حياته الشخصية لمسافر غريب ، شاب غر ، كنت ادرك انه لا بد من ان تكون لقصة الدكتور يانابولوس نهاية تبرر اندفاعه في رواية بدايتها . تلك النهاية كنت مشوقا الى ان اسمعها من فم صاحبها الطبيب ، ولذا كنت اتحين لحظة القاه فيها على انفراد فلا اظفر بها . وفيما عدا التردد على المر امام غرفة طبيب الباخرة ، والبحث عن

طريقة اصطنع فيها لقاء طبيعيا مع الدكتور يانابولوس ، كنت اقضي وقتي بين قراءة ما اصطحبته من كتب من بيروت وبين ملاحقة ليليان بين مماشي السفينة وطبقاتها وعلى سلالها .

كانت ليليان ، بين فتيات باليه آموري ، اصغرهن سنا واكثرهن مرحا . وحين كانت رفيقاتها يقضين الوقت حول مائدة ورق اللعب في صالون الدرجة الثانية او على اعلى سطح من الباخرة مضطجعات ، شبه عاريات ، يتزودن من اشعة شمس المتوسط سمرة لايام القر والثلج الشاحب في اوروبا ، كانت ليليان تأخذ بيدي راكضة بين طبقات الباخرة المختلفة بحثا عن لعبة بينغ بونغ او عن حلقة من الشبان يعزفون على الاكورديون ويغنون في احدى زوايا سطح الدرجة الثالثة، او لنلعب امام زمرة من البحارة المتعطلين المتجمعين في اقصى المركب بعض فصول الشعوذة التي التقطتها من سحرة الفرق الليلية في المرابع التي كانت ترقص فيها مع عباليه آموري . وفي الليل،بعد العشاء ، كنا نصعد ، انا وليليان ، على ظهر السفينة ، في مؤخرتها ، فننضم الى الازواج الذين كانوا يتنزهون في ظلال زوارق النجاة او الصناديق الضخمة المشحونة يتسامرون ويتناجون في همس او يتعانقون في صمت وكانت ليليان تحب ان تستند الى حاجز الباخرة في اقصى المؤخرة تتأمل ، في ظلام الليل ، خطي الزبد الابيض اللذين تتركهما الباخرة متباعدين وراءها ، او تقلب نظرها بين انجم الليل اللامعة في السماء فوقنا ، او في الانوار الخافتة الخافقة في شواطىء الجزر البعيدة التي كانت سفينتنا تمر في مستواها . في تلك الاثناء كانت ليليان تلزم الصمت ، على غير عادتها ، وترفع رأسها لنسيم الليل الذي كان يهب على وجهها باردا عليلا ويرسل شعرها متموجا حول عنقها الطويل المتلع . وكنت حينذاك اجد الفرصة الوحيدة التي تسكن فيها ليليان الى مداعبتي ، فاطوق خصرها بذراعي ، او اميل رأسها على كتفي لاغمر وجهي في شعرها المرسل او اسير بشفتي على خدها وئيدا حتى انتهي الى شفتيها فالتقطهما في قبلة ناعمة ، لذيذة على قصرها...



لان ليليان كانت دوما تهرب بشفتيها من قبلاتي ، مفضلة ان تمرغ وجهها على صدري كأنها كانت تبحث باذنها عن قلبي لتسمع دقاته وتتأكد من وجوده !

الا ان تلك اللحظات الشاقة التي كنت اقضيها مع ليليان ، ضامما قدها المشيق الي ، لم تكن تبعد عن ذهني رنين بعض جمل الدكتور يانابولوس ولا بعض تفاصيل قصته التي قصها علي . ففي تلك اللحظات نفسها كانت تتسرب الى خاطري حكاية اللحظة ، بل الدقيقة التي واعدته فيها حبيبته البولونية ان تلتقي به ، بالروح ، لقاء صامتا اينما كان هو وكانت هي . فكنت ، وانا اتأمل مع صديقتي راقصة باليه آموري تقلبات الامواج الكامدة على جانبي السفينة اتخيل الليالي التي كان فيها يقف الدكتور نيكولاس يانابولوس على ظهر السفينة رافعا رأسه الى نجوم السماء التي تلمع فوق المتوسط او فوق اي بحر من بحار اسيا البعيدة او المحيطات المترامية ، بينما تتمثل لنفسه صورة الحبيبة ذات العينين الزرقاوين الواسعتين والجبين الذي يشبه جبين قديسات ليوناردو دافنشي . نرى كم من الامسيات في كم من الرحلات في اي عدد من السنين المتتابعة ظل الدكتور يانابولوس امينا على ذلك الموعد ، موعد الدقيقة الاولى بعد العاشرة والنصف التي ينصرف فيها بجسمه وروحه الى لقاء طيف الحبيبة البعيدة التي تتملص للقائه من عناق زوجها ، او من لوج في اوبرا وارسو او من ثرثرات العجائز او تحبب الشبان في حفل استقبال في قصر احد الكونتات العريقي النسب ؟ هذه الدقيقة ، دقيقة اللقاء الروحي ، كانت اشد ما رواه الطبيب بروزا في ذاكرتي ، لا ادري لماذا ، ربما لانه وقف في قصته عندها ... الا اني كنت في شوق الى ان يحدثني عن تلك الدقيقة بالذات وعن شعوره حين ينصرف الى الخلوة فيها في كل امسية . كنت اريد ان استفهمه هل لحق الابتذال بهذه الدقيقة لطول ما تردد على ميعاده فيها ، ام انها ظلت ، ولا زالت شائقة طافحة بذكرياته وملتهبة بنار حبه ؟

في اليوم الثالث حين كانت الباخرة تحاذي ساحل شبه الجزيرة الايطالية الجنوبي في طريقها الى مضيق مسينا ، عدت الى سطح الباخرة ، قريبا من منتصف الليلة ، بعد ان ودعتني ليليان بقبلة ارسلتها الي برؤوس اصابعها في الهواء وهي تتجه الى جناح النساء في الدرجة الثانية ، فشاهدت في الممر المؤدي الى حجرة الطبيب شبح صاحبي الدكتور يانابولوس معتمدا على حاجز السطح يتطلع الى انوار الشاطىء البعيد التي كانت تلوح كنقاط مضيئة دقيقة ، تلوح تارة وتختفي اخرى. اقتربت منه بهدوء والقيت عليه تحية المساء ، فقال لي دون ان يلتفت الي :

ــ اهذا انت ؟ ... لم ارك منذ دهر .

قلت :

ــ هذا من سوء حظي يا سيدي ... لقد جئت الى هنا في مرات عديدة فلم الفك .

قال :

ــ سنمر بين رأس الحذاء الايطالي وصقلية قبل الفجر . من المؤسف انك لا تستطيع ان ترى بركان اتنا بسبب الظلام . هل قضيت وقتا جميلا على السطح ؟

فحدست انه لا بد من كونه قد رآني وليليان متخاصرين في مؤخرة المركب . واردت ان اربط بين هذا وبين لقائه في الخيال بحبيبته فقلت:

ــ ان ليليان تحب ان تتأمل في النجوم وهي تهرب وراء السفينة في الظلام . يبدو ان كل الفتيات كذلك . لقد حدثتني يا دكتور عن صديقتك التي طلبت منك ان تفكر بها وانت تتأمل في النجوم ، لحظة في كل ليلة .

فسمعته يطلق ضحكة قصيرة ثم يقول :

ــ هل حدثتك بهذا حقا ؟ .. وهل صدقت ذلك الحديث ؟

فخطر لي حينئذ ان فكرتي ، بان كل ما رواه كان حكاية لا اساس لها من الواقع ، كانت صحيحة . وادركتني بذلك خيبة امل ممزوجة بنقمة على نفسي اني كنت ساذجا الى درجة اصدق فيها ببساطة كل ما

يلقى على مسمعي ، وابني على كل حكاية ملفقة تروى لي عالما من الوهم تتعلق نفسي به كأنه واقع ثابت . غير ان الدكتور يانابولوس لم يترك لي مجالا الى ان استمر في تفريغ نفسي ، اذ انه عاد الى الكلام، بلهجة جادة هذه المرة ، وقال :

ــ حسنا . لا تظن اني قصصت عليك رواية ملفقة ، وان كنت في بعض الاحيان اتمنى لو انها كانت كذلك ... ليس كل الاحيان مع ذلك ... فما ادري كيف كانت تكون حياتي لو لم التق بايدا شامسكا، ولو لم افترق عنها بوعد ان نلتقي في كل ليلة في الساعة العاشرة والنصف ... لدقيقة واحدة على الاقل . دقيقة واحدة فيها ستون ثانية ، وكل ثانية تعج باللحظات ، تلتقي اثناءها بروح تحبها وترى فيها، وانت مغمض العينين ، عينين زرقاوين صافيتين تتطلعان اليك بحنان ، او تسمع فيها ، وانت تحدق بنجمة خافقة الضوء في السماء فوقك ، خفوق قلب صغير بحبك ! .. يا صاحبي الصغير ، انا لست قديسا ، ولم اكن في يوم من الايام راهبا ، لا ولا شاعرا ... ولقد عرفت فتيات جميلات كثيرات مثل صاحبتك ليليان ، يفضن مرحا وانوثة . ولكن صدقني ان ليست هناك غبطة مثل غبطة ان تترك في سريرها غانية تدعي المرض لتطلعك على مفاتن جسدها الجميل ، لان لك على السطح موعدا مع طيف حبيب . او مثل ان تتملص من بين ذراعي مرافقتك الشابة الجميلة التي تلصق خدها بخدك في رقصة تانغو حالمة ، لانك تريد ان ترى نور جبين حبيبتك في نور نجمة تلوح بين السحب في ليلة مثقلة الرياح بالمطر ...

وسكت الدكتور يانابولوس ، فسكت اتملى معه ، ولنفسي ، تلك الغبطة التي تكلم عنها . ما اجمل حديثه عن تلك العاطفة ! .. في الحق ان هذا هو الحديث الذي كنت اتوق الى ان استمع اليه حين كنت اتحين الفرص للقاء صاحبي الطبيب بين ممرات السفينة وقمراتها. وما اجمله من حب ! ... لقد خيل الي ان الدكتور يانابولوس قادر على ان يستمر الليلة بطولها في التحدث عن السعادة التي غمره بها حبه الجميل المستحيل وحبيبته النائية الدانية . ووجدتني اسائل نفسي من جديد : اتراه لا يزال الى اليوم ينفرد بنفسه على سطح السفينة دقيقة في تمام الساعة العاشرة والنصف ؟ لا بد ان حبيبته التي يهواها قد اصبحت عجوزا ، جدة ذات اولاد واحفاد ، منذ تركها.. او لعلها لقيت حتفها بحادث عارض او مرض ملم ، او باجتياح جيوش النازية لبلادها ، او انها هاجرت فارة حين احتلت مزارع زوجها تعاونيات الفلاحين في اعقاب جيوش ستالين . ان بداية قصة الطبيب كانت بعد الحرب العالمية ، ومنذ ذلك الحين تغير وجه الارض مرات ومرات ، فاين اصبح عهد الحبيبين بعد كل تلك التغيرات ؟

تجرأت وقلت ، وانا اعبر عن شعوري الصحيح :

ــ هذه قصة تشبه حكايات العشاق الاوائل ، وما كنت اظن انها توجد في هذه الايام . يا لها من سعادة نفسية تلك التي فزت بها يا سيدي ، وانت لها اهل ...

فسكت محدثي فترة طويلة كان اثناءها ثابت الجسم في كرسيه، مغمض العينين ، فتصورت انه كان في هذه الفترة يستعيد بينه وبين نفسه كل السعادة التي كان يغمره بها حبه الفريد . وحين عاد الى الكلام كان الهدوء قد حل محل الحماس الذي اتسم به اخر حديثه . وقال وهو يكمل تعليقي على قصته :

ــ نعم ، انها قصة تشبه حكايات العشاق الاوائل . وكان يمكن ان تستمر كذلك : حب سعيد ، السعادة فيه ناشئة بانه لا غاية منه ولا نهاية له ... لولا انه حضرت ، بعد ستة عشر عاما من رؤيتي الاخيرة لايدا مؤتمرا لطب البحار في تريستا ، واني قصدت من تريستا فيينا فالتقيت هناك بحبيبة فؤادي ...

هتفت مشوقا :

ــ اذن فقد التقيتما مرة اخرى ؟!

قال برزانة :

ــ نعم ، يا صاحبي الصغير ، لقد التقينا . لقيتها في مقصف فندق فخم يقع قرب قصر شونبرن ، في ظاهر العاصمة النمسوية. ستسألني كيف كانت . لقد كانت جميلة جميلة . نعم ، ان عينيها كان قد اكمد لونهما ظل ثقيل لاجفانها حولهما ، الا ان جبينها ، جبين القديسة آن ، كان في نقائه وحسن استدارته كأن السنين التي فرقت بيننا لم تمر عليه .

قلت : ــ وهل عرفتك ؟

قال : ــ نعم ، لقد عرفتني .

قال هذا بلهجة قاطعة كأنه كان ينوي ان يختم به حديثه .وسكت فترة خطر لي فيها انه عاد الى طريقته في تقطيع الحديث ، وانه سيهجر حكايته ليعدد لي اسماء قرى الساحل الصقلي من مضيق مسينا. ولكني سمعته يطلق زفرة كأنها حسرة مكتومة ، ثم يعود الى الكلام بقوله:

ــ نعم لقد عرفتني ايدا . مالت الى الشاب الذي كان يصغرها سنا ، المخنث الذي كان يرافقها ... يساقيها الشمبانيا ويراقصها الرومبا ... مالت اليه وقالت : ((هذا عزيزنا يانابولوس ، الدكتور يانابولوس ، صديق ستانيسلاس وصديقي ... لقد عرفت من ستانيسلاس انك صرت طبيبا بحارا كما كنت تحب ، فأي ريح بحرية هوجاء القت بك الى قلب القارة ايها العزيز)) . وبعد ان عرفتني بمرافقها الذي كانت تسميه انتونيو ، تابعت اسئلتها قائلة : ((هل تذكر يوم افترقنا في مايرلنغ ؟ اراهن انك نسيت ذلك الوعد الذي طلبت منك ان تعدني به . كنا يومذاك اطفالا . وعد ان تفكر بي كل ليلة في الساعة العاشرة ، ام لعلها الحادية عشرة ؟ تفكر بي دقيقة او دقيقتين اكون في اثنائهما افكر بك كذلك فنلتقي هكذا بالروح ، وعلى البعد.. الم اقل لك اننا كنا طفلين ، او مراهقين مسحورين بالرومنتيكية والاخيلة العاطفية ؟! ...)) . نعم هذا ما قالته ايدا لصاحبها انتونيو ولي ، قالته ببساطة ، وظلت تهذر به وبمثله من الكلام حتى كشفت لي عن ان كل ما بنيت عليه حياتي ، حتى تلك اللحظة ، كان زيفا في زيف . وذلك الموعد نفسه ! .. عرفت منها انه لم يكن فكرة عاشقة ولهى ،

بل كان احدى الفكر المبتذلة التي كانت تزخر بها روايات الغرام الرخيصة . كل رفيقاتها المراهقات في المدرسة كان لهن مع عشاقهن مثل ذلك الموعد . لا بد من انك تدرك اي صدمة اصيبت بها من اقوالها . وحين جربت ان احول بينها وبين ان تجهز على روحي المترنحة تحت طعنات كلماتها المتتالية ، مذكرا اياها بمتعة اللقاء الروحي لحبيبين يتجهان بكل مشاعرهما الى امر واحد في اللحظة ذاتها ، قالت لي : ((اوه ايها البحار الحبيب ... انت تعلم ، لانك بحار ، بان لقاء مثل الذي تواعدنا عليه لا يمكن ان يكون . تصور اني كنت في وارسو وان سفينتك كانت تمخر قرب جزائر الباهاما ، واني فكرت بك وانا اتطلع الى نجمة لامعة في السماء ، فهل تظن من الممكن ان تلتقي نظراتي بنظراتك على النجم ؟ ان ساعة يدك انئذ ستشير الى الخامسة مساء او الرابعة ، لا ادري تماما ، فلن يكون هناك اي نجم تنظر اليه ... اليس هذا ما تقوله خطوط الطول المرسومة على الخرائط في حجرة كل قبطان باخرة في انحاء العالم ؟ ... لقد تواعدنا على اللقاء كعشاق يا طبيبي العزيز ، الا ان الفلكيين والجغرافيين وعلماء الفيزياء تدخلوا فيما بيننا فافسدوا علينا المواعيد ! ...)) . هذا ، او اشياء تشابه هذا ، ما قالته ايدا قبل ان تطلق في وجهي ضحكة مخمورة حطمت قهقهاتها الماجنة كل ما بقي من احلام نفسي واوهام ذكرياتي...

وصمت محدثي في هذه المرة صمتا طويلا عذرته فيه . بل انني لم انتظر ان يعود الى الحديث ، ولا كانت بي حاجة الى ان يعود ، فقد كان صمته بليغا ومعبرا عما يدور في مطاوي نفسه . الا ان صوته عاد الى الارتفاع ، متخذا لهجة مجردة من المرارة التي روى بها قصة لقائه بحبيبته ايدا . قال :

– ليس اجمل من الحب . صدقني . والذين يبكون على قبر روميو وجولييت ، او الذين بكوا حين رأوا جولييت تنتحر حينما ظنت حبيبها ميتا وهو نائم ، ثم رأوه يقتل نفسه لانه وجدها قد انتحرت لوجدها به ، هؤلاء لا يدركون ان موت هذين الحبيبين كان بالنسبة لشخصيهما قمة السعادة . كم كان هينا وعذبا لعاشق مثلي ان يلقى الموت في حبه لايدا ؟! .. ان اظل عزبا بلا زوجة ومحروما من الولد ؟ ان الاف البحارة يموتون مثلي عزابا ، ولكن حبي كان يجنبني من ان انتهي بحياتي مثلهم بين حانات الموانىء ومواخيرها . ان افقد النجاح وبعد الصيت والثروة التي بلغها زملائي من اطباء اليابسة ؟ ذلك اهون الامور على نفسي ، فقد ملأ حبي جوانحي بشعور من الاكتفاء اصبح معه كل مطامح الناس ومطامعهم كالقش اليابس في نظر نفسي . كل تلك امور كانت هينة عندي ولا قيمة لها ... فقد كان لي في كل مساء لقاء مع حبيبة تتلاشى كل المحاسن امام محاسنها . لا شيء اجمل من الحب يا صديقي الفتى ، اقول لك هذا مقالة عارف . ولكن ماذا تفعل اذا اكتشفت فجأة ، من حديث قصير يلقى على مسامعك بين كأس من الشمبانيا ورأس صبي مخنث ، انك فقدت الحب ؟ ... انك اضعت عمرك ، وفقدت الاسرة والمجد والمال ، وعشت محروما من كل لذة في سبيل الحب .. وانه لم يكن هناك حب ؟! لهذا تمنيت يا صاحبي الصغير ، منذ يومين ، ان يكون لي شبابك . انها اماني عجوز نادم على ما اضاع به صباه . فتمتع بشبابك ... تمتع بشبابك يا عزيزي ...

– ٥ –

ايتها العزيزة س.

فارقت ليليان في المحطة في باريس . لم اودعها ولم آخذ عنوانها، فقد كان اخوها اليافع في انتظارها ، وكانت هي مشغولة بان تشير اليه بقلم الباركر الذي حملته له هدية من بيروت . وفي باريس رأيت الشانزليزيه والفولي بيرجير وبيغال ، وزرت اللوفر . وفي اللوفر وقفت طويلا امام لوحة ليوناردو دافنشي التي تمثل العذراء والطفل وسانت آن ، فتصورت كيف كان جبين ايدا ابنة الكونت سيغموند شامسكي ، مدورا نقيا يضفي على وجهها الذكي سمات النبل العريق. وفي اللوفر لقيت ماريان الالمانية ، وعرفت بعدها جانين وسوزان وارما ونيكول وسواهن كثيرات ، في باريس وفي غير باريس . وعرفت في بلدي وفي بلادك فلانة وفلانة ممن تعرفين ولا تعرفين . لقد كنت اريد ان اتمتع بشبابي كما نصحني الدكتور يانابولوس . هل اكذب عليك ام افخر بانتصاراتي عندك ؟ ... لقد تمتعت بشبابي .. او انه خيل الي ذلك . ولكني نهم لا اشبع وظامىء لا ارتوي ، وقادني نهمي وظمأي اليك ...

يا عزيزتي ان لك جبينا كجبين القديسة آن . لم اقل لك هذا قبل الان ، ولكن ماذا يكون تجاوبك لو قلته لك ؟ ربما ضحكت مني ورأيته ثناء تافها . ليس جبينك وحده الجميل ، فانت فاتنة جسما وروحا . ظننت اني معك لن ارفع عيني الى امرأة اخرى ، لانك فاتنة جسما وروحا ... ربما ليس لهذا وحده ، بل لان جبينك يشبه جبين القديسة آن . ظننت ، ولكن ...

ولكن لو ان امرأة استطاعت ان تستأثر بي لكنت انت . كل من يقول ان الرجل يركض وراء الانثى في المرأة يهرف بما لا يعرف . انه يركض وراء نفسه ، وراء تمام نفسه التي يشعر بانها لم تكتمل . وهذا هو الحب . هل هناك امرأة تستطيع ان تتم نفس رجل ؟ هنا المسألة . لقد وجد صاحبي الدكتور يانابولوس تمام نفسه في ايدا الجميلة ، الحلوة ، التي لم تعرف الحياة بعد ولم تعرف حقيقة نفسها كامرأة . وكان الدكتور يانابولوس راضيا مكتفيا مرتويا من الحياة بالحب الذي اضفى عليه غبطة دقيقة واحدة من اللقاء في كل ليلة .لقاء بالروح ولكنه هو اللقاء الصحيح . اما انا فاني لم اعرف حبا كهذا ، لم اعرف هذا الحب وان كنت عرفت نساء كثيرات ظننت اني احبهن... عرفت المحبوبات ، ولم اعرف الحب .

يا عزيزتي س. ، ستقولين متى ادركت كل هذا ؟ اين ادركته وكيف ؟ .. لقد ادركته على ديوانك الذي يشبه الديوان الذي تضطجع عليه مدام ريكاميه في لوحة دافيد – واللوحة في اللوفر كذلك ، كما قد تعلمين – . ادركته وانا اضمك الي ، انثى كاملة مدركة قيمة جمالها ومسؤولية افعالها . وحين قلت لي : ((تمتع بشبابك)) ، كانت هذه هي الجملة – المفتاح لادراكي . في كل النساء اللواتي ركضت وراءهن حتى سقطن في حضني كنت ابحث عن الحب الذي وجده يانابولوس قبلي وسعد به . ويانابولوس الذي كفر بالحب لان حبيبه كان دون مستوى اوهامه ، لم يدر اي جحيم هي الحياة اذا امتلأت بالحبيبات واقفرت من الحب ...

وداعا يا س. ! اني اركض وراء فراشة اسمها الحب . الورود التي تحط عليها تذبل ، وعبيرها يتلاشى . وهي ، اي الورود ، تسليني يوما وليلة ، ولكني لا البث حتى اتركها لاعدو وراء الفراشة . يانابولوس ، يانابولوس ! ... اغفر لايدا شامسكا خيانتها ، فانها اعطتك ستة عشر عاما من غبطة ما زلت منذ سنين طويلة ابحث عنها فلا اجد الا المتعة التي تعقبها مرارة في الفم وخواء في الروح ...

وداعا يا س. ! قبلة لثغرك الريان قبل الوداع ، واخرى حانية حادبة على جبينك الفاتن ،

من

م.

عبد السلام العجيلي

نكبة فلسطين في شعر المهجر

بقلم فريد جحا

— ٨ —

ولقد ✶ صب الشعراء نقمتهم وغضبهم على المستعمر وعلى الوزير البريطاني (بلفور) ، الذي اعطى اليهود وعده المشهور ، فقدم لهم به صك السرقة ، الذي استعملوه ظلما وبهتانا في التسلل الى فلسطين.
فنسيب عريضة يحمل على بريطانيا لانها ظلمت العرب مرتين : مرة في نكثها بالوعد الذي قطعته للعرب ، واخرى يوم نفذت الوعد المشؤوم فذبحت به فلسطين :

أحررتمونا لتستعبدوا ... أيسترهن العبد من اعتقه
خفرتم عهود الولاء الجميل ... بوعد لبلفور قد لفقه
ذبحتم فلسطين يا ويحنا ... أبحتم حماها لمسترزقه
أكانت مواعيدهم حكمة ... وكانت مواعيدنا زندقه

ويعجب ابو ماضي في قصيدة له كيف يعطي انسان ما لا يملك ؟ ولماذا لا يعطي قطعة من بلده ؟ فلندن واسعة اوسع من القدس ، وهي تحب اليهود اشد الحب :

فقل لليهود واشياعهم ... لقد خدعتكم بروق المنى
ألا ليت بلفور اعطاكم ... بلادا له لا بلادا لنا
فلندن ارحب من قدسنا ... وانتم احب الى لندن

ويحمل القروي على (منطق الغرب) في قصيدة طويلة . انه منطق المخادع الفاسق السارق ، وفي فلسطين آية نفاقه ، وسرقاته مسجلة في صحائف كتبت بسواد الحرائق ، وروتها السن الشهداء :

من لعرض الحقائق ... من اخاديع فاسق
سارق يدري به ... نصف مليون سارق
في فلسطين آية ... للرسول المنافق
سجلت في صحائف ... من قتام الحرائق
وروتهن السن ... من حبال المشانق

وفيها يحمل على وعد بلفور ، تلك الوثيقة الزائفة التي لا يمكن ان تمحو حق العرب المسجل بعشرات الوثائق . ويا لوعود بريطانيا ما اغربها ! تكون مرة غالية حتى لتذبح امة ، وتكون اخرى رخيصة بسعر الدرهم :

وعد « بلفور » حجة ... للمماري الحاذق
أوتلغي وثيقة ... عشرات الوثائق
أين منكم وفاؤنا ... يوم وعد الوثائق ؟
رب وعد بأمة ... ووعود بدانق

ويحمل صيدح حين زار نيويورك على الامريكيين الذين ترك اليهود فيهم آثارا بلغت اعماق القلب ، وتجلت في سرقة القدس وعبادة المال ، لذلك لا يستطيع الشاعر ان يعيش هناك وهو عربي الروح عربي الهوى :

لا خير في شعب تصهين
فغدا يرابي في الورى ويحابي
سلب العروبة قدسها وأباحه
للفاجرين كناهب وهاب
ان شام في السنجاب ذيلا مذهبا
أفتى بنحر الليث للسنجاب
أوبين ظهريه تطيب اقامتي
والروح روحي والتراب ترابي

ويحمل فرحات على « بلفور » الذي كان جوادا كحاتم ولكن من جيوب الاخرين . لقد تجاوز سخاؤه حد المعقول لانه اعطى بلدا باهله لليهود :

(ولرد) جوده جود ابن طي ... ولكن من جيوب الاخرين
ويعطي عندما يعطي بلادا ... بما فيها برغم القاطنينا
فقد اعطى يهود الارض ارضا ... لاحياء عليها يرزقونا

وقصيدة (وعد بلفور) للشاعر القروي قصيدة طويلة تقع في سبعين بيتا ، تعرضت لاكثر من موضوع ، اروعها في رأيي هذه الوقفة التي يقفها الحق والعدل ليصرعا الباطل والظلم والقوة الفاجرة :

الحق منك ومن وعودك اكبر ... فاحسب حساب الحق يا متجبر
تعد الوعود وتقتضي انجازها ... مهج العباد خسئت يا مستعمر
لو كنت من اهل المكارم لم تكن ... من جيب غيرك محسنا يا «بلفر»
ولقد تفوز ونحن اضعف امة ... وتؤوب مغلوبا وانت الاقدر
فلكم رقى متواضعا اطراقه ... وكبا بفضل ردائه المتكبر
يا ربة الدأماء مهما تكثري ... عدد السفين فعند ربك اكثر
قد بعت مجد الانكليز لتربحي ... مال اليهود نعم هذا المتجر
هدده بالاسطول ارواح الورى ... ان كنت منذرة ففوقك منذر
هذا الفضاء وهذه افلاكه ... فلك عليك من الفضاء مسير
ان تامني خطر البحار فانما ... خطر الارامل واليتامى اخطر
تطوي دوارعك الخضم وربما ... طويت بدمعة ثاكل متحدر

— ٩ —

ولقد كان اللاجئون العرب الذين شردوا عن وطنهم الضحية المباشرة للنكبة التي جعلت منها لا مأساة عربية فحسب بل مأساة انسانية كذلك. لقد حرصت اسرائيل باساليب بربرية من بطش وتنكيل وتخريب على ان يترك الفلسطينيون ديارهم . وهكذا كان ، فلقد غادر فلسطين حوالي المليون من ابنائها يعيش اغلبهم في الخيام حياة البؤس واليتم والشقاء.

هذه القضية ، قضية اللاجئين ، نجد صداها لدى الشاعر زكي قنصل الذي صور رحالهم البائسة بابيات تفتت الكبد : والهفتي على الاحرار امتلات بهم الصحاري والسهول والجبال ، انهم المليون تشردوا تحت كل نجمة ، ونصبوا خيامهم على دروب الرياح بانتظار الغد المجهول . ليلهم أحلام مذعورة ، ونهارهم هول وترحيل ، صيفهم حر يجلدهم كالسوط ، وشتاؤهم قاطع كالسيف . اما الجوع فزارع للآفات لا يرحم . الا تبت يد الغني يزهو بما يقدم لهم من فتات ، وبئس البخيل يمن عليهم بالثوب الارث :

لهفي على احرارهم غصت بهم ... بيد وضاقت انجد وسهول
مليون لاج في العراء تشردوا ... لم يختلج لهوانهم مسؤول
نصبوا على درب الرياح خيامهم ... يذكي جراحهم غد مجهول
ان يرقدوا فالذعر في احلامهم ... واذا صحوا فالهول والترحيل
الحر يجلدهم بنار سياطه ... والقر سيف فوقهم مسلول
والجوع يزرع بينهم آفاته ... فيلم غلة زرعه عزريل
يزهو عليهم بالفتات منعم ... ويمن بالثوب الارث بخيل

✶ تتمة ما نشر في العدد الماضي من الاداب .

ونجد صداها كذلك لدى الشاعر فرحات في قصيدته (الى اللاجئين) التي تتالف من ثلاثة مقاطع . في المقطع الاول تصوير لحالتهم المؤلمة : انهم ضحية الكذب والخيانة ، احتل الذئاب ديارهم وهم في العراء . ترى الى متى يبقون مشردين تفتش عيونهم في الفضاء عن مفتاح الرجاء ؟

أضحية الكذب المقنع والخيانة والرياء
اوت الذئاب الى مضاجعكم وانتم في العراء
افتلبثون مشردين مصيركم بيد القضاء
وعيونكم حرى تفتش عن مفاتيح الرجاء
وقلوبكم ولهى مسعرة تفور بها الدماء

وفي المقطع الثاني يثير الامل في نفوسهم حين يقدم لهم صورا عن البلد السليب الذي تزوره ارواحهم في الليل فتشعر بالنار وتعود تتساءل من المجير ؟ ومتى يدوي نداء البشير بالعودة ؟

حيفا ويافا والجليل وشاطىء البحر الكبير
والسهل والتل المزنر بالزنابق والغدير
وحدائق الليمون والمرج المصيخ الى الخرير
تجتاحها اطيافكم ليلا فتشعر بالسعير
وتحس ان يد الهزيمة تعصر القلب الكبير
فمن المجير ؟ ..
ومتى يهز قلوبنا بدويه صوت البشير

وفي المقطع الثالث استثارة لهمم العرب ، يجب ان يعودوااللاجئون الى ديارهم هازجين باغنية الثار ، والا فالعرب كزهر الزيزفون والمسلمون اذلاء :

ان لم تعودوا للحمى الباكي وانتم تهزجون
والحقد يزأر في مقدمة الكتائب والمنون
والليلة الليلاء مغمضة من الدخن العيون
فالعرب والاسلام في الدنيا كزهر الزيزفون
والمسلمون اذلة تحت القارع يرقصون
ويهمهمون
انا بحمد الله رب العالمين لمسلمون

— ١٠ —

وعلى الرغم من هول النكبة وكونها اعظم كارثة مرت بالعرب في تاريخهم القديم والحديث ، فان العرب ، ومعهم شعراء المهجر لم يفقدوا ثقتهم بالمستقبل ، ولا املهم بان يوم الثار والعودة آت لا ريب فيه . ففرحات يرجو من الشباب وثبة ترجع الحق وتزيل العار ولا تبقي من سيوف العرب سيفا في قراب :

يا شباب العرب ارجو وثبة ... ترجع الحق كريما للنصاب
وتزيل العار والراضي به ... عن غباء جاهلي او تغابي
فاصرخوا الصرخة لا يبقى لها ... من سيوف العرب سيف في قراب
فاذا هذي الروابي استبشرت ... نستمد البشر من هذي الروابي

ويطلب الشاعر نفسه من العدو الذي ركب المركب الخشن — يوم اغار على ديارنا — ان يعد لحده لليوم الموعود ويحمل كفنه ، فسنخلق اليوم الملائم ليوم الثار ، يوم سحقه ، ان لم نجده :

قل للمغير على منازلنا ... كالسيل ينفذ من هنا وهنا
حملت نفسك فوق طاقتها ... وركبت ويحك مركبا خشنا
ان لم يكن زمن يوافقنا ... للثار منك سنخلق الزمنا
فاجعل ضريحك جاهزا ابدا ... واعد نفسك واحمل الكفنا

وصبرا يا فلسطين ، كما يريد حسني غراب ، فلا بد من الفرج بعد طول انتظار ، لان الحرب ستاتي ، وسيحل السيف ما عجزت الكتب عن حله . اما اليهود الاعداء فلينفقوا من الذهب ما يشاؤون فلن يجديهم ذلك نفعا ، لانه سيكون وقود المعركة :

صبرا فلسطين وارقبي فرجا ... لا بد من عجب يأتي به رجب
فالحرب اتية والسيف منتدب ... لحل ما عجزت عن حله الكتب
فلينفقوا في سبيل النصر ما كنزوا ... من السبائك حتى ينفد الذهب
فليعلموا ان ما بثوه من ضرم ... هيهات يصلح الا هم له حطب

وينهي الشاعر صيدح موشحا له عن مجزرة (دير ياسين) بالدعوة الى القوة الماحقة التي هي طريق الخلاص . فيوم يدلهم الجو ويرعد مبشرا بالمعركة ، ليكن العرب برقا متفجرا ، وصاعقة مدمرة ، وريحا تقشع الغيوم الخانقة :

يا بني امي اذا الجو رعد ... فجروا البرق وكونوا الصاعقه
واعصفوا ريحا متى الغيم انعقد ... تقشع الريح الغيوم الخانقه
عاهدوا الله ولا تخشوا احد ... ان بررتم بالعهود السابقة
قد هززنا عرش رب العالمين ... بدعاء من قرار الانفس
رب هديا منك يهدي الحاكمين ... ويقينا نكبة الاندلس

وطالما هدد فرحات اليهود بنهايتهم السوداء حين يندمون ولات حين مندم . يومذاك ستغسل القدس مما لحق بها من ادران ، وستتحول ((تل ابيب)) الى تل متهدم وسط بحر من اللهب :

يا من طغوا وتمادوا عاقدين على ... وعد سخيف بناء شامخ القبب
ستعلمون متى حاق البلاء بكم ... كم في الوعود وفي الامال من كذب
ستندمون ولكن حين لا ندم ... يجدي ولا اسف ينجي من العطب
ستغسل القدس من اوساخ امتكم ... يا امة الوسخ المطلي بالذهب
والتل ، تل ابيب ، سوف نتركها ... تلا من الردم في بحر من اللهب

— ١١ —

ولكي نكون اوفياء لشعر المهجر ، تجاه هذه النكبة ، وللالام النفسي الذي كان يقاسيه الشاعر المهجري لا بد لنا من ان نحيا مع شاعر مهجري لنرى كيف عاش النكبة سنة فسنة ، وشهرا فشهرا ، وكيف كان يحيا بين الياس والامل ، بين السعادة والشقاء ، مع القوة والضعف . نختار الشاعر جورج صيدح الذي ضم ديوانه (حكاية مغترب) كثيرا من قصائد فلسطين ، والذي يمكن ان نسميه منصفين (شاعر النكبة في المهجر) لان المأساة عاشت في اعماق قلبه ، وفجرت فيه الما وحقدا . ففي عام ١٩٣٨ ينظم وثورة فلسطين تملأ نفسه عزة ، قصيدة طويلة فيها حملة على المستعمر الذي خان حليفه ، ثم حملة على اليهود الذين اخذوا خير ارض ، وهم حثالة الدنيا ومشردو الافاق :

واها فلسطين كم غاز قهرت وكم ... جيش رددت عن الاسوار منهزم
حتى لطمت بكف لا سوار لها ... شعب بلا وطن جند بلا علم
حثالة القوم من شتى الديار اتت ... بالعجل تبني له عرشا من الجثم

ثم افتخار بالابطال الذين وقفوا يدافعون عن التراب المقدس : ويدفعون الذئاب الزاحفة الى ارض الانبياء ، وهم لا شك منتصرون اذا كان الاتحاد في صفوفهم :

قل للذئاب من الاوجار زاحفة ... حيدي ففي الغاب اشبال على الاجم
هذا التراث الذي استهوى مطامعكم ... بالمال لا يشترى بل يفتدى بدم
بني فلسطين سيل الغاصبين طما ... كونوا له السد لا يعنو لمقتحم
لو في الصفوف اتحاد لم نكن غرضا ... لكل طاغية يرمي ومحتكم

وفي فرحة الشاعر بالجلاء عن سوريا عام ١٩٤٦ يذكر فلسطين فتذرف الحرية التي اقام الشاعر عرشها في دمشق دموعا على فلسطين لانها اهل لذلك . فليكن قسم العيد في دمشق : ان سحقا لاعدائنا واخذا للثار منهم :

ان اراقت يوم الزفاف دموعا ... ففلسطين بالدموع حريه
في جوار الافراح نوح الحزانى ... يبعث الشجو في النفوس الابيه
فليكن اخذ ثارنا من عدانا ... قسم العيد في دمشق الوفيه

ويهل عام النكبة منذرا بالخطر . فتشرق عين الشاعر بدمعة حرى ويحمل قلبه حقدا على الذين تآمروا على فلسطين وتخلفوا عن نجدتها ، ومع هذا فان قلبه لا يزال عامرا بالامل والثقة ، امل بامته العظيمة التي لا يعدل ايمانه بنهضتها ايمانه بالله ، وثقته بسيوف قومه العتاق :

كفرت بربي لو اني شككت ... بنهضة قومي من العثرة
وعهدي بقومي سيوف عتاق ... على حدها اثر الوقعة
تمر عليهم عوادي الزمان ... مرور الصقال على النصلة

وارض بها بعث الناصري   وأسرى النبي من الكعبة
لارض تفجر بالمعجزات   متى سقيت بدم الثورة

وتمر الايام وتنزل النكبة رهيبة ، ويأتي عيد الاضحى بعد مسرحية القتال ، وتفرض الهدنة على العرب ، فاذا الشاعر متالم متالم ، يائس يائس ، ولكن ما جدوى الدمع يريقه وما نفع الحنان يملأ قلبه ،وفلسطين قد ضاعت ، وقلوب القوم قد تحجرت ، فليقدم لفلسطين ما يستطيع: سهرا في الليل والناس نيام ، وشعرا محبوسا على النكبة،وقلبا معلقا بها:

واهـا فلسطين ماذا   يجديك دمع تحدر
وان اذوب حنانا   وقلب قومي تحجر
واهـا فلسطين ما لي   ينام غيري واسهر
حبست في الصدر همي   فـأن نطقت تفجر
أكلما قلت شعرا   كنت الروي المكرد
على صليبك قلبي   كالناصري تسمر

ويقبل عيد مولد الرسول العربي ، فاذا قلبه يشرق بالامل بعد اليأس ، وهو يذكر امجاد ذلك الرسول العظيم التي لا ينكرها الا مكابر واذا به يتجه نحو النبي لكي يجدد ليلة المعراج ، فيزور القدس ليرى ما فيها من نكد ، حين انقلب اليهودي الجبان بطلا غازيا بعد ان نسي العرب دفع المهانة بالسيف :

يا من سريت على البراق وجزت اشواط العنان
آن الاوان لكي تجدد ليلة المعراج آن
عرج على القدس الشريف ففيه اقداس تهان
ضج الحجيج به وريع ضريحه والمسجدان
ماذا دهاهم هل عصوك فاصبح الغازي جبان
انت الذي علمتهم دفع المهانة بالسنان
ونذرت للشهداء جنات وخيرات حسان
يا صاحبيَّ بأي آلاء الرسول تكذبان ؟! ..

ومرة اخرى تمر الايام ، واذا النكبة تشتد هولا يوما بعد يوم،ويأس الشاعر يزداد ، فلا يجد غير الله يتجه اليه طالبا رد اليهود قبل ان يقضي القضاء الذي لا رد له :

قسما بالمسجدين ارتفعا   حيثما اسرى النبي المعتمد
بوليد الطهر في مزوده   بدم المصلوب بالله الاحد
ردهم لا ثبتت اقدامهم   قبل ان يقضي قضاء لا يرد

فاذا لم يكن ذلك ممكنا ، ولم يستطع الوطن رد الذل عنه لانه ارض العز ، فليأت الموت قبل ان يرى الشاعر بلده ، بلد الاسود،تتحكم به الجرذان :

وطني مطلع انوار الهدى   بلدي ما انت للذل بلد
لا تطل عمري الى يوم به   تحكم الجرذان في غاب الاسد

ويمر على الهدنة عام ، ويحمل فيه الشاعر على تقاعس قومه عن الجهاد ، وعن بذل المال ، ويدعوهم الى التشبه باليهود عساهم يستحون:

يخادع بعضنا بالدمع بعضا   ودمع الحر سر في الظلام
أضن الناس اسخاهم لسانا   وعينا في الملمات الجسام
ولو صدق الجهاد لما رأينا   أنوف العرب تمرغ في الرغام

وفي عيد الاضحى يعيش الشاعر مع الحجيج الذين قصدوا مكة ، انهم طافوا بالبيت العتيق ولولا انهم خجلوا من ربهم لعادوا دون ان يتموا فروضهم ، كانوا بالامس يزورون الديار المقدسة والامل يعمر قلوبهم ، اما اليوم فلا يملأها الا الم ، لان علم العروبة قد انزل عن ربى فلسطين :

حجوا جناح الله واعتصموا   يا قاضي الحاجات كن لهم
طافوا ولولا انهم خجلوا   من ربهم عادوا وما استلموا
ان الحجيج يحثهم امل   غير الحجيج يحزهم الم
علم على الحرمين ذكرهم   بالثالث الهاوي به علم
بالمسجد الافصى بجيرته   بمآتم بالعيد تنتظم

وفي عيد الميلاد من عام ١٩٥٣ وقد مر على النكبة خمسة اعوام تمر ذكرى فلسطين بالشاعر لتحرق قلبه ، فيرفع الشكوى ضارعا الى ليلة عيد الميلاد ، عاتبا على نجمتها انها،ما ارشدت امتنا الى فاد يفديها، الشاعر يائس لان الليلة سوداء لا تحمل بشرى ، وقلبه مملوء غما وكدرا:

ذكرى فلسطين في الاعياد نذكيها   نارا ، تهب على الاكبار تكويها
شبت من المزود المحروب حاملة   رسالة البلد المنكوب من فيها
شكوى الى ليلة الميلاد نرفعها :   ما لليالي تساوت في تجنيها
يا نجمة العيد ما ارشدت امتنا   عبر الدياجي الى فاد يفديها
نرى سماءك لا بشرى تضيء بها   فنغمض العين زهدا في دراريها
قد يبزغ الفجر الا من سرائرنا   وينجلي الليل الا عن امانيها
نحاول البشر اخفاء لحسرتنا   وفي المآقي قروح ليس نخفيها

وفي الذكرى العاشرة لمجزرة دير ياسين عام ١٩٥٨ ، موشح للشاعر يفيض الما وحسرة :

تحت ستر الليل ستر المجرمين   طرق الفجار بيت المقدس
يا فلسطين على من تعتبين   ان تكن نامت عيون الحرس

ويعجب الشاعر في عيد اسرائيل العاشر كيف تستمر هذه الدولة التي قامت على الباطل عشر سنوات مع انها « راحيل » الفانية اليهودية عدوة الله والافعى التي يحميها الدولار .

وهي تحتفل اليوم بعيد ميلادها لان الليالي لا تزال سوداء داجية السواد . اما حين ينشق الظلام عن الفجر الموعود ، فسينقلب ذلك العيد الى مأتم :

راحيل نمشي الى المبكى وفي يدها   نفل جديد ستبكيه وتبكيها
عدوة الله عن انيابها كشرت   افعى تجرجر والدولار حاميها
بنى لها الغرب وكرا من مطامعه   على الرمال رياح الشرق تذريها
بباعة العرض لن تشري به وطنا   يا امة خير ما فيها غوانيها ...
ان عاد عيدك في ليلاء داجية   فلن يعود متى انشقت دياجيها

لكن يوم « راحيل » قريب . فامام الشاعر ينتصب اليوم الموعود، يوم ترتفع السنة اللهيب يزيدها لظى الثار ، ويوم ترسو سفن العرب محملة جنودا وامالا . فوقها في السماء تخفق جنة الرجاء والايمان بعد ما طويت زمنا بعيدا ، وفي صواريها نصبت مشانق القراصنة . عديا

« راحيل » الصواري ، انها كثيرة ، لكل قرصان واحدة ؟ . ان مهد المسيح لن يطهره الا النار ، النار التي لا تبقي ولا تذر ، والتي ستمحو حتى ظل تل الرجس ، « تل ابيب » :

الا ترين على الافاق السنة من اللهيب شواظ الثار يوريها
الا ترين على شطآننا سفنا ترسو فتلقى الاماني في مراسيها
والريح تنشر بعد الطي اشرعة ايماننا حاكها والحق يزجيها
كأن مشنقة القرصان قد نصبت في ظل صارية ، عدي صواريها
حاشا لمهدك يا عيسى تدنسه ظلال (تل) تمادت في تهاويها

ـ ١٢ ـ

وهكذا يكون الادب المهجري قد اسهم بشكل واف في (شعر النكبة) فقدم لنا كمية ضخمة من الشعر امتازت بصدق الشعور وعمقه ، واعطتنا صورة واضحة عن مشاركة الشعراء المهجريين للعرب في قضيتهم الكبرى . ولقد اتصف شعر النكبة من المهجر بعين الصفات التي غلبت عليه في شعر الوطن ، فكان ادبا ثائرا حماسيا عاطفيا . ان من يقارن الافكار التي عرضناها يجدها تتفق في خطوطها العريضة مع الشعر الذي انشده شعراء الوطن ما خلا شعراء فلسطين انفسهم الذين كانت رنة الاسى والحزن في شعرهم اكثر عمقا وتاثيرا .

ولقد قدم ابو ماضي في احدى قصائده عرضا عقليا منطقيا لقضية فلسطين . « فابياته تذوب الفاظها سهولة ورقة وموسيقى ، وفيها جانب من السند الجدلي الذي يدعم حق العرب في فلسطين ، ويدك باطل اليهود ويهدم مزاعمهم ، وهذا شيء لم يتنبه اليه اكثر شعراء النكبة الاخرين ولم يعنوا به » (١) .

وكان ذلك في مكانين اولهما حين ناقش وعد بلفور وطلب اليه ان يقطع اليهود قطعة من بلاده فذلك اعدل :

الا ليت بلفور اعطاكم بلادا له لا بلادا لنا
فلندن ارحب من قدسنا وانتم احب الى لندنا
فليست فلسطين ارضا مشاعا فتعطى لمن شاء ان يسكنا

والثاني حين اثبت ان ارض فلسطين عربية ، ويجب ان تبقى عربية وهي لم تكن يوما ما ملكا لليهود :

وان تهجروها فذلك اولى فان فلسطين ملك لنا
وكانت لاجدادنا قبلنا وتبقى لاحفادنا بعدنا
وان لكم بسواها غنى وليس لنا بسواها غنى
فلا تحسبوها لكم موطنا فلم تك يوما لكم موطنا

ونحن نعتقد ان المغتربين العرب لم يقوموا بالدور الذي تؤهلهم له امكاناتهم المعنوية والمادية في البلاد التي يقومون بها ، دليلنا على ذلك تصويت كثير من دول أمريكا اللاتينية الى جانب التقسيم ووقوفها في المحافل الدولية الى جانب اسرائيل . ترى الم يكن بامكان جالياتنا العربية ان تشرح عدالة قضيتنا في فلسطين ، وتكسب بذلك تلك الدول الى جانبها ؟ .

يعزينا عن ذلك ان الشعراء والادباء قد قاموا بدور مشرف فاسهموا بشعرهم العربي ، وبمحاضراتهم وكتبهم في خدمة هذه القضية الهامة . ان شعر النكبة المهجري يشكل قسما هاما في الشعر الذي استوحى نكبة فلسطين ويمتاز بوفرته وبصدق شعوره وبقيمته الفنية . لقد اختار الدكتور صالح الاشتر قصيدة (الغراب الغازي) بين اربع قصائد كنماذج من اجمل الشعر المعاصر ، وقدم لها بما يلي : « صورة رمزية يكشف فيها الشاعر المهجري جورج صيدح تجربة قاسية من تجارب المأساة .. ولقد تناول الشاعر التجربة من زاوية فنه ووجدانه تتمثل في غراب يقتحم على الشاعر غرفته في بحمدون ، فيخيل له ان الغراب الغازي قادم من اسرائيل » (٢) .

حلب — فريد جحا

(١) شعر النكبة للدكتور صالح الاشتر ص١٠٤ .
(٢) مأساة فلسطين واثرها في الشعر المعاصر للدكتور صالح الاشتر ص ٣٣ .

ثلاثة مقاطع للتفاؤل

« من وحي ملامح اشراق النصر وبواكير العودة »

(١) حمامة السلام

حمامة وديعه
على زيتونة بطيبها غريقه
تردد الشجي من لحونها المذيبه
« يا عودة الربيع ، يا اندفاقة السنا وغيمة خصيبه
تفجري على ديارنا الشحيحة الهوا
مواسما رحيبه
يعود للديار في غد حبيبنا « وكان ضاربا بلا حقيبه »
يعود في شموخ تلكم الجبال جبهته
رحابة الافاق طلعته
منابع خالدية المسيل بهجته
يعود راكبا متون شوقه
يعانق الديار
يعود يمسح الهموم من حياته القفار
ويقبر المساء في موانىء الضياع
يعشق النهـار

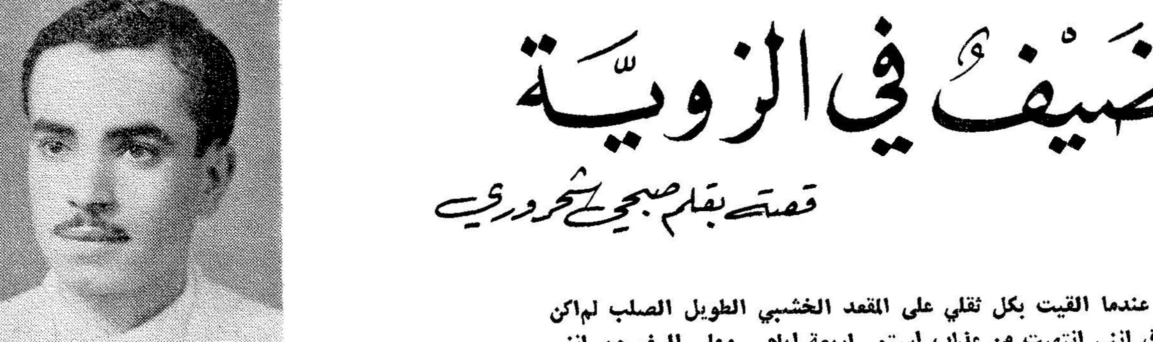
(٢) انطباعات عائد

من الف عام يا احبتي ، من الف عام
تعقدت مسالك الرجوع في طريقنا المديد
اجدبت مزارع السلام
الشمس في اقدامنا وفي جباهنا
تلسعنا سياط غربة محالة العبور
الموت ناصب شراكه ، افواهه تجوس دربنا
نعيش عالما بذوره قبور
القلب أعين تعبٌ حزنها من منبع الندم
اواه من مجاهل الضياع من ملاحن الالم

(٣) الانسانية والعودة

تبعثر الفرح
على ديارنا الظميئة العروق للصفاء
بعودة الغريب تطفر الاشواق من عيونه
مذريا الى الرياح همه المرير ، صالبا مخالب العناء
ببسمة العجوز زاهيا يكاد من شموخه يطـاول السماء
ببسمة الصبية الشفيفة المشاعر
ببسمة الصبي فك قيده ،
واينعت ثمار صبره ،تفجرت سماء حقده
وقال لن نكون كالاماء
لن نكون كالاماء
ما دام في قلوبنا بركان كبرياء
تبعثر الفرح
على ديارنا اللهيفة الاذان
لقصة الرجوع مرة يقصها فم الزمان
لكي يهدهد الجفون عود عالم مشرد اسيان

السودان — علي يس



ضيف في الزوية

قصة بقلم صبحي شحروري

عندما القيت بكل ثقلي على المقعد الخشبي الطويل الصلب لم اكن اصدق انني انتهيت من عذاب استمر اربعة ايام . وعلى الرغم من انني كنت غافلا عما حولي فقد امتدت رجلاي في حركة اوتوماتيكية الى ظهر حقيبتي الكبيرة وكأنهما تحرسانها من هذا الخليط المتنافر من الناس الذي لا يهدأ لحظة والذي يطغى الزعيق على كل افراده ما بين داخل وخارج . وتحسست جيدا الورقة التي اودعتها بحرص جيب سترتي الداخلية وكأنها كنز عزيز يرتبط به مصيري المتأرجح القلق فقد سعيت وراءها باشد مما يسعى كلب جائع تعب وراء فريسته . ولم يكن انتظامي في ذلك الطابور الطويل امام غرفة الزنك الصدئة القديمة اصعب ما في مهمتي بل كان علي ان اجوب شوارع المدينة الكئيبة التي يسودها جو من القلق والتوتر والخوف دون جواز سفري الذي ارفق بالمعاملة حتى يتم صدور التصريح ، فالحمة على حدود العدو ولا بد لزائرها من تصريح يصدر عن أعلى جهة مسؤولة في السلطات العسكرية . وهكذا فقد كان علي ان اكبح جماح فضولي وان احرم نفسي متعة البحلقة هنا وهناك في شوارع ومعالم واشياء وبشر مخافة ان تمتد الى كتفي من الوراء يد خشنة فظة تطالبني بابراز هويتي . كان شبح القضبان والارض العارية يعذبني باستمرار كلما نظرت الى يدي المنتفخة المتورمة فأؤثر ان ارتد الى حجرتي في الفندق الذي اخترته لتستقبلني عينا صاحب الفندق المتوجستان ولانحشر في فراشي حتى صباح اليوم التالي . ولقد جاء هذا الواقع مخيبا لامالي في رؤية المدينة الكبيرة الجميلة ذات المجد الخالد التي طالما هفوت اليها بعين خيالي واحلامي ، ولذا فقد حاولت ان اثور على ذلك الجمود القاتل عندما ارتفع صوت احد الجنود لليوم الثالث على التوالي « لا تصاريح للاردنيين واللبنانيين في هذا اليوم » ، فكان ان اقتادوني الى داخل حجرة الزنك الصدئة القديمة . كان الضابط العجوز لطيفا معي فالظاهر انني قد تفوهت بعبارات مؤثرة اثناء ثورتي . ولقد انفرد وجهه حتى خلت انه سيبتسم عندما قدمت له سيجارة اردنية . وعلى الرغم من ان التصريح كان اثمن هدية يمكن ان تهدىء روعي وانفعالي الا انني وجدت في نفسي الادب الكافي للاستماع اليه . قال انه لاجىء مثلي هو الاخر فقد غادر لواء الاسكندرونة قبل ثلاثة وعشرين عاما على امل ان يعود اليه في اسرع وقت ممكن ولكن ها ان الزمن واليأس يأكلان ايامه وهو يرزح تحت ثقل النجمة الواحدة التي لم تنجح في ان تستضيف ثانية وثالثة . ولقد كذبت يومها على الرجل فحدثته عن طبريا وحماماتها ودفئها وبحيرتها واسماكها وادعيت لنفسي انني زرت المدينة مرات ومرات ، تلك كذبة كان يحلو لي ان ارددها على مسامع كثيرة حتى كدت انا نفسي ان اصدقها والواقع انها قصص تسربت الى مسامعي وانا صغير من امي التي اصطحبت شقيقتي المريضة الى هناك . وشددت على يد الرجل مودعا بعد ان وعدني وعدا قاطعا بالحصول على التصريح في اليوم التالي .

ولقد بر الرجل بوعده ، وها انذا استلقي على المقعد الخشبي بعد مشوار طويل حملت فيه امتعتي من الفندق الى كراج القنيطرة والى جانبي اللبنانيان اللذان جمعتني بهما تلك المحنة واللذان سريا عني الى حد كبير طوال الايام الثلاثة الماضية ، بلهجتهما الحبيبة المفرحة وحديثهما عن ضيعتهما « طير حرفا » التي تربض على الحدود هي الاخرى غير بعيدة عن رأس الناقورة . والواقع انني اثقلت عليهما باسئلة كثيرة مرهقة وعويصة عن مناطق الحدود عندهم وعن ابرز ما يميز الحياة هناك محاولا ان استشف صورة المأساة من زاوية جديدة ، وان اطبق باسناني على طرف من ذلك اللسان الطويل الذي لا بد يلعق جراحنا في كل مكان . ولقد ادخلت الى قلبي بعض اللذة والاطمئنان حماستهما التي كانت ترتفع من بين ركام من السذاجة والعفوية ، كما ان امكانياتهما المادية الضئيلة اشعرتني بشيء من الوثوق بالعشرين دينارا التي احملها ومكنتني من ان امثل دور القائد في جماعتنا الصغيرة .

كان اليوم يوم خميس وكانت السيارات المغادرة تمتلىء في لحظة بالجنود المجازين العائدين الى عائلاتهم ولذا فقد تعذر علينا ان نستقل احداها ولم نجد بدا من رشوة المسؤول عن حجز تذاكر السفر فالوقت لا يرحم ولم تبق من مدة التصريح الممنوح لنا سوى خمسة ايام . ولقد تكفل علي الرحال زميلنا الاشد حيوية وحركة بذلك بينما جلست انا قلقا مترقبا اعد الدقائق التي اخذت تنقضي ببطء بالغ . وعندما عاد الينا علي يفرك يديه مسرورا بنجاح مهمته اعطاني فرصة للنظر الى ما حولي . كانت الشمس التي مالت عن منتصف السماء غربا قد احتلت المكان الاوفر من باحة الانتظار ، وكان صبية صغار كثيرون يروحون ويجيئون بين الامتعة ويتعلقون باطراف اثواب امهاتهم الجالسات على المقاعد ويصرخون متباكين كلما مر بائع متجول وهن يزجرنهم باصوات لا تريد ان تخرج عن دائرة الاحتشام . واخذت اجول ببصري بين الجالسات بملابسهن السوداء المطرزة التي تنم عن بيئتهن الريفية القريبة من حال البداوة فكان ان استقر بصري عليها . كانت ترضع طفلها وهي لاهية عما حولها وعيناها تتنقلان ما بين الصغير وسقف البناء . ورفعت عنها بصري محاولا ان اعدو لمراقبة الجو من حولي ولكن عيني ما لبثتا ان عادتا الى التحديق في ثديها الصافي البياض الذي كان صغيرا انيقا لا يتناسب مع ضخامة جسمها الممتلىء في غير ما أسراف وقوامها الفارع . وارتفعت عيناي في بطء متأمل الى عنقها الراسخ الابيض الملتف ، واعتدلت في جلستها واخذت هي الاخرى تجوس بعينيها في المكان . كان لها أنف دقيق دقيق وفم ملموم تشققت شفتاه تحت وطأة الم طارىء وجبين ساطع ضيق زادت في كبريائه وسطوعه عصبتها السوداء التي سويت في اناقة . كان صدرها يعلو ويهبط في جهد واضح وقدرت انها ما نزلت المدينة الا طلبا للعلاج . واستغرقني النظر اليها فاختفت من مخيلتي صور كثيرة مشوشة ولم يبق في ناظري ورأسي سوى هذا الكيان الشامخ المتالق المنفصل عما عداه من ضوضاء .

عندما تكلمت كان في حديثها ثقة واعتداد يخالطهما شيء من الدلال المعتدل المتحفظ الذي ينأى بها عن شمس الحقل الى ظل الخباء . وقدرت من لهجتها ان الكهل الواقف امامها شخص اخر غير زوجها ، والتقت عيني بعينها لحظة فارتعشت ، كانت لها اهداف طويلة وعيون سوداء واسعة في استدارة يتكسر بريقها على صفاء وجهها المشع .

كنت استمتع بشعور غامض مبهم بانني دخلت دائرة خيالها على نحو ما وكنت ارسم لنفسي اوضاعا ومواقع وانا استمتع بطراوة العيش في ظل هذه الواحة الغافية عندما جذبني علي بجماع يده ليسحبني الى داخل السيارة .

طوال الطريق الى القنيطرة لم اتكلم كانت السهول الحمراء السمينة المشققة لطول عطشها وقطعان الماشية التي تاكل اعوادا يابسة رغم قربها من الماء تمر امام ناظري وكأنها شريط سينمائي ، اما ذاكرتي فقد

قطاف الليمون

تنفض الخضرة في الريح شذاها
كل غصن معجب ، والبحر تاها
وغناها
نكهة توقظ في الروح .. غواها
نضرة تفتح للعين .. كواها
فعلى الشاطىء ، ميناء الرؤى
وعلى الابحر ، ايماض جناها

***

يزحف الغيم .. على حيفا ، على يافا .. فما
يدري مناها
ما اساها ؟!
ما هواها ؟!
ثم يمضي ينفض الزخة ، لا يدري .. الى
اين ، اتجاها
الموانى شاحبات . والربى
اخرجت عشبا ، ويأسا ، وانشدها
اهلها ماتوا ، ام الاحزان غاصت
في شرايين صباها ..

***

وعلى حيفا ، ويافا
يهبط البرد عليها ،
في شتاها
اورق الصمت على الجدران فيها
وعلاها
عنكبوت الليل يحتل ذراها .
يسقط الليمون ، في البرد انتحارا ،
واندحارا
وبكاء فاجع الغصة ، في الليل انتظارا ..
وعلى الاغصان من اشجارها ، يعلو النحيب :
« اين مني من رماني
في ضمير الترب ، بذره
اين مني من رعاني
في ربيع العمر خضره
اين مني من له ، في
كل غصن .. الف زهره »
وتمر الريح في الليل البهيم
تزرع السهد على الافق اللئيم
تحت غيم مثقل القلب ، كتوم
وعلى حيفا ، ويافا
وعلى كل التخوم
توحف الجو شجونا ، وجنونا ...

وعلى الدرب بيافا ،
يسقط القنديل اضواء هزيله
وبخيله
وعلى الباب ، من الشوق ، نحيله ،
وعليله
انها بعض بقايا عربيه
هي لا تدري اذا كان انتظارا ،
وانتظارا ، وانتظارا ....
ام دمارا :
« في غد
اه من كل غد
لا ابي عندي
ولا من سند
كلما ، بيارة من خيرها حان القطاف
تزحف الجرذان ، في الفجر اليها ،
وعليها
لا اخي يحمي حماها ،
لا ابي يرعى جناها
انها ذلي ، ويأسي ..
انها العار ، ألا من عربي ، عربي .. »

***

دمعة تسقط في ليل الضياع
يسقط القنديل في الليل على الماء،ذهولا من شعاع
ومع الصبح « الغنيمه »
والجريمه
تجهض الاغصان ، تعرى من جناها :
« اين منا غارسونا
اين منا قاطفونا
اقتلوهم .. انقذونا »
تقتل الاشجار لا يحمى حماها
يا جناها ! ..
مرفأ خاو ، الا يجدي على البا ببكاها !؟ ..

***

وعلى الافاق صمت
وخطى الاعصار ان مرت سراعا
فهي اجهاز ، وموت
وهي للبعث بريق ، ثم صوت
وهي للعائد اشراق ، وبيت
وهي للمسهد قنديل ، وزيت ..

اعزاز — القطر السوري **صباح الدين كريدي**

نكبة فلسطين في الرواية العربية

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٦ ـ

وسط هذا الجو المتخم اضطرابا وقلقا تدور احداث (طريق فلسطين) في احدى القرى التي يرسمها الكاتب في مطلع الرواية بالوان سلامية هادئة لم تتناسب مع صخب الفترة وضجيجها واضطرابها ، في هذه القرية النائمة في وداعة وسط مساحات الخضرة ، يبدأ الرجال في التطوع للذهاب الى جبهة القتال ، ومن وسط هؤلاء يختار الكاتب شريحة صغيرة ـ هي الاخوان سالم وعبد اللطيف زوجا الاختين سلمى ومريم ـ ليقدم من خلالها كل ارتعاشات المعركة . هذا هو الخط الرئيسي الذي توحي به الصفحات الاولى من الرواية ، غير ان الكاتب ما يلبث ان ينشىء حول هذا الخط الرئيسي العديد من الاحداث الثانوية التي تنحو به بعيدا عن المنطلق الاساسي للرواية . فبعد ذهاب الاخوين ـ سالم وعبد اللطيف ـ الى الجبهة يدفع بنا الكاتب في سراديب هامشية عديدة عن رغبة فراج في الاستحواذ على سلمى .. وعن مقاومة الاختين ووطنيتهما ونسجهما صديرات الصوف للمجاهدين ، ثم مغامرة سلمى الاسطورية في توصيل هذه الصديرات الى الجبهة ، تلك المغامرة التي زجت بنا معها في احداث هامشية عديدة . حيث شاركت في المظاهرات العديدة التي رافقت فيها خطوات الوطني القديم سليم ابو الوفا في الاراضي السورية . ثم رغبات فراج الحلمية البلهاء في الحصول على منصب الوزارة رغم اميته ، وفي الزواج من سلمى ... وهنا ترك الكاتب موضوع الرواية الرئيسي تماما ليقدم لنا جزئيات حياة فراج وحيله الدنيئة ثم سرقته لنقود ابى توفيق واغتياله ، وتمزيقه لجثة زوجته ، واصابته مريم برصاصة ، ثم مصرعه اخيرا على يدي سالم.

خلال كل هذا يدق الكاتب بخطابية زاعقة على وطنية سلمى وشجاعتها وصلابتها ... مقابل تفسخ فراج وانانيته ولا انسانيته ، وهذا في حد ذاته عمل طيب ، غير انه تم بطريقة خطابية فاقعة . فمن خلال المنولوجات الداخلية لسلمى نحس بوطنيتها الزاعقة المجردة خارج الموقف عبر خطابية لا حسية « البطولة في شعبنا تكاد تذهلني ، فكيف دخل المستعمرون بلادنا ؟.. ومتى دخلوا ؟.. » (ص ٩١) هذا العهد الصامت يجعله الكاتب قدر سلمى طوال احداث الرواية .. كل هذا بالاضافة الى تلك الشخصية التي حملت بطاقات وطنية غير معقولة .. سليم ابو الوفا ...

كما ان نمو الكثير من الاحداث الهامشية التي استغرقت اهتمام الكاتب بدرجة كبيرة ، هو الذي ولد ذلك التشتيت واللاتماسك الذي يرين على فصول الرواية كلها ، وينوش كافة احداثها . والذي يحاول الكاتب ان يدس بأنفه بين جزئياته باستمرار ... مما يؤدي الى انتزاعنا في اغلب الاحيان من استمرارية الانسياق العفوي للاحداث ... فبعد ان اغتال فراج ابى توفيق وسرق صندوق نقوده ، اذا بالكاتب يدس انفه فجأة في تيار الاحداث ليلقي بين ايدينا من خلال خديعة طفولية حكمة جوفاء وخالية من المعنى « لم يكن الصندوق مقفلا ولم يبد لعينيه أن به مكانا لمفتاح ، ولكنه انفتح حين حركه بين يديه ، ورأى فراج فيه شيئا كأنه الكتاب . صاح في نفسه : ماذا ؟.. ماذا ارى ؟.. ومد يده فأخرج القرآن الكريم » (ص ١٧٦) .. ثم محاولة الكاتب الساذجة ايضا في المزاوجة بين الحدث الخارجي وبين اعماقه الشخصية وذلك من خلال تصيد التوافقات اللامحية بين الواقع الخارجي وبين ما يدور في اعماق شخصيته من افكار « تذكر فراج ان الرجل كان يرتدي طربوشا احمر فتملكه رعب وهو يذكر ذلك ، ولم يدر ما العلاقة المباشرة بين لون الطربوش والافكار التي كانت تعبث في فكره منذ قليل » (ص١٢٩) .. ثم كلمات ابى توفيق لفراج بينما يفكر الاخير في قتله « ذكرني هذا الاصفرار الذي اراه ، بوجه قاتل جاء يحتمي عندي بعد ان ارتكب جريمة قتل فظيعة .. يا للمسكين !.. لقد اعدم .. ما زلت اذكره ، كانه ما يزال قدامي .. يا للمسكين !! » (ص ١٤٥) ... وغير ذلك كثير من الكلمات والمواقف التي تنضح بالمباشرة وعلو الصوت .

غير ان هذه الاخطاء كلها لا تعد شيئا بالنسبة للشرك الرئيسي الذي وقعت فيه الرواية ، بل لقد كان ممكنا اغتفار كافة هذه الاخطاء ، حيث انها دائما ما ترافق خطوات الكتاب الاولى ، لولا وقوع الرواية في هذا الشرك ... العمومية والتجريد ... حيث فقدت المأساة كل ملامحها الفردية ، وانداحت الاحداث في تيار من الحديث عن الوطنية .. حديث يمكن ان ينطبق على اي شيء مماثل .. وبهذا لم تتمكن الرواية ـ اذا اضفنا كل الاخطاء السابقة ـ من حمل ابعاد المأساة داخل احداثها .. او رسم معالم الطريق الذي ارادته طريقا لفلسطين .

وهنا يمكننا ان نقول ان كل الكتاب الذين وضعوا في اذهانهم رسم طريق لفلسطين ولاستردادها لم يتمكنوا من رسم هذا الطريق ، او حتى من التعبير السليم عن ابعاد النكبة الفلسطينية . بينما استطاعت الروايات التي اهتمت برصد الابعاد الحقيقية للنكبة ان تحمل لنا بطريقة عفوية ارهاصات ميلاد الطريق الحقيقي للعودة . وهذا ما سوف نراه عند حديثنا عن روايات القسم الثاني .. الروايات التي ارتفعت بحق الى مستوى النكبة .

***

تنضوي تحت هذا القسم روايتان ... (رجال في الشمس) لغسان كنفاني (١٤) و (ستة ايام) لحليم بركات (١٥) والكاتبان من شباب هذا الجيل ... جيلنا .. الذي فتح وعيه على ذكريات آبائه عن الحرب العالمية الاولى ... بينما عاش ، مع مطالع ادراكه للحياة ،

(١٤) منشورات دار الطليعة ، بيروت ، يناير (كانون الثاني) ١٩٦٣

(١٥) صدرت عن دار مجلة شعر ، بيروت ، فبراير (شباط) ١٩٦١

نكبة البشرية في هيروشيما .. ثم نكبة بلاده في فلسطين . ومـــا زال يفتح عيونه كل صباح على واحدة او اكثر من المآسي الضارية التـــي تمزق وجه عصرنا .. وهما ايضاً من ابناء فلسطين ، الوطن الذي تركت النكبة بصماتها عليه في اعنف اشكالها . لذا فانهما يعيان بعمق الابعاد الحقيقية للمأساة ... ومن ثم استطاعا ان يجسداها داخل روايتيهما.. وان ينقلا لنا بحق زخم المأساة بكل جزئياتهـــا الحسية الصغيرة .. الجزئيات التي تهبها وجهها الذاتي ، والتي تجسد ملامحها الفرديـــة وتقف بها شهادة عار على جبين هذا العصر .. استطاعا ان يقدما كـــل ذلك من خلال معايشتهما العميقة لدقائق النكبة الفلسطينية . ورغبتهما في ان ينقلا للقارىء كافة ابعادها . ولنبدأ برواية غسان كنفاني .

تقف (رجال في الشمس) في طليعة كل الروايات التي صدرت عن فلسطين . اذ استطاعت ان تجسد في تكثيف وعمق كل ابعاد الازمة، وان تصوغها لنا في اطار رمزي ممتاز ، عانق فيه الوجه الرمزي للمأساة الوجه الواقعي لها والتحم به تمام الالتحام . ومن البداية كـان غسان كنفاني مدركا لنوعية التحدي الذي تقدمه النكبة الفلسطينية للعالـــم اليوم ... تحدى اليد المبتورة الذي سبق ان رسمنا بعض ملامحه .. ومن ثم جهد لتخليص ابطاله من لعنة هذا التحدي ... ولكن هـــل تخلصوا منه تماما ؟.. يصعب علينا ان نجيب بنعم او بـــلا .. ذلك لان رغبة ابطال غسان في التخلص من لعنة ايديهم المبتورة وتوق كل منهـم العنيف لتحقيق كينونته ، خلال عملية هروب دامية من اغلال واقعهم .. هي التي اجهزت على حياتهم تماما . فالمأساة لا يمكن ان تحل عن طريق الهروب من مواقع النكبة حيث تنسج الخيوط المأساوية الضارية قدر كل ابناء الارض السليبة .. هذا القدر لا يمكن اجتيازه خلال محاولـة الهروب منه ... ذلك لان اي محاولة للهروب من احد فتحات الفخ لا بد ان تؤدي الى الوقوع في فتحة اخرى .. ما دام الفخ نفسه مـــا زال منصوبا ... فالواقع اكثر تشابكا من سذاجة المغامر الفرد .. هـــذا ما سوف نراه عندما نستعرض احداث الرواية ، وان كانت هذه العملية عسيرة الى حد كبير ، اذ ان الرواية شديدة التركيز ، وهذا هو السر في ان كلماتها محملة بما فوق طاقة الكلمة العادية من معان ، ومشحونـــة برؤية الكاتب لابعاد المأساة ، ومن هنا استطاع الكاتب ان يكشف كافة ملامح النكبة خلال احداث روايته ، وان يعطينا الصورة الحقيقية لمـــا يمور في اعماقها من ضياع .

مع صيف عام ١٩٥٨ تبدأ احداث الرواية .. بعـد مـرور عشر سنوات على ميلاد الحقيقة الدامية ... الـــلاوطن .. عشر سنـــوات استطاعت ان تؤكد لكافة الاجيال استمرارية هذه الحقيقة الدامية ، ومن ثم بدأ الجميع في التصرف حيالها ... ولما كانت المأساة الكبيرة التـــي تضم كل الاجيال بين دفتيها واحدة .. كان التصرف حيالها يجنح ـ بصفة عامة ـ الى نفس الطريق مهما تباينت الاجيال ومهما اختلفت جزئيات مآسيهم الصغيرة ، التي ترتوي من نفس النبع المأساوي الكبير .. اللاوطن ... لهذا يجمع الكاتب الاجيال الثلاثة التي عايشت النكبة الفلسطينية ويصهرها في بوتقة واحدة ... جيل ابو قيس .. وجيل اسعـــد .. وجيل مروان .. فهذه الشخصيات الثلاث ليست اكثر مـــن تلخيص للاجيال الثلاثة التي عاقرت النكبة .. وانصهرت في بوتقتها حتـــى النخاع ، وباستطاعتنا ان نجمع مآسيها الصغيرة لنخرج بصورة واضحة عن كل المشكلات التي تتعقب الانسان الفلسطيني اليوم ... ولنتناول كل جيل على حده .

ابو قيس ... من الجيل الذي عاش بكامل وعيه اعنف لحظـــات النكبة ، لحظة السقوط والاستسلام والهزيمة ، ثم عاش بعد هذه اللحظة الدامية عذابات الضياع .. عاش يحسد الذين ماتوا كالاستاذ سليـــم مدرس القرية الذي سقط قبل ليلة السقوط بيوم واحد .. « لا شـك انك كنت ذا حظوة عند الله حين جعلك تموت قبل ليلة واحدة من سقوط القرية المسكينة في ايدي اليهود .. ليلة واحدة فقط .. يا الله !.. اتوجد نعمة الهية اكبر من هذه ؟.. صحيح ان الرجال كانوا في شغـل عن دفنك وعن اكرام موتك .. ولكنك على أي حال بقيت هناك .. بقيت هناك !.. وفرت على نفسك الذل والمسكنة وانقذت شيخوختك من العار» (ص ١١) فان يظل الانسان ميتا هناك خير من تجرعه عذابات الضيـاع والتشرد واللاوطن .. وخير من حملة سنوات العمر الجائع على كتفـــه حتى البصرة باحثا عن يد يرتفقها حتى الكويت .. يد مهرب خبر الدروب، تهرب به من لعنة حاضره المزق الى ذلك الفردوس المرتجى .. « وراء هذا الشط ، وراءه فقط ، توجد كل الاشياء التي حرمها . هنا توجـــد الكويت .. الشيء الذي لم يعش في ذهنه الا مثل الحلم والتصور يوجد هناك » (ص ١٤) في هذا الفردوس سيدفن ابو قيس ضياعه وعذابات الانتظار الطويلة .. « في السنوات العشر الماضية لم تفعل شيئا سوى ان تنتظر .. لقد احتجت الى عشر سنوات كبيرة جائعة كي تصدق انـك فقدت شجراتك وبيتك وشبابك وقريتك كلها .. فـــي هذه السنوات الطويلة شق الناس طرقهم وانت مقع ككلب عجوز في بيت حقير .. ماذا تراك كنت تنتظر ؟ » (ص ١٥) ... ولم يكن ابو قيس ينتظر شيئا ، بل لقد احتاج وجيل النكبة باكمله الى عشر سنوات كاملة حتى يعي هـــذه الحقيقة اللاانسانية الدامية .. حتى يعي عبر هذه السنوات الجائعـة حقيقة فقدانه لكل شيء .. حتى الامل والبيت « انه ليس بيتك .. رجل كريم قال لك اسكن هنا ! هذا كل شيء ، وبعد عام قال لك اعطني نصف الغرفة ، فرفعت اكياسا من الخيش بينك وبين الجيران الجدد .. وبقيت مقعيا » (ص١٥) .. تعاني من عذابات الضياع الذي يمور فـي اعماقك فيمزق كل كيانك .. يعاني من توقه المتاع الى شجيراته وبيته وارضه .. الارض التي يعشقها كأنثى حلوة ثرية معطاء .. « كلما تنفس رائحة الارض وهو مستلق فوقها خيل اليه انه يتنسم شعر زوجته حين تخرج من الحمام وقد اغتسلت بالماء البارد .. الرائحة اياها ، رائحة امـرأة اغتسلت بالماء البارد وفرشت شعرها فوق وجهها وهو لم يزل رطيبا .. الخفقان ذاته : كأنك تحمل بين كفيك الحانيتين عصفورا صغيرا » (ص ٨) .. غير ان كل سنوات الانتظار الطويلة لم تفده شيئا ، فكان لا بـــد ان يستجيب لكلمات سعد وان يحمل شيخوخته على كتفه ويرحل .. فما زالت أم قيس ولودا .. وما زال قيس صغيرا .. وهما في حاجة لان يعيشا في مستوى افضل من ذلك المستوى الحشري للحياة .. وذاب كل تردده امام كلمات سعد الاخيرة « تموت ؟.. هيه ! من قال ان ذلك ليس افضل من حياتك الان ؟.. منذ عشر سنوات وانت تأمل ان تعود الـــى شجيرات الزيتون العشر التي امتلكتها مرة في قريتك .. قريتك ! .. هيه ! » (ص ١٦) ايقظه سعد من دوماته الحلمية ، فحمل كل سنوات عمره الاسيانة على كتفه ورحل الى البصرة مع كل آلام جيله الذي انتظر عشر سنوات دون رجاء .. عشر سنوات ظل يجتر خلالها دون انقطـــاع حلمه بالارض والزيتونات العشر والبيت .. حلم العودة .

اما سعد فانه من الجيل التالي ... الجيل الذي لم تتوكد فـــي اعماقه الارض ولا الزيتونات العشر ولا البيت ... ولكنه فتح وعيه على واقعه الهلامي اللامحدود ، ومن ثم تأصل الضياع في اعمـاقه بصورة مرعبة ، وتفتحت عيونه على وحدة مريرة كاليتم « واحس فيما كان يرتقي الوهاد الصفر ، انه وحيد في كل هذا العالم » (ص٢٥) ومع انه يتمزق من اهوال وحدته المريرة تلك ، الا ان ابعاد مأساته اكثـــر غورا من ذلك ، فهو مطارد ولا يملك حتى هويته « ان اسمك مسجـــل في كل نقاط الحدود ، اذا رأوك معي الان .. لا جواز سفر ولا سمـة مرور » (ص٢٤) ولا شيء ... لذلك فهو يمسح بدأب واصرار عنيدين كل الطرقات ، عله يجد خلاصا من براثن الوحدة والمطاردة ، المطاردة من الاردن التي لا هوية له فيها ... ومن جحافل الوحدة التي تنوش اطرافه فتتآكل كل كيانه ... ومن عمه الذي يروم تزويجه من ابنتـــه ندى رغما عن ارادته « من قال له انه يريد ان يتزوجها ؟ .. من قال له انه يريد ان يتزوج ابدا » (ص٢٨) ... هذا التحدي الصامت لواحد من عناصر المطاردة لا يملك اسعد ان يزيح عن كاهله عبثية الصمت... ويستمر هكذا ، حتى تقذف به كل هذه التحديات في النهاية فيمسارب الطريق .. الطريق الى الفردوس المرتجى الذي تحلم بظلاله الوارفة جميع الاجيال ... الكويت ... وفي سبيل بحثه التائق دوما الى هـــذا

الطريق ، فانه يرتفق اكثر من يد ، وما تلبث هذه الايدي كلها ان تسفر ببشاعة وبلا رحمة عن خيانة عهودها معه ... وتتركه يجوب مع وحدته كل الدروب ، ويختبر بنفسه مرارتها .. « كلهم يتحدثون عن الطريق ... يقولون : تجد نفسك على الطريق ! .. وهم لا يعرفون من الطريق الا لونها الاسود وارصفتها ! » (ص٢٤) هو وحده الذي يعرف مرارتها .. هو وحده الذي دميت قدماه من اشواكها .. ثم هو وحده ايضا المطالب بان يرتق ايامه البالية ، وان يستدعي ، بالعرق والدم ، يوما حقيقيا الق الصباح حتى ينقذ نفسه من براثن ذلك الضياع الذي رافق خطواته منذ البداية .

اما مروان ... اخر الاجيال التي ولدت قبل لحظة السقوط الدامية ، واول الاجيال التي رضعت من مطالع حياتها الظلم والكراهية وحلم العودة .. فان ابعاد ازمته اكثر مأساوية من اي من الاجيال السابقة . ذلك لانها لا تنحت ملامحها من الحلم الاسيان توقا الى الارض والزيتونات العشر والبيت ، ولكن من التحدي الحقيقي السافر الذي يسحب الارض بلا رحمة من تحت اقدامها ، وينتزع حقها في شروط سليمة لحياتها ، دون ان تثير مأساته الضارية ، ولا صراعه البطولي الفاشل في اجتيازها ، ادنى التفات من احد « وحين انتهت كل محاولاته الى الفشل اتكأ على الحائط .. كانت جموع الناس تعبر حواليه دون ان تلتفت اليه » (ص٣٧) .. ورغم توحده الراعب هذا ، ورغم عوده الغض وسنوات عمره الطفلة « عليه أن يكون اكبر من رجل واكثر من شجاع ، والا ضحك عليه وخدعه واستغل سنيه الست عشرة وجعل منه العوبة » (ص٣٦) .. ولكنه لا يشعر امام صلابة حائط فشله البطولي الا بانه كان « منفردا وغريبا في مثل هذا الحشد من البشر » (ص٣٨) .. من اعماق توحده وغربته وضياعه يكتشف « عبث اي محاولة يقوم بها لترميم كرامته » (ص٣٧) او لاستعادة ماء وجهه الذي وعى مع بدايات تفتحه على الحياة فقدانه .. لذا فليس امامه سوى « ان يمضغ ذله » (ص٣٧) وان يحمل مأساته على كتفه ويرحل .

فمع عامه السادس عشر يفتح عينيه فجأة على تلك « الحقيقة الراعبة .. الحقيقة التي تقول ان اباه قد هرب .. هرب .. هرب.. تماما كما فعل زكريا الذي تزوج وارسل له رسالة صغيرة قال له فيها ان دوره قد اتى ، وان عليه ان يترك تلك المدرسة السخيفة التي لا تعلم شيئا وان يغوص في المقلاة مع من غاص » (ص٤٦) دون ان يعبأ واحد منهما بعوده الغض او بسنوات عمره الطفلة ، فزكريا « لن يفهم قط معنى ان يتعلم الانسان ، لانه ترك المدرسة حين ترك فلسطين وغاص، منذ ذاك ، في المقلاة ، كما يحب ان يقول » (ص٤٧) .. اما ابوه فانه يعيش نفس احلام ابو قيس في الارض والزيتونات العشر والبيت .. ولذلك ما يلبث ان يضحي بكل شيء .. اولاده واسرته .. دون تردد حينما تبرق امامه امكانية تحقيق جزء من حلمه .. سقف الاسمنت الذي يتمدد تحت ظله بارتياح والذي يستمد من فيئه احساسا بالطمأنينة فهو يرنو لان يعيش « ما تبقى له من الحياة مستقرا غير ملاحق بايما شيء .. واهم من ذلك .. تحت سقف من اسمنت » (ص٤٢) .. فقد « كان طموحه كله .. كل طموحه ، هو أن يتحرك من بيت الطين الذي يشغله في المخيم من عشر سنوات ويسكن تحت سقف من اسمنت » (ص٤٢) وما يلبث حين تسنح له اول فرصة لتحقيق هذا المطمح ان ينبت عن كل جذوره حتى يعيش للحظات حلمه المرتجى .. سقف الاسمنت... دون ان يفكر بطريقة مروان ، ولا ان تثير في نفسه الاسى مسألة « ان يترك اربعة اطفال .. ان يطلقك انت بلا اي سبب ، ثم يتزوج من تلك المرأة الشوهاء .. هذا امر لن يغفره لنفسه حين يصحو ، ذات يوم ، ويكتشف ما فعل » (ص٤١) .. هذه المسألة لا يمكن ان تشغله بأي حال ... فقد تمركز كل همه وتركز في هذا الحلم الواعد بالطمأنينة ... سقف الاسمنت .

مروان لا يقدر قيمة هذا الحلم الملحاح تقديرا مناسبا ،ولا يستطيع ان يفهم تصرف والده ، ولا « ان الرجل يريد ان يستقر في شيخوخته، لا ان يجد نفسه مجبرا على اطعام نصف دزينة من الافواه المفتوحة » (ص٤٢) .. ولذلك فانه ما يلبث ان يصفه بانه « مجرد كلب منحط » (ص٤٠) .. فالتكوين الحضاري للاثنين ـ مروان وابيه ـ شديد التباين، رغم انصهارهما معا في بوتقة مأساة واحدة .. مأساة الضياع الفلسطينية الابعاد .. فاذا كان الاب قد تعب من تحمل المسئولية ونزع الى الراحة تحت سقف الاسمنت حلمه .. فان مروان يضع نفسه ـ دون ادنى محاولة للالتواء او اللامباشرة ـ امام هذا السؤال الدامي الذي طرحه زواج زكريا الهروبي بعد الاب « من الذي سيطعم الافواه ؟ ...ويشتري ملابس مي .. ويحمل الخبز لرياض وسلمى وحسن ؟ .. من ؟ »(ص٤٢) ويكون الجواب الدامي الذي لم ينطقه احد : ان ليس هناك سواه ، ومن ثم عليه ان يترك المدرسة ويذهب هو الاخر الى ... الكويت .. فـ « صفق الباب وراءه وسار .. كان ما زال يسمع صوت عكاز شفيقة يقرع البلاط برتابة » (ص٤٨) .. صوت المأساة الملحاح يتعقب كل خطاه .

بعد ان قدم غسان من خلال نماذجه التلخيصية الثلاثة ـ كل على حدة ـ للاجيال التي شربت مرارة النكبة الفلسطينية وتجرعت علقمها، الملامح المتناهية الصغر لهذه المأساة . جمع خيوط نماذجه الثلاثة في مصير واحد .. وامعانا منه في السخرية من ابطاله ، سمي الفصل الذي تشابكت فيه خيوط المأساة لتشكل ابعاد المصير الدامي (الصفقة) ...في هذه الصفقة اتفق ابطاله الثلاثة ـ بعد ان فشل كل منهم على حدة في الاتفاق مع المهرب البصراوي السمين ـ مع ابو الخيزران ، وهو نموذج رابع للنكبة ، ليهرب بهم عبر الحدود الى الكويت .ومأساة ابو الخيزران الصغيرة اكثر عمقا من مآسي النماذج الثلاثة ومن ثم فانه عاجز عن اعتيادها رغم مضي سنوات عشر على مثولها امامه وفيه ، حقيقة راعبة لا حلما ، « مرت سنوات عشر على اليوم الذي اقتلعوا فيه رجولته منه ، ولقد عاش هذا الذل يوما وراء يوم ، وساعة اثر ساعة ، مضغه مع كبريائه ، وافتقد كل لحظة من لحظات هذه السنوات العشر ، ومع ذلك فانه لم يعتد قط ، لم يقبله قط ، عشر سنوات طوال وهو يحاول ان يقبل الامور ، ولكن اية امور ؟ .. ان يعترف ببساطة انه ضيع رجولته في سبيل الوطن ؟ وما النفع ؟ لقد ضاعت رجولته وضاع الوطن وتبا لكل شيء في هذا الكون الملعون » (ص٦٨) .. بل انه فد « احتاج الى وقت طويل حتى يعتاد مجرد الحياة » (ص٦٨) .. وحتى يبتلع تلك الحقيقة الراعبة التي تقول أنه فقد رجولته وفقد الوطن ، والتي تعلن عن نفسها في سفور كلما تلولب الالم المرير بين فخذيه ، وهانحن بعد عشر سنوات .. وقد تعب ابو الخيزران كثيرا من هذه الحياة ويريد ان يستريح .. « اقول لك الحقيقة ؟ .. انني اريد مزيدا من النقود .. مزيدا من النقود .. مزيدا من النقود .. ولقد اكتشفت انه من الصعب تجميع ثروة عن طريق التهريب .. اترى هذا المخلوق الحقير الذي هو انا ؟ .. انني امتلك بعض المال .. وبعد عامين سأترك كل شيء واستقر .. اريد ان استريح .. اتمدد .. استلقي في الظل وافكر او لا افكر .. لا اريد ان اتحرك قط .. لقد تعبت في حياتي بشكل اكثر من كاف ! اي والله ، اكثر من كاف » (ص٧٢) .. وتعانق رغبته الملحاحة تلك في الحصول على النقود والتمدد في الظل ، رغبة الاجيال الثلاثة في الوصول الى الفردوس الحلمي المرتجى ، حيث يحصلون هم ايضا على النقود ، ويتمددون في الظل.. « نحن نريد ان نرتزق ، وانت تريد أن ترتزق ، لا بأس ، ولكن يجب ان يكون الامر في منتهى العدل » (ص٥٣) .. واتفقوا بسهولة على تفاصيل (الصفقة) البسيطة الدامية ، ان ينقلهم ابو الخيزران في عربة المياه الضخمة ـ عبر الحدود الى الكويت ـ شريطة ان يسقطوا داخل الخزان الجحيمي الحرارة ـ فقد تمت الرحلة في شهر اب (١٦) ـ لمدة سبع

---

(١٦) لاحظ دلالة اختيار الكاتب لهذا الشهر بالذات ، حيث تكشف حرارته الجحيمية في تلك المنطقة الصحراوية ، كل العذابات المحيطة باجيال النكبة ، وكل ما في واقعهم من ضراوة لاهبة .

ساعات عند كل مركز من مركزي الحدود .. ووافقوا على هذا الشرط، وبدأت الرحلة .

في المرة الاولى تم كل شيء ببساطة ، هبطوا الى داخل الخزان الجحيمي ، ثم خرجوا منه بعد ان اغتسلوا بعرقهم خلال الدقائق الست التي استغرقتها اجراءات اجتياز الحدود العراقية ، بعد ذلك ((هدر المحرك ومضت السيارة الكبيرة ترسم في الصحراء خطا من الضباب : يتعالى ثم يذوب في القيظ ..)) (ص٨٢) واخذت السيارة تطوي بهم المنطقة الحرجة الفاصلة بين الحدود العراقية والكويتية .. وتدانى الامل بصورة رائعة .. و ((شق العالم الصغير الموهن طريقه في الصحراء مثل قطرة زيت ثقيلة فوق صفيحة قصدير متوهجة .. كانت الشمس ترتفع فوق رؤوسهم مستديرة متوهجة براقة ، ولم يعد واحد منهم يهتم بتجفيف عرقه)) (ص٨٥) .. وبدا الحلم قريبا الى النوال.. وتدانى الامل .. وتدانى .. بينما تناءت لدرجة كبيرة دهشة مروان الطفلة من ضراوة واقعه .. وزغردت فرحة خافتة صغيرة في اعماق ابو قيس .. واستمرت السيارة الضخمة الهائلة ، كالمصير ، تطوي بهم الارض والواقع ((كانت السيارة الضخمة تشق الطريق بهم وباحلامهم وعائلاتهم ومطامحهم وبؤسهم ويأسهم وقوتهم وضعفهم وماضيهم ومستقبلهم .. كما لو انها آخذة في نطح باب جبار لقدر جديد مجهول .. وكانت العيون كلها معلقة فوق صفحة ذلك الباب كانها مشدودة اليه بحبال غير مرئية)) (ص٨٦) .. وجاءت اللحظة الفاصلة ، لحظة ولوج ابواب الفردوس .. الابواب التي لم تولج ابدا، فظل الفردوس حلما حتى النهاية ، حلما هروبيا لا اكثر . ونزلت الاجيال الثلاثة الى جوف البوتقة التي انصهرت فيها هذه المرة حتى ذابت ، ونسجت الظروف العبثية اخر فصول المأساة ، فتركت الشمس تصب لهيبها القائظ فوق جدران الخزان حتى صهرت الاجيال الثلاثة الهاربة من شمس واقعها الجحيمية اللهيب ، هذه الشمس .. الواقع .. التي ظلت تطاردهم حتى النهاية ولم تترك لهم الفرصة ابدا كي يتمددوا في الظل ويستريحوا .. فعند نقطة المطلاع الثانية ، والتي يعد اجتيازها بالفردوس ، يعطل موظف المطلاع ابو الخيزران لسبب شديد التناقض مع ابعاد ازمته ، اذ يعتقد هذا الموظف السمين الذي توهجت غرائزه شبقا لهذه القصة ، ان ابو الخيزران على علاقة براقصة في البصرة تدعى كوكب ، فيبدي بذلك عنيفا على موضع الازمة منه ، ومن ثم لا يوقع اوراق ابو الخيزران الا بعد ان يعطله ربع ساعة ينتزع منه فيها وعدا – يجتر على حسابه حرمانه – بقضاء ليلة مع كوكب .. هذه الربع ساعة العابثة ، كانت كافية لانتزاع الحياة من رفاق ابو الخيزران الثلاثة ، فبعد ان يجتاز ابو الخيزران بعربته المغلقة على ضحاياه لاكثر من عشرين دقيقة ، حدود ألواقع لتنهب عجلاتها ارض الفردوس الحلم، يفتح الخزان ليجد ان رفاقه الثلاثة قد ماتوا ، عندئذ ((احس ابو الخيزران انه على وشك ان يختنق ، كان جسده قد بدأ ينزف عرقا بشكل مريع حتى بات يشعر انه مدهون بالزيت الثقيل ولم يدر ، اهو يرتجف بسبب انطباق هذا الزيت على صدره وظهره ؟ ام بسبب الرعب ؟)) (ص٩٨) .. غير انه ((تحسس طريقه منحنيا الى الفوهة وحين اخرج رأسه منها لم يدر لماذا سقطت في ذهنه صورة وجه مروان دون ان تبرح . لقد احس بالوجه يلبسه من الداخل مثل صورة ترتجف على حائط ، فاخذ يهز رأسه بعنف وهو ينسل من الفوهة فتحرق رأسه شمس لا ترحم)) (ص٩٨) . ويمضي بالضحايا الثلاث الى الفردوس الذي عاش في اعماقهم حلما واعدا بالحياة ، ليقبرهم هناك .. ولا ينسى في اللحظات الاخيرة حاجته الى النقود التي ستمكنه ، بعد فترة ، من ان يخلق لنفسه ظلا يقيه هجير الشمس القائظة ، شمس واقعه اللهيبية والشعاع ، فيأخذ نقودهم ، ويدفنهم في الليل بصحراء الكويت .. وفي هذه اللحظة فقط ، لحظة دفن الضحايا ، تلح على عقله فكرة ((كبيرة داوية ضخمة لا تتزعزع ولا تتوارى)) .. ((انزلقت الفكرة من رأسه ثم تدحرجت على لسانه : لماذا لم يدقوا جدران الخزان ؟)).. ((وفجأة بدأت الصحراء كلها تردد الصدى : لماذا لم تدقوا جدران الخزان ؟ لماذا لم تقرعوا جدران الخزان ؟ .. لماذا ؟ .. لماذا ؟ .. لماذا ؟)) (ص١٠٦) .

ويلقي هذا السؤال الدامي الاخير ظلالا رمزية كثيفة على كل ما في الرواية من احداث ، فيحيلها الى صرخة احتجاج داوية على الهرب من مواجهة المأساة في مواطنها ، ويشير بعفوية فنانة الى ان طريقهم الحقيقي في الحياة ينحت ملامحه من ضرورة مواجهة الواقع بصلابة وبلا ادنى هروب .. ضرورة ان يدقوا جدران الخزان .

وبهذا تمكنت الرواية في هذا الاطار الفني المركز الخصب من حمل ابعاد النكبة الفلسطينية داخل احداثها .. خلال منولوجاتها الثرية بالدلالات والايحاءات والصور ، وخلال طوفانات الذكرى التي اضاءت لنا خلفية الاحداث وماضي الشخصيات .. وان كنت آخذ عليها هنا ، تلك الهندسة المقصودة والزائدة عن الحد ، التي اكلت عفوية السياق الفني في اكثر من موضع عند استعادة الذكرى على وجه الخصوص ، والتي اسفرت عن وجهها بوضوح اكثر ، عند استعادة ابو الخيزران لذكرى مأساته .

***

اذا كانت (رجال في الشمس) هي طليعة الروايات التي كتبت عن فلسطين من ناحية تكثيفها لابعاد النكبة ، فان (ستة ايام) لحليم بركات تقف هي الاخرى في الطليعة من حيث جودة الصياغة الفنية ، والمزاوجة الواعية العميقة بين ابعاد النكبة ، وبين ابعاد المأساة الحضارية الدامية التي فتتت كيان بلادنا . حيث التقى الوجه الذاتي للمأساة بالوجه الشامل لما في واقعنا العربي من تناقضات .واستطاعت الرواية ان تحمل في تضاعيفها ، الى جانب الازمة المحورية الرئيسية التي تدور حول اعماق النكبة الفلسطينية ، الكثير من الازمات الحضارية التي يرتعش بها وجه واقعنا ويتغضن . كل هذا باسلوب شعري شفاف ، ومن خلال بناء فني محكم ، استطاع الفنان من خلاله ان يهب الاحداث اعماقها ، وان يخرج بالتجربة من اطارها الذاتي الى نطاق اكثر رحابة وشمولا ...

تطالعنا الكلمات الاولى في (ستة ايام) بثنائية غريبة « ان تستسلم دير البحر او نمسح من وجه الارض » (ص٩) .. هذه الثنائية الدامية التي يعني شقاها الموت تحكم الرواية طوال الايام الستة التي تدور فيها احداثها .. وامام هذه الثنائية الدامية يضع سهيل – بطل الرواية – ثنائية اخرى يدس في تضاعيفها البطولة والتحدي والامل « السؤال هو ان نستسلم او نموت . الجواب بسيط جدا : ان نموت او ننتصر » (ص١٠) . امام هذا الانذار الراعب القصير المدى ، الذي يواجهنا منذ الكلمة الاولى في الرواية ، يكثف حليم بركات كل ما في واقعنا الحضاري من تناقضات ، ويذهب بها خلال التركيز الشديد في الزمن والاحداث ، الى الدرجة التي تفصح عن كل ما يدور داخلها من دلالات ، فترسم بعمق ووضوح ملامح الازمة الفلسطينية الابعاد .

والازمة المحورية في (ستة ايام) ليست مسألة ازمة الانتماء – كما يقول الصديق غالي شكري – وان كنا لا ننكر وجودها ضمن اطار الازمات الكثيرة التي تدور داخل الرواية ، ولكنها ازمة ذلك الضياع الفلسطيني الابعاد ، المتميز الملامح ، والذي يختلف عن اي ازمة ضياع اخرى ، مصرية كانت او اوروبية ، والذي ينحت ملامحه من الظروف النوعية الخاصة بفلسطين .. ان ازمة الانتماء الحقيقية في ادبنا العربي ، هي ازمة (كمال عبد الجواد) في ثلاثية نجيب محفوظ ، وهي ازمة (سامي) في رواية سهيل ادريس (اصابعنا التي تحترق) .. ولكنها ليست ازمة (سهيل) في (ستة ايام) .. ان كل من كمال عبد الجواد وسامي تعذبه الرغبة في ان يحقق ذاته .. في ان يكون اكثر فعالية بالنسبة لواقعه .. في ان يسلك دربا يثق مما يفضي اليه ... هذه الفرضيات ليست واردة على الاطلاق بالنسبة لسهيل ، لانه – رغم توقه الشديد لان يحقق اختياره على الطريقة الاوروبية – فاقد تماما لشروط الاختيار الاساسية ... الحرية .. منذ ان وضعه المؤلف من اللحظة الاولى امام هذه الثنائية الدامية الشقين ، امام انذار الاعداء الذي ينفي وجوده .. « ان تستسلم دير البحر بعد اسبوع وتعيش بامان ، او تمسح مسحا » (ص١٠) .

وسهيل واحد من الشباب العربي الذي بهرته الحضارة الاوروبية طوال تجواله المتسكع على ارصفتها .. ولكن اعماقه رغم هذا الانبهار تمور حنينا الى الارض التي عاش « مع ترابها وهوائها وظلال اشجارها الوف السنين » (ص١٠) فيعود .. « عاد الى بلده منذ سنة هربا من الضجر » (ص١٥) .. « المدن الكبرى المعقدة خلقت منه انسانا ضجرا يحن الى الاستقرار دون ان يريده » (ص١٥) .. عاد بعد ان شرشت اعماقه بالحضارة الاوروبية ، يقرع بالحاده دروب القرية .. عاد الى جذوره ليصدم بعد عودته بثنائية التحدي الدامية التي انتزعته من طوفانات ضياعه « لم يعد يتساءل لماذا تتجمع دير البحر على نفسها ، فلا تتمدد على هذه التلة التي يقف عليها الان ، او على الشاطىء امامه .. نسي ايضا ان يجيب نفسه بان للبلد تاريخا مع الخوف .. خوف من الداخل وخوف من الخارج » (ص١١) ولم تواته الفرصة لمواصلة مقارناته بين واقع اوروبا الحضاري المتقدم ، وبين ذلك التخلف الحضاري الذي يعبق في سراديب دير البحر .. كل سراديبها .. ويظل ممتلئا « برائحة العطر والعرق ، بالمحبة والانانية ، باليأس والامل ، لا يقدر ان يضجر او يستقر ، انه في تمزق ابدي » (ص١٢)... تمزق ينعكس في ثناياه تمزق دير البحر كلها « تناوبت امواج العدوان على هذه البلدة وتركت فيها انحطاطها . نريد ان نوقف هذه الموجات ، نريد ان نتحدى . لم يعد لنا غير التحدي . لم يعد لنا غير الموت . انه نعمتنا الاخيرة . انه السفينة التي تمخر ضمير الاجيال الاتية » (ص١٤) .. وهو كدير البحر كلها ، لا يفكر بالنصر ، بقدر تفكيره بان يصهر وجوده ، كل وجوده ، في اتون المعركة حتى « نترك لابنائنا اسطورة ، اسطورة التحدي والبطولة والاستشهاد ، فيرتفعون بوجودهم نحوها ، هم لا بد ان ينتصروا » (ص١٤) .. هذه هي الحقيقة الكامنة في ضمير سهيل ، وان كان يحس في لحظات كثيرة بان اهل دير البحر « تجار وجهلة وبدائيون ومنحطون وفارغون وعبيد » (ص١٤) ... ولكنه لا يملك سوى توحيد مصيره بمصيرهم ، رغم التناقض المتحدي بين حياته وحياتهم .. بل وحياة اقرب الناس اليه حياة اسرته .. حياة عمه الذي نذر نفسه للمال ، بينما نذر عمه الاخر نفسه لله ، اما هو فلا يدري لاي شيء نذر نفسه .

رغم كل هذه التناقضات فان الازمة ما تلبث ان توقظه .. تنتزعه من تردده المتسكع هذا لتلقي به دفعة واحدة في اتونها « كان يتحدث عن الافكار والعواطف قبل الان .. في هذا الاسبوع سيعيشها في اروع اعماقها ، لن يراقب عواطف الناس ويقرأ الكتب ، سيعيش تجربة الموت والبطولة والتحدي فتفور الحياة من وجوده بعنف » (ص١٦) ..وتوقظه هذه الصحوة الواقعية على رغبته في ان يصارح ناهدة بحبه « لماذا لا يذهب اليها الان ليصارحها بحبه ، قد يموت في هذا الاسبوع . قد تموت هي . ليطلق العصفور من قفص صدره فوق البحر ، في المطر والضباب » (ص١٩) .. اما ناهدة « فقبله اطلقت العصفور من صدرها » (ص٢٢) ومن ثم فانه « في هذا الاسبوع لن يعرف الضجر ، غريب ان يواجه الحب والموت معا » (ص٢٤) ... ولكن هناك اكثر من عائق امام هذا الحب .. انه من دين وهي من الدين الاخر ، ومن ثم فانها فاقدة لحريتها تجاهه ، ثم انها رمز مقدس يريدها الناس ان تكون ما لا يستطيعون هم ان يكونوه ، فهي ابنة الشهيد ابراهيم العامري ، الذي فقدت بطولته ، خلال تقديس الناس الملح لها ، زخمها الانساني ، ومن ثم تحول الى وثن مقدس ، تنسدل اردية قداسته الوثنية على كل من يمت له بصله .. على ابنته بالدرجة الاولى .. ولكن سهيل يتمرد على كل هذه العوائق بما فيها بطولة والدها الشهيد، والتمردعلى ابراهيم العامري ليس تمردا على بطوليته ، بقدر ما هو تمرد على وثنية هذه البطولة ، فبينما يتمرد على هذه البطولة نجده مثالا للبطل الممتاز حينما يتطلب منه الموقف ذلك ، حتى في اخر الرواية ، حينما انتصرت الهزيمة .. كان بطلا .. نموذجا حيا للبطل المعاصر .. بكل ما في ازمته من ابعاد ، وبكل ما للبطولة المعاصرة من ملامح .

وقد استطاع سهيل ان يدفن في صدر ناهدة ، التي توحد حبه لها بتحديه وتمرده وضياعه ، كافة ابعاد ازمته الحضارية التي لم يجد لها مستقرا في احضان لمياء ... فجذور ازمته ترتوي من ازمة دير البحر .. ولمياء « تكره ان يقال انها من دير البحر ، فتحبس نفسها في البيت تصغي لفاغنر وشوبان وارمسترونج » (ص١٢) ... كما انها تسد بذلك النموذج الاوروبي المتخم ثقافة وخبرة وضجرا .. والذي اضجر سهيل فهرب منه الى ناهدة .. الارض والتحدي والبطولة .. الطزاجة والعفوية والطفولة .. والتي جاء حبه لها ضمن الاطار العام لتمرده وقلقه ورغبته في العودة الى جذوره .. الى دير البحر .

التقت الازمتان في بوتقة الحب والجنس وانصهرتا تماما ... ازمة سهيل الباحث عن نفسه وعن دير بحره .. وازمة ناهدة المعتقة في اقبية الحرمان المثقلة بوثنية قداستها .. ومن ثم انطلق كل منهما ليقوم بدوره كاملا في اتون الانصهار الكبير الذي تحولت فيه دير البحر الى رماد .

بعد سهيل يجيء فريد ، الشخصية الوثوقية ، ليقدم مفهومه للمأساة من خلال معايشته الخصوصية لها .. انه « يحس ان كل نقطة من دمه هي لدير البحر ، فتهدر في وجوده عاصفة من المحبة لترابها والبغض لاعدائها » (ص١٢) وهو لا يستطيع الا ان يكون « مؤمنا متعصبا حماسيا مصمما عنيفا جماعيا » (ص٢٧) فيقدم بذلك الجانب المناقض تماما لشخصية سهيل .. البطل الرئيسي الذي تريد الرواية ان تقدم من خلاله كل مقولاتها ، والتي تجيء كل الشخصيات معمقة له وموضحة لكل ابعاده .. بهذا الفهم يمكننا ان نبلع كثيرا من الاحداث التي تغيم فيها فردية الشخصيات الاخرى ، حيث هم المؤلف الرئيسي ان يشدنا الى شخصيته الرئيسية سهيل .. ولهذا فانه يقدم من خلال فريد ، الجانب الذي يفتقده سهيل ويرفضه في آن .. ان يكون وثوقيا عنيفا جماعيا متعصبا .. ان سهيل يرفض هذا الموقف ومن ثم يرفض الكثير من اراء فريد وتصرفاته وفهمه للاشياء والمواقف ... سهيل يصهر كل الاشياء في بوتقة شكه ومن ثم تخرج الحقيقة من هذه البوتقة

اكثر صلابة منها عند فريد .. رغم الرداء الوثوقي الذي تتسربل بها عنده ، ورغم المسوح الشكية التي ترتديها عند سهيل . ولهذا تجيء حرب فريد المشوقة لمعانقة النصر ، موضحة لابعاد حرب سهيل التي ليست اكثر من حرب من لا يستطيع ان يهرب « انت تحارب املا بالانتصار ، اما انا فاحارب لانني لا استطيع أن اهرب » (ص٤٣)... ان سهيل يندفع في الحرب دونما امل في النصر .. ليس لعدميته او لساديته ، ولكن لاعتقاده بان الحرب قدره .. حريته .. ومن ثم فانه يوبخ نفسه بعنف عندما تنوش فكرة الهرب ـ تحت وطأة الام التعذيب ـ عقلـه .

كما يجسد حليم بركات من خلال شخصية فريد الوثوقية ، كافة معايب هذا النمط السلوكي واهماله لاعداء الداخل ، اذ يركز فريد كل اهتمامه في خطابية زاعقة على اعداء الخارج ، مهملا تمام الاهمال كل اعداء الداخل ، بينما يعي سهيل جيدا هذه الحقيقة « هنا المشكلة .. دائما نهرب .. دائما نبرر الهدنة التي اقمناها مع الاعداء في الداخل » (ص.٥) .. ولان فريد لا يرى بوضوح هؤلاء الاعداء ، فانه ما يلبث ان يقع بسهولة في براثن عبد الجليل ... الوشاية والسرقة واللامبدأ.. الخيانة الواثقة بنفسها ، المطنطنة بكلمات جوفاء« الهرب يدعو الهرب» بينما يقف سهيل في مواجهته منذ اللحظة الاولى ، ويوضح موقفه ملامح الازمة الفلسطينية الابعاد ، بينما هم فريد ان يعلن بوثوقية وغباء انتماءه في مقابل بحث سهيل الدائب عن حقيقة ينتمي اليها .. نفس البحث الطويل المتاع الذي مزق ماتيو (١٧) من قبل ... و « من اجل ان يكون صادقا مع نفسه كفر بمعظم ما يؤمن به الناس . الصدق كان ملجأه الوحيد . وفي برهة ادرك انه بلا ملجأ » (ص١٠٥) ...ولكن كل عذابات اللامنتمي هذه ما تلبث ـ كما حدث لماتيو تماما ـ انتنصهر في بوتقة المعركة ، فتفوق مغامراته الشجاعة ، وصموده الرائع ، كل ما قدم رفاقه من بطولات .. ويصمد في صميمية نادرة امام كل صنوف العذاب التي يذيقها له الاعداء حتى ينتزعوا منه سره .. أو بمعنىاكثر دقة .. حريته .. هنا يلوح لنا سهيل الباحث طوال الايام الثلاثة الاولى عن قيمة ينتمي اليها ـ في عالم ليس بلا قيم كما يدمغ كولن ولسون العالم الغربي ، ولكنه عالم مكتظ بالقيم الجرانيتية العفنة ـ.. المتحدي لكل شيء .. الكافر بكل اله .. منتميا تماما . اذ يجد نفسه ملتزما بموقف تقدمي من الحياة خلال فردية التزامه بحريته . ولما لم تحدث طوال الايام الثلاثة الاولى اي حادثة جوهرية تؤكد انتماءسهيل او تنفيه ، فان سهيل يكون منتميا من البداية ، ومن غير معان لازمة الانتماء بالمرة .. وان كان يبدو خلال فراغه وتحديه لكافة جزئيات عالمه المتهرئ القيم ، يعاني من ازمة انتماء مريرة .

وقد كان وعي حليم بركات بهذه الحقيقة رائعا ، ومن ثم استطاع ان يصهر ازمة بطله الذاتية في اتون الظروف المجتمعية المتحدية تلك. فالازمة المحورية التي يدور في فلكها سهيل تبدو من خلال تلك الهوة الكبيرة الممتدة بين تصوره الفكري للواقع ، او بالاحرى للشروط الانسانية .. الحد الادنى من الشروط الانسانية .. التي يجب توفرها في هذا الواقع ، حتى يمكنه ان يحقق فيه كينونته ، وبين الشروط الواقعية الضارية التي يعبق التخلف الحضاري في سراديبها والتي استلت كل الشروط الانسانية من جوف هذا الواقع .. تلك الهوة الكبيرة الفاغرة فاها لابتلاعه ، هي السبب في ذلك التمزق امام شتى صنوف التعذيب عندما وقع في ايدي الاعداء اثناء اجتيازه الحدود الى الدولة الشقيقة التي يعتقد هو ورفاقه أن عندها الخلاص . وان كانت الساعة في هذه الدولة متوقفة هي الاخرى عن المسير .. تماما كساعة الميدان في دير البحر « عبر الساحة العامة ، عقربا الساعة الكبيرة لا يتحركان » (ص٢٥) .. ولعدم تحركهما دلالة رمزية متخمة بالثراء .. يفصح عنها ذلك المونولوج الداخلي « كيف يواجهون الاعداء؟ .. بالبندقية العتيقة والمسدس والخنجر والوهم الخرافي في الرؤوس والساعة المتوقفة عن المسير ؟ » (ص١٣) .. ومن هنا تكسب الحادثة كل ابعادها الدرامية النابعة من فهم الكاتب العميق لضراوة ودموية الاسلحة الفاسدة والذي يختلف كثيرا عن ذلك الفهم الزاعق المبتسر الذي قدمهيوسف السباعي . لان حليم بركات اعطى الحدث هنا امتداداته الرمزية من خلال ربطه بالساعة المتوقفة عن المسير ، واللحظة المتوهجة الدامية .

وحتى نتعرف على كافة ملامح النكبة الفلسطينية الابعاد في (ستة ايام) يلزمنا ان ندرس الامتدادات العميقة لشخصية ناهدة (١٨) تلك الشخصية الثرية بالرموز ، الملخصة لواقع الفتاة العربية ، والتيتعمق بتوازيها مع شخصية سهيل ابعاد النكبة الفلسطينية وتفضح كل ما في اعماقها من تخلف حضاري ، ومن قيم شائهة جديبة خلال رغبتها العارمة في الثورة على كل ما في ذلك العالم العنكبوتي القيم .. ليست الثورة العميقة الواضحة الابعاد ، ولكن مجرد الثورة الدون كيشوتية التي تشعرها بكينونتها « انا بحاجة الى فضيحة . اريد ان اتحدى كلهؤلاء الناس ، اكره العناكب .. اكرهها » (ص١٢٤) .. ان التحدي المصمت الخالي من كل مخطط هو رائد ناهدة للتخلص من قيود عالمها العنكبوتي القيم « عالمها ضيق . جدران سميكة تشرنقها . صور ابيها المعلقة على الجدران تشرف عليها اينما جلست . الناس يريدونها ان تكون قديسة لان اباها عرف كيف يموت من اجل بلاده ويستولي على مشاعر الناس. اصبح في نظرهم رمزا للبطولة والتضحية والرصانة واشياء اخرى لم تخطر بباله . لا تستطيع ان تؤمن بما يريدونها ان تؤمن به . حاولت ولكنها فشلت . ليس بامكانها ان تكون قديسة » (ص١١٧) .. ومنهذا التناقض بين عدم قدرتها على ان تكون قديسة ، وبين اردية القداسة التي يسبلها عليها الناس ويطالبونها بارتدائها ، بتلبسها من الداخل ولدت الرغبة في التمرد ، واستطاعت هذه الرغبة ان تتعدى هذهالحدود الشاحبة ، اذ ان التمرد على هذه القيمة جاء ضمن اطار التحدي الكبير لكل القيم الحضارية المتخلفة التي تعيشها هي وسهيل ...ولهذا فان رغبتها الصميمية في التحدي تلك تدفعها في متاهات التخبط في كثير من الاحيان « اننا نتخبط . لذلك نقول احيانا ما لا نريده . نحن غرقى . نتخبط بعصبية وتشنج » (ص١٥٩) . ذلك لان هذا التحدي ليس عميق الجذور كتحدي سهيل مثلا ، او كتحدي سعيد مهران للكلاب في رائعة نجيب محفوظ (اللص والكلاب) . اذ املاه علىناهدة

(١٧) بطل رباعية سارتر ، دروب الحرية .

(١٨) لاحظ الدلالات الثرية التي يوحي بها هذا الاسم .. الرمز.

بالدرجة الاولى شعورها الغريزي بالحرمان .. نداء جسدها النابح بالرغبة الى رجل في عالم ينظر كل رجاله اليها من خلال ستار من القداسة الوهمية . لذلك فانها ما تلبث ان تقع ثمرة ناضجة في يدي اول رجل ينظر اليها كانثى ويجردها من عباءة القداسة الوثنية التي البسها اياها الجميع دون رغبتها ، تقع في يده رغم انها تعي جيدا انه من الدين الاخر ، وتدفن في صدره كل حرمانها المتقوقع في اقبية التقاليد والقداسة ((اقتربت من فمه متحدية تراث شعب بكامله . تنجذب اليه بكل ما في اعماقها من لهفة للحياة . عالم من الفرح والالم والنشوة والحنان والاطمئنان . تنبع بصدق من دنيا مغمورة في صدرها)) (ص١٤٨) .. ومن خلال هذا الحب تعثر ناهدة على وجهها الحقيقي ، تملك ناصية قوتها ، تستطيع ان تتصرف ككائن منفصل له كينونته ، هذا الحب فقط هو الذي تمكن من ان يحقق لها رغبتها الملتاعة ((ارجوك ان تفهمي . حياتي لي . اريد ان احياها . اريد ان احياها انا)) (ص١٢٥) .. لقد سئمت تماما ان يحيا الناس لها حياتها .. قد تكون هذه نكتة سخيفة ، ولكنها الواقع المرير الذي يمزق ناهدة والفتاة العربية في عالمنا العنكبوتي الفيم .. الجرانيتي التقاليد .. ان ناهدة تريد ان تعيش تجربة التحدي تلك ، ولكنها خائفة ، ربما لجدة التجربة ، وربما لاي شيء اخر ، ومن ثم فانها تطلب توكيدا من سهيل بمشروعية التجربة حتى يمضي فيها لاخرها . ومن هنا يبدو الحب في اطار عالمنا الجرانيتي التقاليد ، كطاقة سحرية تطل منها الفتاة على العالم .. على وجودها .. وليس في هذه المسألة ادنى افتعال .. ذلك لان الحب يكتسب وجهه هذا ضمن الاطار المجتمعي العام الذي يعتبره شيئا شاذا ومحرما . ولذا تمنح الرواية هذه العلاقة عمقا وشمولا يمتدان بها الى كافة النشاطات المجتمعية الاخرى . ومن ثم تلتحم في النهاية بكل ما في واقع دير البحر من تناقضات ، فترسم لنا ببراعة كافة ملامح وجهها الحقيقي الدامي .

كل هذه الابعاد ترسم لنا بوضوح ملامح النكبة الفلسطينية المتميزة ، وتموضعها داخل الاطار الحضاري للواقع العربي كله . من خلال تزاوج ازمات شخصيات الرواية . سهيل وفريد وناهدة وليليان ولمياء وعبد الجليل وخالد . لتشكل الوان اللوحة العامة للنكبة الفلسطينية الابعاد . تلك اللوحة التي يشكل التحدي مع الرغبة الملتاعة لابناء الارض السلبية في ان يحققوا كينونتهم ، لونيها الرئيسيين .. ((لم يعد من امل في انقاذ دير البحر . لم يعد من امل بايقاف جيش الاعداء الجرادي . رغم ذلك لن ينسحبوا . لا شيء سوى ان يثبتوا وجودهم)) (ص٢٢٣) .. وقد افلحوا في ان يزيحوا عن وجه هذا الوجود كل قناعات الزيف وان يخرجوا من تحت ركام العبث والضياع المنصهرين في جوف المعركة ، صلبا وواضحا وكثيفا . وان يؤكدوا ان ساعة دير البحر المتوقفة عن المسير ستسير حتما ، ما دام ابناء دير البحر قد استطاعوا بحق ان يثبتوا وجودهم وجدارتهم في ان يحيوا في عالم تسير ساعته .

وفي النهاية احب ان اسجل لحليم بركات مهارته التكنيكية الفائقة التي اعلنت عن نفسها خلال البناء الروائي المحكم الذي استخدم فيه الكاتب بمهارة وحساسية نادرين كل الادوات الفنية التي استعملها من منولوج وحوار وتذكر واستعمال اكثر من ضمير — دفعة واحدة — في عملية القص الروائي . ولا استطيع مع كل ذلك الا ان اسجل دهشتي الشديدة لاكتشاف مثل هذه الرواية الناضجة شعرا وشفافية في ادبنا العربي .

★★★

من هذا الحديث عن الروايات التي صدرت عن فلسطين ، يمكننا ان نرى ان الروايات التي توفر لكاتبيها — كروايتي حليم بركات وغسان كنفاني — معرفة نوعية عميقة بابعاد النكبة الفلسطينية وقدرة موهوبة فنانة على معالجة الموضوع ، قد استطاعت ان تحمل لنا بجانب ابعاد النكبة الفلسطينية ، دلالات انسانية عامة خرجت بها من محدودية التجربة الفردية الى افاق اكثر شمولية ورحابة . واستطاعت ان تجسد من خلال معاقرة الكاتب الواعية لتجربته ، رؤيته لكافة قضايا الانسان العربي المعاصرة . فتمكنت رواية حليم بركات من ان تعري لنا ابعاد التخلف الحضاري الذي يعبق في سراديب مجتمعاتنا من خلال ذلك التناقض الواعي الذي قدمته بين فكرة بطلها عن الواقع ، وبين هذا الواقع ذاته . بينما لخصت رواية غسان كنفاني رؤية كاتبها لعبثية فكرة النجاة الفردية من اطار المأساة ، تلك الفكرة التي اغناها كامو فلسفيا خلال محاولة الصحفي رامبير بالهرب من مأساة البلدة — في روايته (الطاعون) ، وان كان غسان قد سيج فكرته هنا باطار قومي صرف ، ذهب بالتجربة الى كل مواقع المأساة في مجتمعنا ، واعطاها ، من خلال الطاقات الرمزية التي اثرى بها احداثه ، وجهها الشمولي الرحيب .

ومع كل هذا فاننا نسجل باسى ان الطرح الروائي للنكبة الفلسطينية ما زال نادرا .. وما زالت هناك جوانب عديدة للمأساة تستلزم المعالجة .

القاهرة **صبري حافظ**

ليلة الزفاف

— تتمة المنشور على الصفحة ٤ —

عيني وركضت نحو باب الفرج . كان عدد كبير من الناس مجتمعين هناك ويقولون لبعضهم البعض بغضب : حلب ايدت الانفصال . فصحت وانا اشعر كأن خنجرا يطعنني في صدري : باطل . ثم لا ادري كيف وجدت نفسي وانا اهتف : يسقط الانفصال . فردد معي الناس : يسقط يسقط يسقط ، فمشيت امامهم : عاشت الوحدة ، تعيش تعيش تعيش ، فمشيت امامهم : الموت للخونة ، ارواحنا فدى الوحدة . فركضت امامهم : الى الاذاعة يا شباب ، الى الاذاعة ، لنحتلها ولو قتلوا منا مئة ، ونعلن ان حلب تؤيد الوحدة . فسرعان ما وصل مئة شرطي بالسيارات ، ونزلوا امامنا . تشاجرت معهم ؟ نعم تشاجرت لكنني لم اكن سكرانا لا والله العظيم . ضربوني ، نعم وضربتهم ، فلماذا انهم ارادوا ان يفرقوا الشعب الذي يدافع عن الوحدة ؟ امسكوا بي ، نعم ، امسكوا بي واخذوني الى النظارة وظلوا يضربونني حتى الصباح ثم ارسلوني الى السجن ، نعم ، شهرا كاملا ، وهأنذا خرجت ، لكن كيف يخرج جميل نحاس من القبر الذي دفنوه فيه يا امي ، كيف ؟ وتأتين بعد ذلك وتقولين لي : متى تتزوج يا احمد ؟ فكيف اتزوج كيف ؟ كيف اترك الطبال ابا علوان يدق طبله في حارتنا وترتفع في الليل انغام المزامير ، والدنيا كلها : حزن وذل وعار ؟ كيف ألبس القنباز الابيض والف عليه الشال العجمي ورفاقي يلفهم اهلهم بالاكفان كل يوم ويحملونهم الى الجبانة ؟ لا يا امي ، مستحيل . انا لن اتركك تزغردين في الحارة . لن اترك احدا ينصب التخت في دار جارنا بشير ناعورة او يصف عشرة من الكراسي في باحتها واحدا الى جانب الاخر . ابدا لن يدخل الفرح الى بيتنا في هذه الايام السوداء ، ابدا . فاذهبي ، قومي وتغطي بالملحفة ، واذهبي الى بيت العروس وقولي لامها وابيها ولكل من يسألك من اهل الحارة : ان احمد ابن حسن بطل ، لا يتزوج ابدا ، ولا يفرح ، الا بعد ان تعود الوحدة .

— • —

يومها تكون الفرحة الكبرى . وندق الطبول في كل بيت . ويرقص الشباب في كل شارع بالسيف والترس . وتزغرد النسوان من فوق كل سطح . فان كنت انا حيا يومها ، اقول لاولاد الحارة : قوموا ودقوا الطبل في بيتي يا شباب . وتدعين انت يا امي ، صديقاتك والجارات والاقارب لحفلة الزفاف . يومها تقيمون ، انتم ، هنا ، فرحتكم الصغرى ، وتزغردين ما شئت ان تزغردي وتذهبين مع عمتي واخواتي لاحضار عيوش من بيت اهلها . والبس ، انا ، القنباز الابيض والف الشال العجمي ، واذهب الى الجبانة ، فاجلس عند قبر جميل نحاس واستاذنه : يا جميل نحاس ، يا ولد ، يا اشقر ، انا اعلم انك اليوم فرحان كثيرا ، فهل تأذن لي ان اعود الى البيت وافرح مع امي وعمتي واخواتي ، قليلا من الوقت ، هل تأذن لي يا جميل نحاس . ؟

اديب نحوي

مناقشات

حول جواب الاستاذ القصيمي

بقلم محمد جواد مغنية

تساءلت في مجلة الاداب عدد ـ ١ ـ ٦٤ عما اراده مؤلف « العالم ليس عقلا » من اللامعقولية التي حاول اثباتها لكل كائن حي .. وغرضي الاول لفت الانظار الى خطر هذا اللون من الافكار على نهضتنا واهدافنا.. ان الاستهتار بالحياة ، وبالقيم ، وبكرامة الانسان هو استهتار بالوطنية، وبالحرية ، وبكل رقي وتقدم ، هو يأس وانهزام امام الطامعين فينا والمغتصبين ، هو تواكل وتخاذل ، ورجوع الى الوراء مئات السنين .

نحن اليوم احوج ما نكون الى من يشد فينا العزم ، ويبعث فينا النشاط ، ويدفعنا الى الجد والعمل والتضحية .. لقد تخلفنا عن الركب ، وسبقنا الناس في مضمار الحضارة ، والسر كل السر يكمن في وجود اولئك وهؤلاء الذين لا هم لهم الا تثبيط الهمم ، وفسخ العزائم ، والا التشكيك بالقيم ، والتراث ، والاهداف ، وبكل ما يمت الى صلاحنا بصلة .

تساءلت عما اراد المؤلف من كتاب « العالم ليس عقلا » ، وفي العدد الثاني من مجلة الاداب لسنة ٦٤ اجاب الاستاذ القصيمي ويتلخص الجواب بانه :

« منذ بضعة عشر عاما اصدر كتابا في القاهرة قرظه الادباء والعلماء ، واثنوا عليه ـ ونقل بعض عباراتهم بالحرف ـ وانه منذ ثلاثة اشهر اصدر كتابا في لبنان لم تهتم به الصحف ، ولا ارباب الاقلام ،مع ان البعض قال عنه في جريدة الحياة فقط : لو صدر في بلد فيه ازدهار فكري حقا لضجت الصحف بتحليله ، ونقل الفصول عنه .. ومن اجل هذا هو يشعر بالمرارة والصدمة .. ـ اما انا فقال ـ اني تساءلت ، او انتقدت ولم اقرأ من الكتاب الا اسمه فقط لا غير ، وانه تمنى لو القيت نظرة ، ولو سريعة على بعض سطوره » .

وسيعلم القارىء من الذي كتب دون ان يقرأ انا ام هو ؟ .. اني قرأت وتأملت ، ثم تساءلت عن بعض اقواله التي نقلتها بين « هلالين » جريا على الشائع المعروف .. ويظهر ان صاحب « العالم ليس عقلا » هو الذي كتب دون ان يقرأ ما نقلته عنه بين الهلالين ..

والان تعال معي ايها القارىء ، لننظر ، ونتبين : من الذي كتب قبل ان يقرأ ؟ .. هل الذي قال : العالم ليس عقلا ، وانكر الحقائق والقيم، او الذي آمن بالعقل وحقائقه ، واحكامه وقيمه ؟ ..

قال صاحب « العالم ليس عقلا » في ص ٣٠٣ ما نصه بالحرف : « وجد الكون تحت ظروفه الاضطرارية التي لا قصد فيها ولا عقل .. » وقال ص ٣٠٥ : « ان ما في الوجود يشبه ان تقذف طائرة بمقادير من العملة الصعبة بدون قصد في اسلوب القذف .. » اه من العملة الصعبة .. فانها تماما كالبرد علة العلل .. وقال في ص ٣٦ : « الكون ليس فيه افكار ، ولا تفسيرات فكرية ، وانما فيه حركة ، والحركة لا تفسر بغير الحركة ، واسلوب تفسير الماء بعد الجهد بالماء هو الاسلوب لتفسير الكون .. » . وفي صفحة ١٦ : « ليس في التزام الانسان بالحياة معنى اكثر من التزام الحجر بالوجود .. وهل تجد الطبيعة في كلمة ولد معنى افضل واذكى من كلمة مات .. » وفي كتابه البالغ ٥٨٠ ص الشيء الكثير من هذا النوع ..

اذن ، فما ذنبي اذا قلت ، وكتبت متسائلا : « لست ادري : ما الذي حمل المؤلف ، وبعثه على العداء للعقل ، حتى بلغ به الحقد عليه ان انكر وجوده من الاساس ، او يعترف له بادنى اثر في هذا العالم.. » وهل اذا قلت هذا يصدق في ما قال صاحب « العالم ليس عقلا » اني كتبت دون أن اقرأ ؟! ..

وقال في ص ١٨ : « ليس شيء مما نفعله واجبا ، او نبلا ، او بطولة ، ولكنه تعبير عن ورطة .. » . وفي ص ١٠٥ : « كل الناس يحولون الامهم ومتاعبهم وجهلهم وكذبهم وحقدهم وبغضاءهم ونفاقهم وهراءهم وغثيانهم الى كلام : الانبياء والاذكياء والفنانون والزعماء والحكام وكل الكبار يحولون ذلك ـ أي نفاقهم وكذبهم الخ . حتى الانبياء ـ الى كلام مكتوب .. » وقال في ص ١٠٩ : « ان الناس لا يريدون باعمالهم ان يحققوا شيئا ، بل ان يهربوا من الصمت ، وانا اكتب لاني لا استطيع ان اسكت .. » وفي ص ١٠٦ : « الكلام لا يعترف باي واقع ، ولا باي منطق .. كل الناس يتكلمون بلا صدق ، ولا عدل ، ولا محبة ، ولا علم، ولا ذكاء ، بل ولا ارادة لمعنى الكلام .. كل الناس يكذبون ويقبحون ، ويرفعون اصواتهم عندما يكذبون .. » وفي ص ١٠٧ : « ان المتكلمين قوم يبصقون انفسهم على الاخرين ، وكأنهم يتكلمون ، او يفكرون ..ولعل البشر لم يخترعوا الكلام ، ليقولوا الحقيقة ، أو ليبحثوا عنها .. »وفي ص ٣٠٩ : « لقد كانت عقائد الانسان الغيبية تعبيرا دائما عما يريد أن يكون .. والفرق بين من يعبد الله ومن يتبع الشيطان فرق في التعبير عن الاستجابة للذات ، لا عن الاستجابة للحقيقة .. والمبادىء هي التعبير البلاغي عن الاهواء الخاصة .. » .

وبعد أن قال صاحب « العالم ليس عقلا » « لا واقع ، ولا منطق ، ولا حقيقة ، ولا بحث عن الحقيقة ، وان من يعبد الله ويتبع الشيطان سواء ، وان المبادىء والمثل تعبير عن الاهواء ، هل بعد هذا يكون قولي: « قال المؤلف : ان افعال الانسان واقواله لا تعبر عن الواقع ، ولا تمت الى الحقيقة بسبب » هل قولي هذا بلا علم ولا قراءة واطلاع !؟ ..

وقلت ايضا : « يعتقد المؤلف بعدم شرعية هذا العالم » وقال في الجواب : اني قلت هذا دون ان اقرأ من الكتاب الا اسمه ، مع اني لم اقل ما قلت الا بعد ان قرأت قوله في ص ٥٦٩ : « ولكن الكون كوحدة لا تفسير له ، وليس علة ولا معلولا ، ولا مركز لشيء ، ولا تابعا لشيء ، وانما هو كتلة هائلة صماء متوحشة تدور في فراغ رهيب متوحش لا حدود له ، ولا معنى .. » . وايضا قرأت قوله في ص ٥٧٠

و ٥٧١ و ٥٧٢ : « البشر يتطورون بمعنى يتراكمون .. وكل ما يحدث في الطبيعة هو تراكم لا تطور .. ان وجودنا مفروض علينا بلا تدبير منا، وبلا تدبير من خارج ، انه قضاء لا تدبير فيه ، لا لمن قضاه ، ولا لمن قضي عليه .. » . وفي ص ٣٠٦ : « التفكير المفصل عن الوجود ليس غير موجود ، بل مستحيل الوجود .. لا يوجد منطق ، ولا تفكير ، وانما مادة لها خصائص ، واحساسنا بهذه الخصائص المادية هو ما نسميه منطقا ، او فكرا ، او قصدامدبرا .. » .

والان ـ يا استاذ ـ من الذي كتب ، ولم يقرأ ، حتى ولا قراءة سريعة لبعض السطور ؟! . كلا ، يا استاذ اني قرات شطرا كبير من كتابك ، لا بعض سطوره فقط ، وتأملت كثيرا في كلماته قبل ان اخط حرفا واحدا ، واعطيتك الشواهد والارقام على ذلك حين قابلت بين ما قلته انا ، وما جاء في كتابك « العالم ليس عقلا » .. اما الذي كتب دون ان يتأمل فهو الذي قال في ص ١٦ و ٥٧٢ : « ان كلمة مات ، وكلمة ولد في معنى واحد » وفي ص ١٩ : « ابعد الناس عن الاحساس بالفضائل، واحترامها هم اكثرهم اعطاء لها (١) ... » وفي ص ١٠٩ : « ان حوافز كل عمل نبيل هي حوافز كل عمل سخيف .. » وفي ص ٢٢٧ و ٢٢٨ : « والعقائد الدائمة ان براهين وجود الله هي دائما براهين نفيه، وان اسباب الثناء عليه هي اسباب الطعن فيه .. » وايضا في ص ٢٢٧ : « اذا اشترطت لله شروطا فانك لن تجده ، وان لم تشترط له اية شروط فانك من جهة تحقره ، ومن جهة اخرى لا تستطيع ان تثبته ، فالله مشروطا محال ، وغير مشروط محال وخطيئة .. » وفي ص ٥٧٣ : «قالت الاديان : ان البشر وجدوا ليعبدوا الله ، اما المؤمن فيرى ان الله وجد البشر .. » في ص ١٠٦ : « والذي يقول : السلام عليكم ، ليس مسالما اكثر من الذي يقول : اللعنة عليكم .. » .

كل هذا ، واكثر منه قرأته ـ يا استاذ ـ في كتابك « العالم ليس عقلا » قبل ان اخط حرفا واحدا .. وفيه تجد التفسير ، لاكتفائي بالتساؤلات التي نشرتها في مجلة الاداب ، واشرت في اولها الى ذلك.. وربما وجدت فيه ايضا التفسير لسكوت الادباء والمفكرين والصحف في لبنان عن الكتاب الذي اصدرته منذ ثلاثة اشهر..هذا السكوت والتجاهل الذي شعرت انت من اجله بالصدمة والمرارة .

اجل ـ يا استاذ ـ فصل واحد لم اقرأه في كتابك « العالم ليس عقلا » حين كتبت تلك التساؤلات ، ولذا لم اشر اليه بحرف واحد من قريب او بعيد ، اما الان وقد قرأت هذا الفصل ، واعني ما ذكرته بعنوان « طبيعة التفكير العربي » فاني انقل للقراء مقتطفات منه ،لا للرد عليها ، بل كعذر للادباء والمفكرين في لبنان بلد الاشعاع حين تجاهلوا الكتاب الذي اصدرته منذ ثلاثة اشهر . ومما قاله المؤلف في ص ٤٨٣ وما بعدها :

« احدى خصائص التفكير العربي عجزه عن التفوق على ظروفه وتكييفها تكييفا كبيرا .. انه عاجز عن الاقتحام ، فلا يكون فعالا .. التفكير العربي لم يستطع ان يتصور السعادة ، او المثالية في هذه الحياة ، او في الانسان ، فهو لا يدرك كمال الانسان ، ولا كمال الاشياء.. التفكير العربي قد عجز عن ان يؤمن بالاحزاب المتعددة الحرة لرسوخ الوحدانية فيه .. التفكير العربي يترقب دائما الموت .. وفناء العالم.. التفكير العربي تفكير لاهوتي ، يفسر كل شيء تفسيرا لاهوتيا .. وللخيال العربي عيبان : عاجز في طاقته ، منحرف عن موضوعه .. الشعوب العربية لا تعترف بقيمة النقد ، بل لا تعرفه .. سوق الفكر العربي اعجب سوق ، يوجد فيها كل الناس يتساومون ، ويتعاملون ، ولكن جميع البضائع التي يتعاملون بها زائفة .. التفكير العربي ضيق الصدر ، متابع الانفاس ، لا يملك الطاقة التي تجعله يحلق فوق وحدات الموضوع.. التفكير العربي تفكير اتكالي هارب من نفسه ـ اما السر لذلك كله ـ فهي نظرية وجود الله ، فهي القاعدة لهذه الاخطاء .. » .

الى اخر هذا الكلام الذي استغرق ٦٤ صفحة من صفحات الكتاب.. والعجيب الغريب ان يقول المنصفون من علماء الغرب : لولا الفكر العربي لتأخرت الحضارة الحالية مئات السنين ، ويقول نهرو رئيس وزراء الهند في كتابه « لمحات من تاريخ العالم » : العرب هم بحق وجدارة ابناء العلم الحديث ، ثم يقول الاستاذ القصيمي العربي : الفكر العربي ضيق متقاعس اتكالي لا يستطيع التصور ، ويعجز عن التفوق ...

اليس هذا تثبيطا للهمم والعزائم ، وترويجا ـ عن قصد او غير قصد ـ لدعايات الطامعين اصحاب العملات الصعبة ، ومؤامراتهم ؟!.. ومن غريب الصدف ان ينشر هذا القول في الوقت الذي تعزم اسرائيل على تحويل مجرى نهر الاردن .. نحن اليوم ـ كما قلت ـ احوج ما نكون في اي وقت مضى الى ادب الحياة والنهضة ، والتشجيع والتفاؤل، لا الى ادب الانهزام ، والتخاذل ، وتشويه الحقائق ، الى ادب يصور لنا التطور والتقدم ، لا التكدس والتراكم ، وتشبيه الانسان بالحجر، والبشر بالقطع اللاواعية المتراكمة .. ولست ادري لماذا يحاول الكاتب ان يقيم الحواجز .. ويضع العقبات في طريق نهضتنا وتقدمنا ؟! . ولكن هيهات ان يقف دعاة اللامعقولية ، ونفي القيم من هذه الحياة .. بل الف هيهات ان يقفوا امام الذين يؤمنون بالله ، وبقوميتهم ، وبكل ما فيه الخير والصلاح لامتهم وللناس اجمعين ، ويعملون لذلك جاهدين مخلصين، هازئين بالادب البائس اليائس ، وبدعاته في الشرق والغرب .

وبعد ، فنحن بالمرصاد لكل مؤامرة على ديننا ، وتراثنا واخلاقنا .

محمد جواد مغنية

---

(١) اي ان فاقد الشيء يعطي منه الكثير ، وعلى هذا المنطق اجاب عن تساؤلاتي دون ان يقرأها ، ثم اتهمني باني كتبت عن الكتاب ، ولم اقرأ منه شيئا ..

رد على نقد

بقلم : فتحي زكي

قرأت بمزيج من الدهشة والضيق ما كتبه الدكتور احمد كمال زكي في نقد قصص العدد الماضي من الاداب ومنها قصتي التعسة « عوض » التي لم يقدر مدى المجهود الاليم الذي بذلته في صياغتها والذي احسه كثيرون من القراء .

واما الدهشة .. فلانه لا زالت لدينا في دنيا النقد مثل هذه المطلقات النقدية التي يترنم بها الدكتور احمد كمال زكي .. هذه المطلقات التي اؤكد انني قرأت كثيرا منها في غير نقد الدكتور لقصتي.. ولكني لم استطع ان اخرج منها بطائل .. اي طائل .

وعلى اي حال .. فقد سئمنا هذا النقد الذي يتميز بالقدرة على اختلاق العيوب في اي نص يتناوله .. ولا يستطيع ان يضع يده على اي حسنة من الحسنات والا ظن الناقد انه هدم نفسه بنفسه .

واما الضيق فلانني احسست ان الدكتور يريد ان يتظرف في الحديث - وانا اربأ به ان يكون متظرفا - وان يتهكم على كاتب اتهمه بقصر الباع وحداثة العهد .. وذلك بالقول بانه لم يقرأ له اي شيء قبل قصة « عوض » .. ومع ذلك فلا يظن انه خسر شيئا !!

ولا يرجع ضيقي الى محاولة الاستاذ للنيل مني فقط - فقد احسست من نقده لبقية القصص الاخرى انه يقف من الجميع نفس هذا الموقف الحاد .. ربما عن دون قصد .. بل لاني احسست انه انما يهزأ بمجلة الاداب نفسها لانها تنشر لادباء لا نفع منهم .. بل لادباء يشاركون في انحدار مستوى القصة والرجوع بها الى عهد «الحواديت».. اذ لا توجد بين قصص العدد الماضي كلها قصة واحدة « تخزي العين ».. وليعذرني الدكتور في ان استعمل لهجته في الكلام .

وانا لن احاول ان اناقشه في رأيه في القصة . فاني اؤكد له اني قرأته اكثر من مرة ولم افهم منه شيئا .. ولم اضع يدي على ما يريد. ولكني احب ان اناقشه في جملة جاءت في كلامه .. ربما عن دون قصد ايضا .. واعتقد ان ليس من حقه ولا من حق غيره من النقاد ان يقولها. وهي انه كان يريد ان يشير بان اترك القصة لغيري من المخلصين الجادين .. ولاتفرغ انا للسيناريو .. لولا - وشكرا للدكتور - طاقتي الواعدة في السرد .

ما معنى هذا ؟! .. اهو مزيد من التظرف .. ام النقد ؟! .. وهل يظن الدكتور احمد كمال زكي ان كتابة السيناريو تحتاج من الفنان جهدا اقل من كتابة القصة القصيرة ..

ان السينما هي الان جماع فنون القرن العشرين .. ولا يخفى على الناقد ان الذي يحب ان يتصدى للكتابة لها لا يجب بحال من الاحوال ان يكون ذلك الكاتب الذي عجز في رأيه عن كتابة قصة قصيرة .. فهل يوافقني الدكتور على هذا .. ام انه تورط في قول لم يقدر تبعاته .. ودخل في مجال لا يحسن فيما اعتقد الكلام فيه ..

واما كلمته بشأن عدم سماعه من قبل عن كاتب هذه السطور .. فهل كان تقديره للقصة سيزداد لو انه كان يعرف اسم صاحبها .. او هل كان ذلك يشفع له ببعض الكلمات الرقيقة على الاقل ؟ .. وفي الختام .. احب ان اقول للاستاذ الشاعر احمد كمال زكي .. انني رغم كل ما قاله في تسخيفي .. فاني اعجب بالكثير من شعره .. بغض النظر عن رأيه في قصتي ..

وآسف جدا لاني تسببت في مضايقته بهذا القدر الذي بدا من ثنايا حديثه .

القاهرة — فتحي زكي

الابحاث

– تتمة المنشور على الصفحة ١١ –

الحيوية القومية التي كانت تدفع بالعرب جميعا ، برجوازيين واقطاعيين وفلاحين ومثقفين ، الى معاناة الخطر العام الناجم عن غزو اليهود المتزايد يوما بعد يوم . فاليهودي الفقير او الغني هو سواء من حيث انه غاز مسلح بمشروع استعماري بعيد المدى .

٢ – ثم يفند الكاتب(الرؤية الشوفينية) للمسألة الفلسطينية ، لانه يخشى على هذه المسألة من ان تؤلف صراعا تعصبيا بين قوميتين . فكما هو ضد التعصب الديني ، فانه كذلك ضد التعصب القومي .خاصة وانه قد يفهم من هذه الرؤية ان اليهود يؤلفون قومية قائمة بذاتها . ولكن الكاتب لم يبين لنا متى تنتهي حدود القومية في هذه المسألة ومتى تبدأ حدود الشوفينية . ولست ادري ان كان الكاتب يعتبر ان القومية العربية ، وفي هذا النطاق بالذات ، هي شوفينية ام لا . ليس هناك من جواب مباشر .

ومن جهة اخرى فانه يهاجم من خلال هجومه على الشوفينية ، الاستغلال اليميني لهذه القضية ، وتفسيرها للقضية اليهودية على اساس الطبع اليهودي الذميم والاخلاق اليهودية السلبية . فقد نفقد بذلك هذا الجزء من اليهود الذي لا يناصر الصهيونية – مع العلم ان الاحداث قد ثبتت ان هذا الجزء لا اهمية له في ميزان الواقع ، وان الصهيونية العالمية استغرقت تقريبا كل اليهود في العالم ، ما عدا بعض الاصوات من علماء ومفكرين .

اما ان الرؤية الشوفينية قد تخسر تأييد القوى التقدمية في العالم، ومنها الشيوعية طبعا ، فذلك قد يكون صحيحا . ولكننا لم نعلم حتى الان ان كان يعبر الكاتب القومية العربية في مضمونها الاشتراكي النقدمي ، شوفينية ام لا . والقومية العربية من جهة اخرى ملزمة ان تدرس علاقة المعسكر الاشتراكي التقدمي في العالم بالقضية الصهيونية من وجهات نظر مختلفة حسب الظروف السياسية المتطورة . فقرار التقسيم مثلا ايدته روسيا الستالينية . وحتى اليوم لم تتضح وجهة نظر المعسكر الشرقي بصورة نهائية من مأساة فلسطين ، وان اصابها كثير من التحسن عما كانت عليه من قبل .

وللكاتب تحليلات طبقية متشعبة ضمن فلسطين قبل النكبة ، كانعكاس لاوضاع الامبريالية وغيرها . وقد يمكن متابعة هذه التحليلات احيانا لو اتضحت الادلة عليها ، بصورة كافية اكثر . وقد تصدم بعض هذه التحليلات الوجدان القومي عند القارىء ، خاصة عندما يحاول الكاتب تفسير الاضطهاد اليهودي ، وتبرئة الجماهير اليهودية في فلسطين من موقفها العدواني ، وتوحيد وضعها الاقتصادي مع الجماهير العربية الاخرى ، وتصوير قضية فلسطين كلها ، وكأن العرب واليهود (معا) كانوا ضحية للعبة الانكليزية الاميركانية . ومما يؤذي وجدان المأساة ايضا هذا التفسير للحرب الفلسطينية ، وكأنها حرب مصطنعة دفعت اليها البرجوازية العربية للتخلص من بعض تناقضاتها الداخلية . وكان الاحرى بالكاتب ان يتذكر الاحداث ، فيرى كيف ان الحكومات الرجعية، قد دفعت دفعا من قبل الجماهير العربية لاعلان هذه الحرب ، ثم خانتها.

وعلى كل حال ان عيب التطبيقات الماركسية على مشكلاتنا القومية والاجتماعية – هذه التطبيقات الاخذة بالنمو والاتساع ثانية في ايامنا هذه – هو انها تفتقر دائما الى ثلاثة عوامل اساسية : اولا – الفهم الحقيقي العلمي للماركسية وتطوراتها ومدارسها المختلفة . ثانيا – المعاناة المخلصة لمعطيات واقعنا العربي وخصوصية مشكلاته . ثالثا – القدرة على اصطفاء الاطر النظرية وملاءمتها مع هذه المعطيات، دون تعسف او قسر يشوه المبدأ النظري من جهة ، ويزيف وجه الواقع منجهةاخرى.

ويأتي مقال الدكتور (زكريا ابراهيم) وهو (شهادة فيلسوفامريكي حول القضية الفلسطينية) صورة فكرية عن مناقشة الحجج الصهيونية التقليدية من اجل الاستيلاء على فلسطين . والمقال طريف في حد ذاته، يقدم نموذجا عما يمكن انيثير مفكرا غربيا متدينا ضد اقامة وطن يهوديفي فلسطين . ولسنا ندري من خلال هذا المقال ، ان كان (هوكينج)يتحمس لعدالة القضية العربية ضد اليهود ، من اجل هذه العدالة ذاتها ، او لدوافع دينية وفكرية موضوعية اخرى . وعلى كل حال فان هوكينج يبدو انه قانع بان اليهود يصدفون حججهم تلك ، دون ان يكشف عن الدوافع الاستعمارية والراسمالية اليهودية والغربية وراء هذه الدعوة الشرسة لاقامة دولة اسرائيل

هذه بعض الملاحظات العابرة حول بعض المقالات السياسية والتحليلية التي حواها العدد الممتاز . واما المقالات التي تتوجه الى دراسة ثقافة النكبة ذاتها ،فهي قليلة . وهذا القليل لا يفي باي جزء من الموضوع . ولربما افادنا الاخ عبد الجليل حسن من مقاله الذي استعرض فيه فهرسا شاملا حول مختلف الكتب والدراسات التي ظهرت عن فلسطين . واذا كان هناك من ينوي ان يقوم بدراسة حول ثقافة النكبة ، فلعله يستفيد من هذا الثبت الفهرسي الجامع . انه توطئة علمية لدراسة علمية .

ولا بد اخيرا ان اسجل هذا النقص الكبير الذي يلمحه القارىء في العدد الممتاز فيما يتعلق بالهدف الاصلي للعدد ، وهو درسة ثقافةالنكبة، بما فيها من ميزات ونواقص . انه عمل لا بد ان يستثير همم الادباء مجددا ، في هذه المرحلة ، ليساهموا الى جانب السياسيين في خلق الجو الملائم لمعركتنا القادمة .

مطاع صفدي

القصائد

– تتمة المنشور على الصفحة ١٣ –

الشاعر نزع الغلاف الضبابي الذي يحيط بعمله الفني . فهذا شيء لم يكن في وسعه ، ثم ان كثيرا من هذه القصائد الضبابية ينجح في ان يخلق في نفوسنا اثارات سرعان ما تتجمع وتتبلور في نفوسنا مشاعر عميقة وان لم تكن دائما ذات طابع محدد . ولكن ينبغي الا تنسينا هذه الحقائق حقيقة اخرى مهمة ، وهي ان الضبابية المتكلفة ، لا لشيء الا للايحاء بان وراءها شيئا وشيئا ثمينا يستحق العناء من اجل الوصول اليه ، لا يمكن قبولها بحال من الاحوال ، وينبغي الا تلتبس علينا بالضبابية التلقائية . والفصل بين هذه وتلك يحيلنا الى الكلام عن نضوج التجربة . فالتجربة الناضجة تفصح عن نفسها حتى في اكثر اطر التعبير ضبابية . وعلى هذا الاساس نستطيع ان نميز بين تجربة وتجربة ، ونتيجة لذلك بين قصيدة وقصيدة . على انه اذا كان من الصعب لدى القارىء تحديد مدى نضج التجربة ذاتها فلا اقل من ملاحظة التعبير والايحاءات المختلفة التي يثيرها كل مقطع في القصيدة وكل بيت بل كل عبارة وكل كلمة .

واسوق الان مثالا من قصيدة الشاعر محمود البستاني ((هي واياز والشتاء)) . فهو يقول في المقطع الاول منها :

وحدقت عيناي والريح في ابعاد	ابعاد الدجى تعوي
يفور في كهفيهما جامدا	كل نهار راعش الصحو
تحدجان الشبح المنزوي	وراء غابات من الشجو
يقتاده الغيب الى مخدعي	عبر رؤى مشلولة الخطو
تحمل لي من لسعات الدجى	اي تهاويل هنا تشوي
تهجس بي تهمس مهتاجة	ـ وموكب الزحام بي يلوي ـ
عن ازمات العالم المرتشي	ضميره في غمرة السطو
((الهه)) يبحث عن ((حاذق))	ينذر في الاعين ما يغوي
يغوي بنذر الموت لم يرتعش	((كفا)) تذري شبح المحو
يبحث عن سهم ((كيوبيد)) من	((بفضائه)) طلائع الغزو
أليس سهم الحب نهر الى	حقل ((يهوذا)) مره يستهو

واعتذر اولا عن هذا الاقتباس الطويل ، ولكنني شئت ان اجعل المقطع كله بين ايدينا . فكثيرا ما تعكس بعض الصور ظلالها على بعض فتتضح امامنا الرؤية بعد ان نكون قد استوعبنا الموقف كله بكل صوره الجزئية . فاذا لم يتحقق هذا الانعكاس وشطحت بنا كل صورة في واد كان ذلك دليلا على تمزق التجربة الشعورية وعدم وضوح الرؤية .

فاذا عدنا الى الابيات وجدنا انفسنا في البيت الاول قد تهيأت لاستقبال رؤى مخيفة . فالليل داجن والريح تعوي . وسواء أكان هذا العواء هو حقا عواء الريح ام العواء الذي يصطخب في اغوار (ابعاد ابعاد) نفس لشاعر فالنتيجة واحدة ، وهي ان الصور المرئية محيفة ومفزعة . لكن هذا التوقع يصطدم فجأة بصورة اخرى عن تجمد كل نهار صحو في عيني الشاعر . هذه النقلة المفاجئة تبدو لي معترضة طريق الرؤية ومعطلة لها بلا مبرر . فالسياق النفسي يتسق تماما لو ان الشاعر اسقط البيت الثاني واستبعد هذه الصورة الطارئة .

ان عينيه قد ابصرتا في ظلام الليل شبحا ينزوي ((وراء غابات من الشجو)) ، وهذه الرؤية متسقة . فكثافة الاسى الكامن في نفسه تجعل المرئي شبحا غير محدد المعالم . هذا جميل ، ولكن ظهور هذا الشبح لم ينعكس بعد ذلك على الرؤية في مجملها . فما كاد الشاعر يحدثنا عن مجيء هذا الشبح عبر رؤى مشلولة الخطو حتى تركه ـ بلا مبرر ـ لكي يحدثنا كيف ان هذه الرؤى تحمل اليه لسعات الدجى التي تهجس في نفسه وتهمس في هياج ـ لا ادري كيف ـ عن ازمات العالم المرتشي . يا لله ! أكان ادراك ((ازمات العالم المرتشي)) في حاجة الى كل هذه الرؤى والتهاويل ؟ لقد هبطت على رأسي عبارة ((ازمات العالم المرتشي)) كقطعة الثلج في برودتها وواقعيتها ، وجعلت كل البطانة النفسية التي مهد بها الشاعر كما لو كانت مجرد عبث من عبث الخيال .

هذا المثل يوضح لنا كيف تكون الرؤية ممزقة نتيجة لعدم نضوج التجربة وتماسكها ، وكيف تكون ((الضبابية)) في هذه الحالة مجرد لعب بالخيال والصور اللفظية الجزئية . وفي هذه الحالة لا نملك الا ان نفضل التجارب الشفيفة المتكاملة التي تنقلها الينا قصيدة كقصيدة ((عودة التائه)) للشاعر علي هاشم رشيد او قصيدة ((الغريب)) للشاعر ناجي علوش .

***

وبعد فقد مرت جولتنا في شعر العدد الماضي بمعظم قصائده . ولما كانت غالبية مواقفنا مع هذه القصائد تتلخص في محاولة تفهمها او استنباط الظواهر العامة والقضايا المشتركة فان بعض القصائد لم ترد في سياق حديثنا الاشارة اليه . ولكنني احب ان اؤكد ان هذا لم يكن اهمالا مني لشانها وانما الامر لا يعدو ضيق اطار الحديث نفسه عن استيعابها .

القاهرة — **عز الدين اسماعيل**

القصص

— تتمة المنشور على الصفحة ١٥ —

و « الطريق المسدودة » و « جريمة في قطنا » في درجة واحدة من الجودة محافظة على معنى التمزق والضياع ، وان تفاوتت مآخذها بين الاغراق في المحلية والتفاني في التغرب .

وربما كان علينا ان نقدر تقديرا صائبا مهارة اصحابها . فالتقدير في حد ذاته بعض ما يقر به اي ناقد ، غير ان لفت النظر الى مآخذهم لا يختلف عن التقدير نفسه، فتصبح المسألة هي : هل استطاعوا ان يقولوا ما يجب ان يقال ؟ ولا اسأل ماذا كان مدى مقدرتهم على الوفاء للقضية، لانني لم اقصد بهذا الى الحسيني ولا الى الكيلاني .

وليس المهم في سبيل الوصول الى الحقيقة ان نقر باختلاف كل منهج عند كل قاص — اذ لا بد ان يكون ثمة اختلاف — بل المهم ان نتأمل السياق الفكري والعاطفي الذي لا يطمس المضمون قط ، ولحسن الحظ ان القاصين الاربعة كانت لديهم قوة الاقناع بمضمون لا ترفضه حتى العقول المتبلدة .

وابدأ بقصة احمد سويد « عندما تشرق الشمس من المغيب » فتلقانا فاطمة ام جابر — وهي واحدة من لاجئي احد المخيمات — تستعيد ذكريات الامس متطلعة الى بيتها على الطرف الاخر من صفد ، وكان قد اغتصبه اليهود من سنوات وصرعوا ابنها « جابر » في معركة القسطل ، ثم صرعوا اباه في احدى معارك المقاومة . وبقيت هي مع حفيديها زياد وجهاد ، ترقبهما وهما يشبان عاما بعد عام ويتعلمان كيف يبعثان الشمس من حيث غابت خلف صفد .

وموتيفات القصة كثيرة جدا ، ولكنها لا تقدم نقلات ايجابية في السياق . فاليهود الخنازير يريدون تجفيف الحولة ، وسميحة اخت فاطمة لا تزال في كنف « الكفار » اي الخنازير انفسهم ، وهم ايضا قتلوا « طحيش » الكلب لانه نبح فيهم ، وبيتها فوق التلة الخضراء تطل من شباكه يهودية تتصيد الرجال واحدا بعد واحد ، وهكذا ...

فنسأل : اترى كان يمكن لاحمد سويد ان يتخلى عن هذه الصور ؟

ان للناقد الحق في ان يفصل ما استطاع في مثل هذه المشكلة ، وعليه حين يقر بضرورة وجود موتيف دون اخر ان يقنع الفنان بما يقر، والا فستظل دعواه مجرد اقتراح لا خطر وراءه .

وانا متفق كل الاتفاق مع المؤلف في ان موتيفاته — وقد كانت في اطار اقليمي نابض — رسمت الجو المناسب ، واعلم ايضا ان زحمتها كانت متساوقة مع عمليات الاجترار التي كانت تصدر عنها ام جابر ، بل اعلم ايضا ان موضوعية القصة نفسها لا يمكن ان تقوم الا عليها وبالطريقة التي بسطت بها . الا ان كل هذا لا يمنعني من أن اسأل احمد سويد : ما ضرورة حكاية « زرع الاسماك » مثلا ؟ الم يكن اولى به ان يقف عند رحلة الخروج في سهل الجاعونة لتكون ثمة مقابلة بين خروج العرب وخروج اسرائيل القديم ؟

واكثر من هذا اسأل : اترى كان ينقص القصة شيء لو حذف منها « مشهد » اليهودية التي تتصيد الرجال في بيت ام جابر ؟ ان لليهود مخازي دونها هذا المشهد بكل تفصيلاته !

انني اقول ان احمد سويد كان مؤثرا شاعرا ، ولكنني لا اطلب من القصة ان تعطيني هذا العطاء فقط .

***

ونصل الى « الغرباء » التي كتبها من بيروت حسين قاسم، وتشترك مع قصة سمر العطار « الطريق المسدودة » في شدة القصر ، كما تشاركها في تقديم صورة الفلسطيني المهاجر . ولكن بينما يجري قاسم وراء مهاجره في كامبوسي ومدن سان باولو — لعله يقصد ساو باولو — نرى سمر العطار تتعقب بطلها في سوريا وفي جبهتها الامامية ، لانه كان ضابطا وكان يؤلمه ان يسمع من يقول : هو فلسطيني !

كان يستشعر عارا ، وكان المهاجر الى البرازيل يحس العار نفسه . وكلاهما بعد ذلك مضيع ، غير ان ضياع البطل في ساو باولو كان يصاحبه مرارة تدل عليه حمله جواز سفر عليه انه « مواطن دولي » بعد ان كان عربيا من رام الله . واما الضابط فقد كان يحاول ان يكون انسانا في وطنه الجديد — لانه قطعة من ارض العرب — ولكنه صرع وكانت اليد التي صرعته يدا عربية وقيل اذ ذاك : كان فلسطينيا !

اهي خيانة ؟

ان سمر العطار تقول ان ضابطها ابعد عن الجبهة لانه لم يمجد الكيان الذي اصطنعه ضباط الانقلاب الانفصالي في سوريا . وعندما فكر في زيارة صديقه ليعرف هل هو احد الذين خانوا قضية العرب في اطارها الوحدوي الاول اردته رصاصة على باب خيمة الصديق في المعسكر .

ولكن عنصر الخيانة في قصة قاسم اكثر سفورا ، وكان يدور حول الدور الذي لعبه جلوب باشا ابو حنيك بعد سقوط لواء الجليل ، وانتهى بالقضاء على المقاومة العربية . لقد مر عليها قاسم ، ولكن بيد ماهرة ربطت اقصوصته برباط متين ، ومع ذلك فلم تكن تلك القصة في جملتها محكمة تماما . بل لعل قصة سمر اكثر منها احكاما ، برغم ان هذه بدورها ليست من النوع الذي يمكن ان يكون نموذجا رائعا .

***

واخر القصص « جريمة في قطنا » وقد كتبها محمد المجذوب مصطنعا فيها اسلوبا رفيعا واناقة ظاهرة . واخشى ان اكثر النقاد — ولا سيما الموقفين منهم — يختلفون معي في تقبل تلك الصياغة المترفة ، ولعلهم ان يقولوا : قد يقبل التصنع الانشائي لو كانت القصة لا تريد ان تكشف عن موقف ، اما وانها تناقش قضية الفلسطينيين على الصعيدين الواقعي والانساني فليس يحق للفنان ان يعنى باكثر من الحقيقة

عارية .. شنيعة ! بل قد يضيفون الى ذلك قولهم : كلما كان الكاتب اقرب بلغته الى لغة الحديث العادي او الى لغة الصحافة اليومية كان اقدر على « التفاهم » والعطاء والتفسير .

ونحن عندما نتعمق هذه الدعاوى يتبين لنا خطلها ، لان لاي قصة اسلوبها الذي ينبغي ان يرتفع عن اسلوب الحديث العادي باعتبارها فنا والفن في الحقيقة استعداد وفطرة ومعاناة وكد .

ومهما يكن من شيء فان القصة قد تغري باكثر من ذلك ، ومن ثم ندع مشكلة اللغة الى احداثها فنرى رقيبا في قوة اليرموك بدمشق - اسمه برهان - يتصل به عن طريق الهاتف زميل من ضابطة قطنا يخبره بان رقيبا اردنيا - وهو من قوة برهان - قتل عند مدخل البلد . وانه يستعد للتحرك والتحري يذكره خبر الموت بموت زملائه القدامى في معارك القدس وغيرها ، وكيف ان الله مد في عمره حتى يشهد بعيني رأسه كيف اصبح الجهاد من اجل فلسطين فرصة للاثم .

وعندما وصل الى الطريق الداخل الى قطنا مع المحقق ، اطلع على التقرير الذي كتبه كبير الدرك . وعن طريقه نقف على حقيقة شخصية الميت . فهو شهم شجاع اعتاد ان يتردد على مركز قطنا في اثناء تجواله لمراقبة المتطوعين ، وكان اخر عمل قام به هو اخراجه بعض المتطوعة بالقوة من خمارة « ابو جورج » . وجيء بالخمار ، فذكر اسماء بعض مرتادي خمارته ، وعن طريقهم حصر روادها وظهر ان جماعة من العاملين معه اغتالته . وعلى الرغم من ان محاكمة القتلة كانت تجري مجراها الصحيح ، فقد ظل برهان يقول لنفسه : لقد جاء هؤلاء ليظفروا بالشهادة في فلسطين او يسهموا في انقاذها ، فلماذا حرموا احدى الحسنيين ، ومن المسؤول عن تحولهم الى هذا المصير الحقير ؟

ولا نظفر بجواب ، لانه هو لم يجب وحسنا فعل . بل لعل الاحسن كان لو لم يلق السؤال اصلا ، اذن لاسترحنا من اثارة مشكلة التصريح بالهدف على هذا النحو من التحمس الاجوف .

يريد المجذوب ان يقول ان البطالة كالغربة تفسد النفوس ، وان تجميد « الوضع » على ما انتهت اليه الكارثة مع وجود الشباب المتطوع للمقاومة ينحرف بهمة هؤلاء الشباب ويجعل من شواغلهم متعهم الرخيصة فقط بدلا من الايمان بالمقاومة نفسها .

لن يتسع المكان ولا الوقت بعد ذلك للتدليل على خطأ هذه الطريقة في الكتابة القصصية ، فليس ما يقنع سوى المقايسة بالاعمال الناجحة وللمجذوب ان يقرأ ما يريد من اعمال السابقين الناجحين . الا ان قصته تظل بعد ذلك جديرة بالقراءة واعادة النظر فيها مرة بعد مرة ، لانها تثير قضية اخطر ما يتعرض له المقاومون .

***

ولا يبقى شيء ، اللهم الا « سيناء بلا حدود » للقاصة سميرة عزام . وكنت ارجو لو انني استطعت ان استشف شيئا ، ولكن فصلا من رواية او قل جزءا من فصل من رواية لا يمكن ان يسمن او يغني من جوع .

وانا اعرف سميرة عزام قصاصة مبدعة ، ولهذا اراني مضطرا الى الاستنتاج بان « سيناء بلا حدود » عمل سيجد فيه الف ناقد ما شاء لهم ان يجدوا من لمحات الفن الرصين . فلاترك الجزء الصغير في انتظار الكل الكبير ، وليكن ختامي بالعودة الى ما بدأت به عن ادب المقاومة فاقول اننا رأينا - بعد الرحلة التي قمنا بها مع قاصي الاداب - محاولات في بعضها خصوبة وفي بعضها الاخر تبشير بخصب واعد . وهذا في حد ذاته ان كان خيرا فلا يدل الا على اننا نعيش ادبا دون مستوى النكبة ، ومن يدري فقد يمضي هذا الجيل كله قبل ان نقرأ الاثر الذي يمكن ان يقال انه حقيقة في مستواها .

القاهرة — احمد كمال زكي